قوله تعالى : ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا** ﴾ أى : إنما جازيتكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ﴿ **وغرتكم الحياة الدنيا** ﴾ أى : خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فاليوم لا يخرجون منها** ﴾ أى : من النار ، ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما قال سبحانه : ﴿ **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين** ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض . رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : فلله الحمد على أياديه على خلقه ، فإياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل مابكم من نعمة فهو مصدرها سبحانه وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهن ﴿ **وله الكبرياء فى السموات والأرض** ﴾ أى : وله الجلال والعظمة والسلطان فكل شيء خاضع له فقير إليه وفى الحديث القدسى يقول رب العزة : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى »[2] أخرجه أحمد ومسلم ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : وهو العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله . تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه . فله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾[3] .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك »

---

(١) سورة فصلت الآية : ٢٤

(٢) مسلم ــ كتاب البر ــ باب تحريم الكبر ٤ /٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ ، ومسند أحمد ٢٤٨/٢ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، وسنن داود ــ كتاب اللباس ــ باب ما جاء فى الكبر ٤ /٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه ــ كتاب الزهد ــ باب البراءة من الكبر ، ٢ /١٣٩٧ رقم ٤١٧

(٣) سورة القصص الآية : ٧٠

تفسير سورة الأحقاف

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، آياتها خمس وثلاثون ، كلماتها : ثلاثمائة وأربع وأربعون . وحروفها : ألفان وخمسمائة وخمس وتسعون .

فواصل آياتها : (من)

وسميت بسورة الأحقاف ، لقوله فيها : ﴿ **إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والأجفاء عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشارة بأهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة ، وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة ، واستقلال لبث اللا بثين فى قوله : ﴿ **كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾

المتشابهات :

ما فى هذه السورة من المتشابه سبق ذكره

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه لتصالها بما قبلها : أنه ــ تعالى ــ ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل الشرك وقوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تنزيل الكتب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق
وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴿٣﴾ قل أرءيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا
خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتب من قبل هذا أو أثرة من علم إن كنتم
صدقين ﴿٤﴾ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن
دعائهم غفلون ﴿٥﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كفرين ﴿٦﴾ وإذا تتلى
عليهم ءايتنا بينت قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ﴿٧﴾ أم يقولون افترىه قل إن
افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور
الرحيم ﴿٨﴾ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا
نذير مبين ﴿٩﴾ قل أرءيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرءيل على مثله فءامن
واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظلمين ﴿١٠﴾ وقال الذين كفروا للذين ءامنوا لو كان خيرا
ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴿١١﴾ ومن قبله كتب موسى إماما
ورحمة وهذا كتب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴿١٢﴾ إن الذين قالوا
ربنا الله ثم استقموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٣﴾ أولئك أصحب الجنة خلدين فيها
جزاء بما كانوا يعملون ﴿١٤﴾

معانى المفردات

(أجل مسمى) هو يوم القيامة ، (أنذروا) أى : خوفوا ، (معرضون) لاهون ، (تدعون) أى : تعبدون ، (شرك) أى : نصيب ، (أثارة) أى : بقية ، (كافرين) مكذبين ، (للحق) المراد بالحق هنا : آيات القرآن ، (افتراه) كذب عليه عمداً ، (فلا تملكون لى من الله شيئا) أى : لا تغنون عنى من الله شيئاً إن أراد عقابى ، (تفيضون فيه) أى : تخوضون فيه من تكذيب القرآن (بدعاً) البدع والبديع من كل شىء : المتبدع المحدث دون سابقة له ، (أرأيتم) أخبرونى ماذا هالكم ، (إفك قديم) كذب متقادم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** * ﴾ يخبر — تعالى — أنه أنزل الكتاب على عبده محمد — ﷺ — ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام ، والحكمة فى الأقوال والأفعال ، وبعد ما وصف — سبحانه — ذاته العلية بالعزة والحكمة بين — سبحانه — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فقال تعالى : ﴿ **ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ .. أى : ما خلقناهما إلا خلقاً ملتبساً بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[1] .

ثم بين بعد ذلك غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ أى : مع ما نصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزل الله من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾ أى : (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ **أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ ؟

كقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[3] ، ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ ؟ أى : ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله — عز وجل — فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ أى : هاتوا كتاباً

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٢
(٢) سورة الفرقان من الآية ٤٤
(٣) سورة لقمان الآيتان ١٠ — ١١

من كتب الله المنزلة على الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ أى : دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى : لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۝ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ .

﴿ **ومن أضل** ﴾ أى : لا أحد أضل وأجهل ، ﴿ **ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة** ﴾ وهى الأصنام والأنداد ، ﴿ **وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ، ﴿ **وإذا حشر الناس** ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ **كانوا لهم أعداء** ﴾ أى : هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . قال القرطبى : فالملائكة أعداء الكفار ، والجن والشياطين يتبرءون غداً من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ، على تقدير خلق الحياة لها ، دليلة قوله تعالى : ﴿ **تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾[2] وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم وهو قوله : ﴿ **وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ۝ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾[3] أى سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم . وقال تعالى وهو يحكى قصة الخليل ابراهيم وهو يقول لقومه : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ۝ ام يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ۝ قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلَىَّ وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣
(٢) سورة القصص من الآية ٢٥
(٣) سورة مريم الآيتان ٨١ ـــ ٨٢
(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٥

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أى : دع هذا وأسمع القول المنكر العجيب ، إنهم يقولون : إن محمدا افتراه على الله عمراً ، واختلقه عليه اختلاقا ، وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً** ﴾ أى : قل لهم : لو كذبت على الله ، وزعمت أنه أرسلنى إليكم ، و لم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[1] .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله تعالى : ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أى : هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه ، من التكذيب بالقرآن ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ **كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم** ﴾ فهو يشهد بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، كقوله تعالى : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً** ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة ، فإن تابوا وأنابوا إلى ربهم وصح عزمهم على الرجوع عما هم عليه ، تاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم . وقوله تعالى : ﴿ **قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم ، فإنه قد أرسل الله ـــ جل وعلا ـــ قبلى جميع الأنبياء إلى أممهم . ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ أى : لا أدرى أيخف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ قاله ابن كثير ثم قال وهذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ـــ ﷺ ـــ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم انه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ـــ ٤٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

(٣) سورة الرعد الآية ٤٢

وقوله : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى : إنما أنا منذر وما على إلا البلاغ والاتباع ، ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ ، قال مالك عن أبى النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام — رضى الله عنه — قال وفيه نزلت (وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله)[1] رواه البخارى ومسلم والنسائى . وقال ابن كثير وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾[3] ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم وكفراً بآيات ربهم فقال : إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى الصراط المستقيم عن من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ .

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقونا هؤلاء إليه يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً — رضى الله عنهم — وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشاً وأخطأوا خطأ بينا كما قال — تبارك وتعالى — ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَن الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ ؟[4] . وقوله : ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾ أى : بالقرآن ، ﴿ **فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ أى : كذب قديم ، أى : فأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى يدخل صاحبه النار ، قال رسول الله — ﷺ — « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[5] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « باب مناقب الأنصار » باب مناقب عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — ص ٥ ، ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٣

(٣) سورة الرعد من الآية ٤٣

(٤) سورة الأنعام الآية ٥٣

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب تحريم الكبر وبيانه » ص ١ ، ص ٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله بن مسعود برقم ١٤٧ / ٩١

وانظر سنن أبى داود « كتاب اللباس » باب ما جاء فى الكبرى ص ٤ ، ص ٣٥٢ حديث رقم ٤٠٩٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ .

أى : ومما يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون فى أن الله أنزل التوارة على موسى وجعلها إماما لبنى اسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد — ﷺ — فلابد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهو مشركو مكة ، وهو بشرى لمن أحسن عملا كقوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾[1] ، وكقوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون** ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ . أى : إن الذين قالوا ربنا الله ، لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ، ولم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم** ﴾[3] وهنا يقول ـ جل وعلا ـ : **﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى : هؤلاء الذين قالوا هذا القول ، واستقاموا ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ثوابا من عند الله كفاء ماقدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .**

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال — ﷺ — : « قل آمنت بالله ثم استقم »[4] .

---

(١) سورة الإسراء الآيتان : ٩ — ١٠

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ — ٥٠

(٣) سورة فصلت الآيات : ٣٠ — ٣١

(٤) انظر صحيح مسلم — كتاب الايمان — باب جامع أوصاف الاسلام ، ص ١ ، ص ٦٥ فقد ورد الحديث بلفظ من حديث طويل عن سفيانبن عبد الله الثقفى برقم ٦٢ / ٣٨

الإحسان إلى الوالدين وأحكام أخرى

قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ
شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٥)
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ
ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ (١٦) وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ
دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)

معانى المفردات

﴿ **ووصينا** ﴾ الإيصاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه . ﴿ **إحساناً** ﴾ الإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن خلاف القبح ، والمراد أن يفعل معهما فعلا ذا حسن . ﴿ **كرْها** ﴾ الكره (بالضم والفتح) المشقة ﴿ **حمله** ﴾ أى : مدة حمله ، ﴿ **فصاله** ﴾ فطامه ، والمراد به : الرضاع التام المنتهى بالعظام ﴿ **أشده** ﴾ الأشد : القوة والعقل ﴿ **أوزعنى** ﴾ أى : رغبنى ووفقنى ، ﴿ **فى أصحاب الجنة** ﴾ أى : منتظمين فى سلكهم ﴿ **أف** ﴾ صوت يصدر من الإنسان حين تضجره . ﴿ **أخرج** ﴾ أى : أبعث من القبر للحساب ، ﴿ **خلت القرون من قبلى** ﴾ أى : مضت ولم يخرج منها أحد ﴿ **يستغيثان الله** ﴾ أى : يقولان الغياث بالله منك ، يقال : استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد : أنهما يستغيثان بالله من كفره ، إنكاراً واستعظاماً له حتى لجآ إلى الله فى دفعه . ﴿ **ويلك** ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك ، يراد به الحث

على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيهٍّ ، وترك ما هو فيه ، وأخذ بما ينجيه ، ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ أى : أباطليهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة . ﴿ **حق عليهم القول** ﴾ أى : وجب عليهم . ﴿ **من الخاسرين** ﴾ أى : من الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين . ﴿ **درجات** ﴾ الدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة . ﴿ **طيباتكم** ﴾ أى : شبابكم وقوتكم يقولون : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . ﴿ **الهون** ﴾ أى : الهوان والذل ﴿ **تفسقون** ﴾ أى : تخرجون عن طاعة الله .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده ــ سبحانه ــ وإخلاص العبادة له ، والاستقامة فى العمل ، أردف هذه الوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾[1] ثم ذكر حال السعداء البررة بهما وما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، وأيضا حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين **للبعث** والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لا شك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين ، ثم بين أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار . ويقال لهم حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق ، وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ .

لما ذكر ــ سبحانه ــ فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن الكريم وقوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالدين إحساناً** ﴾ أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما كقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك إلا تعبدوا إلا أياه وبالوالدين**

(١) سورة الإسراء من الآية ٢٣

احسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾[1] .

وقوله تعالى ﴿ **حملته أمه كرها ووضعته كرها** ﴾ أى : قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا من وصم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿ **ووضعته كرها** ﴾ أى: بمشقة أيضاً من الطلق والشدة والعسر ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ أى : ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيفه ، وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته ، فسبحان من عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ، حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها ، فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان ، تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء ، وأن حياتها تزاد فى حياتك فسبحان الرحمن الرحيم .

وهذه الآية قد استدل على — رضى الله عنه — بها مع اتى فى لقمان ﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **والولدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[2] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه علية عثمان وجماعة من الصحابة — رضى الله عنهم أجمعين — .

وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ أى : حتى إذا قوى وشب وإرتجل وتناهى عقله وبلغ فهمه وحلمه ، وقد قيل لمسردق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك . ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : من أتى عليه الأربعون و لم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار .

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

﴿ **قال رب أوزعنى** ﴾ أى : ألهمنى ﴿ **أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ أى : فى المستقبل أجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

---

(١) سورة الإسراء الايتان ٢٣ — ٢٤
(٢) سورة البقرة من الآية ٢٣٣

وقوله تعالى : ﴿ **وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين** ﴾ أى : واجعل الصلاح سارياً فى ذريتى ، متمكنا من نفوسهم ، راسخاً فى قلوبهم كما دعا إبراهيم الخليل : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾(١)

وكما دعا النبى سليمان : ﴿ **وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إنى تبت إليك وإنى من المسلمين** ﴾ أى : إنى تبت إليك من ذنوبى التى فرطت منى فى أيامى الخوالى ، وإنى من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك ، وفيه أرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله — عز وجل — ثم ذكر جزاءاً أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿ **فى أصحاب الجنة** ﴾ أى : هم فى جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله الغفور الرحيم كما وعد الله — عز وجل — من تاب إليه وأناب ولهذا قال تعالى : ﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك أمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ، وما لهم عنده من الفوز والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى** ﴾ أى : والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلْقه من قبورهم ومجازاته إياهم بعمالهم : أف لكما ، إنى لضِجرٌ منكما ، أتقولان إنى أبعث من قبرى حيا بعد موتى ، إن هذا لعجب عاجب فها هى ذى قرون مضت ، وأُمم قد خلت من قبلى كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد .

وقوله تعالى : ﴿ **وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق** ﴾ أى : ووالداه يستصرفان الله عليه ، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ، ويقولان له حثاً وتحريضاً : هلاكاً لك ، صدق بوعد الله ، إنك

(١) سورة ابراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١
(٢) سورة النمل من الآية ١٩

مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله حق ﴿ **فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى : ما هذا الذى تقولان لى ، وتدعوان إليه ، إلا ما سطره الأولون من الأباطيل .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ قال الحسن وقتادة فى هذه الآية : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث ، فهؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله ، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعقوا عن أمر ربهم ﴿ **إنهم كانوا خاسرين** ﴾ أنفسهم وأهليهم يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾ أى : ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، الأبرار فى عليين ، والفجار فى سجين ، **وليوفيهم** أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[1] .

بر الوالدين ، وتحريم عقوقهما فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة

١ ــ القرآن الكريم يوصى بالوالدين

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾[2] .

فمن هذه الآية نفهم أن الإسلام جعل للوالدين حق البر واللطف والرعاية والرحمة ، وأكد هذا الحق بأن قرنه بحق الله لما له من الإجلال والوفاء . وقال تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىَّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم**

---

(١) سورة الأنبياء من الآية ٤٧

(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ ــ ٢٥

بما كنتم تعملون ﴾[1] أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين وإن حرصا عليك كل الحرص ، على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا تقبل منهما ذلك ــ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ــ ولا يمنعك ذلك أن تصاحبهما فى الدنيا بعمل المعروف والإحسان إليهما .

وقال تعالى : ﴿ **يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾[2] .

ففى هذه الآية يقدم الله ــ سبحانه وتعالى ــ الوالدين على الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل فى صدقة التطوع ، ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، وأدناك أدناك »[3]

٢ ــ بر الوالدين صفة بارزة للأنبياء

يقول الله ــ تعالى ــ عن سيدنا عيسى بن مريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ
﴿ **قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ۝ وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً ۝ وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ۝ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ۝ ذلك عيسى ابن مريم** ﴾[4] أى : ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً .

وقوله على لسان الخليل ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ :
﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ۝ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾[5] .

وقوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام :
﴿ **حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده**

---

(١) سورة لقمان الآيتان ١٤ ــ ١٥
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٥
(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة ص ٣ ، ص ٦١١ باب ذكر صعصعة ابن ناجثة المجاشعى فقد ورد الحديث بلفظه عن صعصعة .
(٤) سورة مريم الآيات ٣٠ ــ ٣٣ ومن الآية ٣٤
(٥) سور ابراهيم الآيتان ٤٠ ــ ٤١

وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾(1) .

وقال تعالى عن سيدنا نوح ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾(2) .

وقال تعالى عن سيدنا اسماعيل ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾(3) .

ففى قول اسماعيل : ﴿ **يا أبت أفعل ما تؤمر** ﴾ أى : امض لما أمرك الله من ذبحى ، تظهر طاعة الابن لأبيه .

وقوله تعالى عن سيدنا يحيى ــ عليه الصلاة والسلام ــ

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾(4) .

فبعد أن وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ يحيى بالأوصاف السابقة من العلم والفهم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو حدث صغير ، وصفه أيضا بأنه كان مطيعاً لوالديه وباراً بهما ، ومجانباً عقوقهما قولا وفعلاً أمراً ، ونهياً .

٣ ــ الإحسان للوالدين وبرهما بعد عبادة الله مباشرة

لقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾(5) .

وقوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً** ﴾(6) .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً** ﴾(7) .

---

(١) سورة النمل الآيتان ١٨ ــ ١٩

(٢) سورة نوح الآية ٢٨

(٣) سورة الصافات الآيات ١٠١ ــ ١٠٧

(٤) سورة مريم الآيات ١٢ ــ ١٥

(٥) سورة الاسراء من الاية ٢٣

(٦) سورة النساء من الآية ٣٦

(٧) سورة البقرة من الآية ٨٣

وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً ﴾[(١)] .

والحديث الذى يرويه عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : « سألت رسول الله ــ ﷺ ــ أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله »[(٢)] (متفق عليه) .

فقد جعل منزلة بر الوالدين بعد الصلاة مباشرة وقبل الجهاد فى سبيل الله .

٤ ــ بر الوالدين يدخل الجنة وعقوقهما يدخل النار

ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه » قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « من أدرك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة »[(٣)] مختصر صحيح مسلم (١٧٥٨) .

ومعنى رغم أنفه : أى لصق بالرغام وهو التراب . من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار .

ــ وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : ارتقى النبى ﷺ على المنبر درجة فقال : آمين ، ثم ارتقى الثانية فقال : آمين ، ثم ارتقى الثالثة فقال : آمين ، ثم استوى فجلس ، فقال أصحابه : على ما أمَّنت ؟ قال : « أتانى جبريل فقال : رغم أنف امرىء ذُكرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فقال : رغم أنف امرىء أدرك أبويه فلم يدخل الجنة ، فقلت : آمين ، فقال : رغم أنف امرىء أدرك رمضان فلم يغفر له ، فقلت آمين[(٤)] (حديث صححه الشيخ الألبانى فى رسالة « فضل الصلاة على النبى » .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان ــ باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال » ص ١ ، ص ٩٠ فقد ورد الحديث بلفظ « أى الأعمال أحب إلى الله .. » من رواية عن الوليد بن العيزار برقم ١٣٩ / ٨٥ .

وأما رواية عبد الله بن مسعود فجاءت بلفظ : (أى العمل أفضل ...) حديث رقم ١٣٧ / ٨٥ .

(٣) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب « رغم أنف من أدرك أبويه .. » ص ٢ ، ص ٢٢٩ من رواية لأبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ١٧٥٨ .

وانظر الترغيب والزهيد « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب « الترغيب فى بر الوالدين .. الخ » ص ٣ ، ص ٥٢٨ حديث رقم ٢٢ من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب « ما جاء فى البر وحق الوالدين » ص ٨ ، ص ١٣٩ ، فقدور والحديث عن جابر بن أبى سمرة بلفظه قال : صدور النبى ﷺ المنبر فقال : آمين آمين آمين ، قال : أتانى جبريل ــ عليه السلام ــ فقال : يا محمد ، من أدرك أحد والديه فمات فدخل النار فأبعده الله فعل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : يا محمد ، من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، رواه الطبرانى بأسانيد وأحدها حسن ، ولهذا الحديث طرق فى الأدعية فى الصلاة على النبى ﷺ .

ــ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »[1] . (صحيح الجامع (٣٠٦٦) والسلسلة الصحيحة للألبانى « ٦٧٤ ») .

والعاق : اسم فاعل من عق . والعقوق : أشد العصيان للوالدين . والديوث : بتشديد الياء ، هو الذى يُقر أهله على الزنا مع علمه بهم . والمنان : الذى يمن على الناس بعطيته لهم .

وعن أن الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر »[2] . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٥ ») .

قال : « لا يدخل حظيرة القدس ، سكير ، ولا عاق ، ولا منان »[3] وحظيرة القدس : الجنة . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٣ ») .

وعن عمرو بن مرة الجهنى ــ رضى الله عنه ــ قال : « جاء رجل إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : يا رسول الله ، شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان ، فقال النبى ﷺ : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه »[4] . (صحيح الترغيب والترهيب ، فبين هذا الحديث أن عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة .

٥ ــ رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاصى ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال « رضى الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد »[5] (السلسلة الصحيحة « ٥١٦ ») .

وفى رواية « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما »[6] (صحيح الجامع برقم ٣٥٠١) .

---

(١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ٣ ، ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر حديث ص ٣٥٤٢ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٦ ، ص ٤٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

(٣) انظر صحيح ابن حبان ص ٥ ، ص ١٦٣ فقد ورد الحديث رقم ٣٣٧٥ من رواية لعبد الله بن عمرو ولفظه « لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر » .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب الزهيد من عقوق الوالدين .. ص ٣ ، ص ٥٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن مرة الجهنى .

وانظر كنز العمال ص ١ ، ص ٨٣ فقد ورد الحديث برواية عن عمرو بن مرة الجهنى حديثه ص ٣٤٢

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « الفضل فى رضا الوالدين » ص ٣ ، ص ٢٠٧ فقد ورد الحديث رقم ١٩٦٢ برواية عن عبد الله بن عمرو بلفظه .

(٦) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب « الزهيب عن عقوق الوالدين » ص ٣ ، ص ٥٣٥ حديث ص ٣٠ فقد ورد الحديث فى ص ٥٣٥ بلفظ « رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين وسخط ــ الله تبارك وتعالى ــ فى سخط الوالدين » .

٦ ــ تحريم عقوق الوالدين وأنه من الكبائر

عن أبى بكرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[١] .

ومعنى « حتى قلنا ليته سكت » : إشفاقاً عليه ، لما رأينا أثر أنزعاجه فى ذلك . وعن أنسى رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين »[٢] (رواه البخارى ومسلم) .

٧ ــ ترك الجهاد لبر الوالدين وصحبتهما فالجنة تحت أقدامهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاء رجل إلى نبى الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : أحىٌّ والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد »[٣] . (رواه البخارى ومسلم) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما »[٤] . (رواه أبو داود / صحيح الترغيب والترهيب » .

ومعنى (فأضحكهما) أى : أدخل إليهما السرور واجلب لهما الفرح .

وعن طلحة بن معاوية السلمى ــ رضى الله عنه ــ قال : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنى أريد الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : أمك حَّية ؟ قلت : نعم ، قال النبى ﷺ : الزم رِجلها فثمَّ الجنة »[٥] . (رواه الطبرانى وحسنه الألبانى » صحيح الترغيب والترهيب) .

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ، ص ٤ ، ٥ « كتاب الأدب » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الرحمن ابن أبى بكره عن أبيه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » ج ٨ ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث من رواية أنس بلفظ : « قال ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس ، وعقوق الوالدين .. الخ » .

(٣) وانظر صحيح البخارى من « كتاب الجهاد » ج ٤ ص ٧١ باب الجهاد بإذن الأبوين فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وإنهما أحق به ج ٤ ، ص ٧٥ ، ١٩ حديث رقم ٥ /٢٥٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمرو .

(٤) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب البر والصلة » ج ٤ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ حديث رقم ٢٥٢٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو .

(٥) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ، ص ٣٧٢ باب ما روى عن كلمة بن معاوية السلمى فقد ورد الحديث ٨١٦٢ من رواية طلحة عن أبيه ، وبلفظه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرها » باب الترغيب فى بر الوالدين وصلتهما ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ٩ من رواية طلحة بن معاوية السلمى .

ومعنى « الزم رجلها » : اخضع لها واقترب منها وراعها واخدمها ، فهناك الجنة ، وبسبب رضاها تحظى بنعيم الله .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أردت أن أغزو ، وقد جئت استشيرك ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها . (رواه ابن ماجه والنسائى وحسنه الألبانى / صحيح الترغيب والترهيب)[1]

وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ « أن رجلا هاجر الى رسول الله ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى ، قال : أذنا لك ؟ قال : لا ، قال : ارجع اليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما »[2] . (صحيح الجامع « ٩٠٥ » وارواء الغليل « ١١٩٩ » للألبانى) .

٨ ـ بر الوالدين من الأعمال الصالحة التى يدعو الإنسان بها الله :

عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر ، فآووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا بها لعله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم :

اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنىَّ ، وإنى نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رؤوسهما ، اكره أن أوقظهما من نومهما ، واكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها ، قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم فرجة .

---

(١) انظر سنن النسائى « كتاب الجهاد » الرخصة فى التخلف لمن له والده ج ٦ ، ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية عن معاوية من جاهمة السلمى .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل بغزو وأبواه كارهان ، ج ٣ ، ص ٤٩ حديث رقم ٢٥٣٠ فقد ورد بلفظه من رواية لأبى سعيد الخذرى .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله . قال لى ، أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرع حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ، فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى ، قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها ، فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى ، فقلت : إنى لا استهزىء بل ، خذ ذلك البقر ورعاءها ، فأخذه وذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج ما بقى ففرج الله ما بقى »[1] . (رواه البخارى ومسلم) صحيح الترغيب والترهيب .

٩ ــ رضى الوالدين مقدم على رضى الزوجة :

عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان تحتى امرأة أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لى : طلقها ، فأبيت ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال لى رسول الله ﷺ : « طلقها »[2] . (صحيح الترغيب والترهيب تحقيق للألبانى) .

١٠ ــ تقديم بر الوالدة على الوالد :

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أملك ، قال : ثم من ؟ قال : أملك ، قال : ثم من ؟ قال : أملك . قال ثم من ؟ قال أبوك[3] . (رواه البخارى ومسلم صحيح الترغيب والترهيب) .

وهذا الحديث مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب فى التربية وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين** ﴾[4] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب قصة أصحاب الغر الثلاثة ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ فحديث رقم ١٠٠ / ٢٧٤٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر صحيح البخارى « كتاب بدر الخلق » باب حديث الغار ج ٤ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب فى بر الوالدين وصلتهما .. الخ ج ٣ ص ٥٢٦ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر سنن أبى داود « كتاب الأدب » باب فى بر الوالدين ج ٥ ، ص ٣٥٠ حديث / ٥١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الادب » باب من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب بر الوالدين وأنهما أحق به ج ٤ ، ص ١٩٧٤ حديث رقم ١ / ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة لقمان من الآية ١٤

١١ ــ دعوات الوالدين مستجابة :

عن أبي هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات مستجابات » لا شك فيهن : دعوة الوالد لولده ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم »[(١)]. (صحيح الجامع « ٣٠٢٨ ») وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر [(٢)] (صحيح الجامع « ٣٠٢٩ ») .

١٢ ــ من بر الوالدين الدعاء لهما والحرص على نصحهما وهدايتهما حتى لو كانا كافرين .

عن أبي هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام ، وهي مشركة ، فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت : يا رسول الله ، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام ، فتأبى علي ، فدعوتها اليوم ، فأسمعتني فيك ما أكره ، فأدع الله أن يهدي أم أبي هريرة ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم أهد أمَّ أبي هريرة ، فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئت قصدت إلى الباب ، فإذا هو مجاف (أي مغلق) فسمعت أمي خشف قدمي ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح ، قال : قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك ، وهدى أم أبي هريرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال خيراً . قال : قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يحبِّبني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحبِّبهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم حبب عبيدك هذا (يعني أبا هريرة) وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين » فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني [(٣)] (رواه مسلم « ٧ / ١٦٥ ») فضائل أبي هريرة) .

---

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ، ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة مع تقديم وتأخير فى بعض جمله .

(٢) السنة الكبرى للبيهقي « كتاب صلاة الاستسقاء » باب « استحباب الصيام .. اخ » ج ٣ ، ص ٣٤٥ من رواية لأنس بلفظ : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب فضائل الصحابة » باب من فضائل أبي هريرة الدوس ج ٤ ، ص ١٩٣٨ حديث رقم ١٥٨ / ٢٤٩١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

١٣ ــ سب ولعن الوالدين من الكبائر :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[١] . (رواه البخارى ومسلم وأبو داود / صحيح الترغيب والترهيب) .

وعن عامر بن واثلة قال :

كنت عند على بن أبى طالب ، فأتاه رجل ، فقال : ما كان النبى ﷺ يُسرُّ إليك ؟ قال : فغضب ، وقال : ما كان النبى ﷺ يسر إلى شيئا يكتمه الناس ، غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع قال : فقال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض »[٢] . (مختصر صحيح مسلم « ١٢٦١ ») ومعنى « آوىَ محدثاً » ، أى : مبتدعاً ، وإيواؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له « غير منار الأرض » أى : نقل حدودها ، وتغيير حدودها أن يدخلها فى أرضه فيكون فى معنى الغاصب لها .

١٤ ــ الولد من كسب أبيه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ : « أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : إن لى مالاً وولداً ، وإن والدى يريد أن يجتاح مالى ، قال : أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم »[٣] . (ارواء الغليل « ٨٣٨ » للشيخ الألبانى) .

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، والدى أكل مالى فقضى رسول الله ﷺ إنك ومالك لأبيك »[٤] . (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») .

وفى رواية أخرى « الولد من كسب الوالد » (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») .

---

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ، ص ٢٠٨ حديث رقم ١٩٦٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب لا يسب الرجل والديه ج ٨ ، ص ٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب الأضاحى » باب فيمن ذبح لغير الله ج ٢ ، ص ١٠١ حديث / ١٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن واثلة .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢١٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبد الله بن عمرو بن العاص) .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢٠٤ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بلفظ « أن رجلا أتى النبى ﷺ يخاصم أباه فقال : يا رسول الله ، إن هذا قد احتاج إلى مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

١٥ ــ بر الوالدين بعد موتهما :

فبرهما بعد الممات الدعاء لهما والاستغفار قال تعالى : ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾[٢] .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[٣] . (اخرجه مسلم) .

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر : فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده ، وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك »[٤] . (حديث حسن حسنة الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب) .

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « من البر أن تصل صديق أبيك »[٥] . (صحيح الجامع « ٥٧٧٧ ») .

قصة للاعتبار

عن العوام بن حوشب ـ رضى الله عنه ـ قال : نزلت مرة حياً وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد الإنسان ، فنهق ثلاث نهقات ، ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعراً أو صوفاً ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : مالها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت ، وماكان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يابنى اتق الله إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قال : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم ، فينهق ثلاث نهقات ، ثم ينطبق عليه القبر .

---

(١) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٢) سورة ابراهيم الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » ج ٣ ، ص ٥٣٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٤ من رواية لأبى بردة والحديث بلفظه

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب صديق الأب ج ٨ ، ص ١٤٧ فقد ورد الحديث برواية عن أنس وبلفظه . وقال رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عتبة بن عبد الرحمن القرشى وهو متروك وفى رواية عن ابن عمر « احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفىء الله نورك » رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن .

رواه الأصبهانى وغيره ، وقال الأصبهانى : حدث به أبو العباس الأصم املاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه »[(١)] . (وقد حسن الشيخ الألبانى هذه الرواية / صحيح الترغيب والترهيب) .

فسبحان الله ، جعل صورة هذا الرجل صورة حمار له صوت منكر مرتفع لماذا ؟ لأنه خالف نصيحة أمه ، وصد عن قولها ورماها بالوقاحة وقلة الأدب ، وألفاظ البذاءة « أنت تنهقين » فلو سمع نصحها وصغى إلى قولها ، واسترشد بنور إيمانها لنعم وفاز بالجنة لكن عصاها فاستحق كل إهانة وازدراء .

وأخيراً : على الوالدين أن يحسنوا تربية أولادهم ليكن لهم الولد البار الصالح الذى ينفعهم بعد موتهم .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[(٢)] . (اخرجه مسلم) .

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ أن سعد بن عبداة توفيت أمه وهو غائب عنها ، فقال : يا رسول الله ، إن أمى توفيت ، وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت بشيء عنها ؟ قال : نعم ، (قال) : فإنى أشهدك أن حائط المخراف صدقة عليها »[(٣)] . (اخرجه البخارى) .

(والمخراف : أى المثمر مسمى بذلك لما يخرف منه أى يجنى من الثمر) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ : « أن رجلا قال للنبى ﷺ : إن أبى مات وترك مالا و لم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم »[(٤)] . (اخرجه مسلم وغيره) .

أ . هـ (من كتاب بر الوالدين فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة للشيخ نظام سكجها) .

قوله تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ .

أى : ذكرهم يا محمد ، يوم يعرض ﴿ **الذين كفروا على النار** ﴾ أى : يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها ﴿ **أذهبتم طيباتكم** ﴾ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ يقال لهم ــ على وجه التقريع ــ تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعنى المعاصى . ﴿ **فاليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أى : عذاب الخزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون : الهوان .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب الترهيب عن عقوق الوالدين .. ج ٣ ص ٥٤٧ ــ ٥٤٨ حديث رقم ١٧ عن العوام بن حوشب ــ رضى الله عنه ــ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب العصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الوصايا » باب الاشهاد فى الوقف والصدقة » ج٤ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب وصول ثواب الصدقات إلى الحديث ج ٣ ص ١٢٥٤ حديث ١١ / ١٦٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

﴿ **بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى : تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ **وبما كنتم تفسقون** ﴾ فى أفعالكم بغياً وظلماً .

وقيل : ﴿ **اذهبتم طيباتكم** ﴾ أى : أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . قال القرطبى : والقول الأول أظهر .

قال قتادة : ذكر لنا أن عمر ــ رضى الله عنه ــ قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ، ولكنى استبقى طيباتى للآخرة .

وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر ــ رضى الله عنه ــ دخل على النبى ﷺ وهو فى مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئاً يرد البصر إلا أهباً جلوداً معطوفة قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى **وقيصر فى الديباج والحرير** ؟ قال : فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » فقلت استغفر لى ، فقال : « اللهم اغفر له »[1] .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن **والخبز والقديد** ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجيء بخبز متفلع (مشقق) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا فجعلنا لا تأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين ، ترجع إلى طعام الين من طعامك هذا ، فقال : يا بن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أنى لو أمرت **بعناق** سميته فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصلّية (مشوية) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل ما تنعت العيش ، قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتكم فى العيش ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** .. ﴾ الآية .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقال : ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : ﴿ **أذهبتم طيباتكم .. الآية** ﴾ قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلْف الخبز والماء ، فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع ، وتستمرؤها العادة

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الطلاق » باب فى الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن .. الخ ج ٢ ص ١١١١ حديث رقم ٣٤ / ١٤٧٩ فقد ورد الحديث ضمم حديث طويل من رواية لابن عباس .

فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

قال العلاقة القرطبى . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيباً كان أو قفارا (الطعام بلا آدم) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذ تيسر ، ولا يعتمده أصلا ولا يجعله ديدناً . ومعيشة النبى ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

. وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر ، لا على تناول الطيبات المحللة وهو حسن ، فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ــ بشرط عدم الأسراف ــ قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾[1] ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه والله أعلم قاله القرطبى .

طرف من قصة هود

۞وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا
اللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ
فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ
وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

(١) سورة الأعراف من الآية ٣١

معانى المفردات

﴿ **أخا عاد** ﴾ هود عليه السلام ، ﴿ **الأحقاف** ﴾ واحدها حقف ــ بالكسر والسكون ــ وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمان ومهرة كانت تسكنه عاد ، ﴿ **النذر** ﴾ واحدهم نذير أى : منذر ، ﴿ **من بين يديه** ﴾ أى : من قبله ، ﴿ **ومن خلفه** ﴾ أى : من بعده ، ﴿ **لتأفكنا** ﴾ لتصرفنا ، ﴿ **عن آلهتنا** ﴾ عن عبادتها ،﴿ **بما تعدنا** ﴾ أى : من معاجلة العذاب على الشرك ، ﴿ **إنما العلم عند الله** ﴾ أى : العلم بوقت نزوله عند الله ،﴿ **عارض** ﴾ **العارض السحاب الذى يعرض فى** أفق السماء ، ﴿ **مستقبل أوديتهم** ﴾ أى : متجها إليها . ﴿ **تدمر** ﴾ تهلك ، ﴿ **حاق** ﴾ أى : نزل ، ﴿ **صرفنا** ﴾ أى : بينا ونوعنا ، ﴿ **الآيات** ﴾ الحجج والصبر ، ﴿ **فلولا** ﴾ أى : فهلا ، ﴿ **نصرهم** ﴾ أى : منعهم ، ﴿ **قربانا** ﴾ أى : متقرباً بهم إلى الله ، ﴿ **ضلوا عنهم** ﴾ أى : غابوا عنهم ، ﴿ **إفكهم** ﴾ أى : أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى : وأثر افترائهم وكذبهم .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن أورد ــ سبحانه ــ الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة و لم يلتفتوا إليها و لم تجدهم فتيلا ، ولا قطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها ــ أردف هذا ذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود ــ عليه السلام ــ وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جنداً ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم وعنادهم ، و لم يغنى عنهم ما لهم من الله شيئاً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ . أى وأذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق ــ هوداً أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوا له الألوهية، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحاً : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول . ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون ۝ إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[1] .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٨٩ ــ ٩٠

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى : قال قومه له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه ، وإلى اتباعك فيما تقول ، هلم فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة إن كنت صادقاً فى قولك وعِدَتِك .

فرد هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى : قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندي ، فلا أستطيع تعجيله ، ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال : (وأبلغكم ما أرسلت به) من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب فلست عليكم بمسيطر ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربى .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال : (ولكنى أراكم قوماً تجهلون) أى : وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم و لم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجىء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال تعالى : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ .

أى : فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحاباً يعرض فى أفق السماء متجهاً إلى أوديتهم (قالوا هذا عارض ممطرنا) ظناً منهم أن غيثاً قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم **سحابة سوداء فخرجت** عليهم من وادٍ لهم يقال له : المعتبِّ ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيراً . قال تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلم به ريح فيها عذاب أليم** ﴾ أى : بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر . ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ أى : تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها ، كقوله تعالى : ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾[1] أى : كالشىء البالى الخلق ، ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ أى : كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا فأهلكناهم بذنوبهم ، كذلك نجزى كل مجرم كافر بالله متماد فى غيه . ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

اخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عُرف ذلك فى

(١) سورة الذاريات الآية ٤٢

وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ، قال : « يا عائشة ، وما يؤمّننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا »[1] .

لذا كان ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »[2] .. الحديث رواه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاًوأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾

أى : لقد مكنا عاداً — الذين أهلكناهم بكفرهم — فيما لم ينمكنكم فيه من الدنيا وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله من الأموال الكثيرة ، وبسطة الأجسام وقوة الأبدان . كقوله تعالى : ﴿ **كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض** ﴾[3] .

﴿ **وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة** ﴾ أى : إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه فى سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليروا ما نصباه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكم الله فى خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم فى آخرتهم ويقربهم من جوار ربهم ، بل صرفوها فى طلب الدنيا والملذات والمنكرات . ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء** ﴾ لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، ثم بين سبحانه العلة فى عدم اغناء ذلك عنهم فقال : ﴿ **إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ أى : لأنهم كانوا يكذبون رسل الله ، وينكرون معجزاتهم . ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى : ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه فإن عادا لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، و لم تغن عنهم قوتهم ولاكثرتهم شيئا — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ۞ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ حديث ١٦ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ حديث رقم ١٥ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة غافر من الآية ٨٢

لما أخبر ـ سبحانه ـ **بهلاك قوم عاد** على ما لهم من المكانة العظيمة ، ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، اتبعه بذكر من كان مشاركاً لهم فى التكذيب فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى** ﴾ أى : ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وثمود وسبأ ومدين وقرى لوط ، ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[1] ، وقوله ﴿ **وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ أى : وبينا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيهم فلم يرجعوا .

وقوله : ﴿ **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة** ﴾ أى : فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتهم قرباناً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا حيث قالوا : ﴿ **هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾[2] ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى : هلكوا عنهم ، وقيل : ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى : ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم . إذ هى جماد . وقيل : ﴿ **ضلوا عنهم** ﴾ أى : تركوا الأصنام وتبرءوا منها ﴿ **وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ أى : والآلهة التى ضلت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى : يكذبون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾[3] .

الجن يستمعون القرآن

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ـ ١٣٨ (٢) سورة يونس من الآية ١٨ (٣) سورة هود الآيتان ١٠٠ ـ ١٠١

معانى المفردات

﴿ **صرفنا** ﴾ أى : وجهنا ، ﴿ **نفرا** ﴾ والنفر ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، ﴿ **أنصتوا** ﴾ أى : اسكتوا ، ﴿ **قضى** ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ **ولوا** ﴾ أى : رجعوا ، ﴿ **منذرين** ﴾ أى : مخوفين لهم عواقب الضلال ، ﴿ **يجركم** ﴾ أجاره من كذا : أنقذه منه ، ﴿ **داعى الله** ﴾ هو الرسول ﷺ ، ﴿ **فليس بمعجز** ﴾ أى : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ﴿ **لم يعى** ﴾ أى : لم يعجز ﴿ **أولو العزم** ﴾ أى : ذووا الحجزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوح والخليل الممجد ... وموسى وعيسى والحبيب محمد

﴿ **بلاغ** ﴾ أى : كفاية فى الموعظة

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر ــ أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرّض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن . وفى هذا البيان توبيخ لمشركى قريش ، لأن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله وأهل مكة معرضون مصرون على الكفر ، ثم ختم السورة بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، وأعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيقتصرون على مدة بعثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا . ثم بين بأن فى هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ولم ينقد لأمره ونهيه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ .

أى : وأذكر أيها الرسول لقومك ــ موبخاً لهم على كفرهم ــ بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرجعون عن غيّهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله ــ فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من

تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً ۝ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ۝ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ۝ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ۝ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ۝ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ۝ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ۝ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ۝ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ۝ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ۝ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ۝ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ۝ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ۝ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ۝ وألو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً ۝ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ۝** ﴾(١) .

اخرج الامام أحمد فى سنده عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، **فانطلقوا يضربون مشارق** الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا ۝ يهدى إلى الرشد فأمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن(٢) رواه البخارى عن مسدد بنحوه ، واخرجه مسلم عن أبى عوانه به ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث إبى عوانه . وهكذا قال الحسن البصرى إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

---

(١) سورة الجن الآيات ١ ـــ ١٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر السفر وما يجهرو ما يخافت ج ١ ، ص ١٩٥ « باب الجهر فى قراءة الفجر » فقد ورد الحديث يلفظ عن ابن عباس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة ج ١ ص ٣٣١ حديث ١٤٩ / ٤٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥٢ فقد ورد الحدث بلفظه عن رواية لابن عباس .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذي حكاه ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم **ثم بعد ذلك أتاه داعي** الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله ــ عز وجل ــ كما رواه عبد الله بن سعود رضي الله عنه قال الامام أحمد بسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال ما صاحبه منا أحد ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما كان في وجه الصبح أو قال في السحر إذا نحن به يجيء من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذي كانوا فيه فقال : « إنه أتاني **داعي** الجن فأتيتهم فقرأت عليهم ، قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبي سألوه الزاد . قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم قال فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد **اخوانكم** من الجن »[1] وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

وقد وردت أحاديث **كثيرة** أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا** ﴾ أي : استمعوه وهذا أدب منهم ، وقد قال الحافظ البيهقي عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنهما ــ قال : قرأ رسول الله ﷺ ــ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لي أراكم سكوناً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ **فبأي ألاء ربكما تكذبان** ﴾ إلا قالوا : « ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[2] ورواه أيضا الترمذي ثم قال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما قضى** ﴾ أي : فرغ من تلاوته ، ﴿ **ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ أي : رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً كما في قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾[3] ، وقوله :

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ج ١ ص ٣٣٢ حديث رقم ١٥٠ / ٤٥٠ من رواية لابن مسعود .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب التفسير » تفسير سورة « الرحمن » ج ٥ ص ٧٣ ــ ١٤ حديث رقم ٣٣٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٣) سورة يوسف من الآية ١٠٩

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾(٤) .

ثم فسر سبحانه إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم بقوله تعالى : ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ .

أى : قالوا لهم : يا قومنا من الجن ، إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توارة موسى يصدق ما قبله من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق وإلى ما فيه لله رضا ، وإلى الطريق الذى لا عوج فيه . وخصّوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين .

وقوله تعالى : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ .

أى : يا قومنا أجيبوا رسول الله محمداً ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه ــ وهذا يدل على أنه ــ ﷺ ــ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً مسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة إلَّى قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس .

وفى رواية من حديث أبى هريرة « وبعثت إلى الخلق كافة وختم بى النبوة »(٢) .

وقوله تعالى ﴿ وآمنو به ﴾ أى : بالداعى ، وهو محمد ﷺ وقيل : « به » أى : بالله لقوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ، قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً ، فرجعوا إلى النبى ﷺ فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم . وقوله : ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ أى : ويقيكم من عذابه الأليم قال القرطبى : هذه الآى تدل على أن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى .

قوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ أى : ومن لا يجب رسول الله محمداً ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ حديث رقم ٣ / ٥٢١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجابر بن عبد الله الأنصارى .

عنه عذابه ، وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون فى ضلال بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضحة وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ . أى : أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثة إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شىء ، ولم يعى فى إنشائهن ــ بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتم قبل وفاتهم ؟ كقوله تعالى : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

ثم أجاب عن ذلك مقرراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال تعالى : ﴿ **بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ ذو قدرة على كل شىء أراد خلقه ، ولا يعجزه شىء أراد فعله .

ولما أثبت البعث ــ سبحانه ــ بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأهوال فقال تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .

أى : يقال لهم يوم القيامة ــ على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هذا العذاب الذى تعذبون اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا ، بالحق الذى لا شك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا ، انه الحق ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أى : بسبب كفركم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أو زارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** ﴾[2] .

قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو**العزم** من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٣٠ ــ ٣١

أى : فاصبر أيها الرسول ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ على ما أصابك فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذرا ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته . ولما أمره بالصبر ، وهو أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة فقال تعالى : ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أى : لا تعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة كقوله تعالى : ﴿ **وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا** ﴾[١] ، وكقوله تعالى : ﴿ **فمهل الكافرين أمهلهم رويداً** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أى : كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم ــ لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ــ لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار كقوله تعالى : ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴾[٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **بلاغ** ﴾ أى : هذا القرآن بلاغ للناس ، وكفاية إن فكروا واعتبروا كقوله تعالى : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به** ﴾[٥] ، وقوله ﴿ **إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾[٦] ثم أوعد وأنذر فقال جل فى علاه : ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ أى : وما يَهلك بالعذاب إلا الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لأمره ونهيه .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك شرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء ، ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) سورة المزمل الآية ١١
(٢) سورة الطارق الآية ١٧
(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١١٢ ــ ١١٣
(٤) سورة النازعات الآية ٤٦
(٥) سورة إبراهيم من الآية ٥٢
(٦) سورة الأنبياء الآية ١٠٦

تفسير سورة محمد

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وثلاثون .

كلماتها : خمسمائة وتسع وثلاثون

وحروفها : ألفان وثلثمائة وتسع وأربعون

ولها اسمان : سورة محمد ، لقوله : ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق** ﴾

وسورة القتال ، لقوله : ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الكفار فى إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان وابتلاء الكفار فى العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، وتخصيص الرسول ﷺ بأمره بالخوض فى بحر التوحيد والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمات خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخلاء فى الانفاق ، وبيان استغناء الحق — تعالى — وفقر الخلق فى قوله : ﴿ **والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة** ﴾ نزل وأنزل كلاهما متعد . وقيل : نزل للتعدى والمبالغة ، وأنزل للتعدى . وقيل : نزل . دفعة مجموعا وأنزل متفرقا ، وخص الأولى بنزلت ، لأنه من كلام المؤمنين ، وذكر بلفظ المبالغة ، وكانوا يأنسون لنزول الوحى ، ويستوحشون لإبطائه . والثانى من كلام الله — تعالى — ولأن فى أول السورة ﴿ **نزل على محمد** ﴾ وبعده ﴿ **أنزل الله** ﴾ ، وكذلك فى هذه الآية قال ﴿ **نزلت** ﴾ ثم ﴿ **أنزلت** ﴾ .

قوله : ﴿ **من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم** ﴾ نزلت فى اليهود ، وبعده : ﴿ **من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً** ﴾ نزلت فى قوم ارتدوا . وليس بتكرار .

مناسبتها لما قبلها

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلا اتصالاً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض . فالأحقاف فيها الحديث عن إعراض الكافرين فى مختلف العصور ، وقد استنفدت السورة وسائل الإقناع العقلى ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا
نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا
لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ
تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ
أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

معانى المفردات

﴿ **صدوا عن سبيل الله** ﴾ أى : صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه . ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى : أبطلها ، ﴿ **وهو الحق من ربهم** ﴾ أى : وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه . ﴿ **بالهم** ﴾ أى : حالهم فى الدين الدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكترث بها . ﴿ **يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى : يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى معادهم .

﴿ **فإذا لقيتم** ﴾ لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ أى : فالقتل وعبر به عنه تصويراً له بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه الأعضاء ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ،

﴿ **أثخنتموهم** ﴾ أى : أكثرتم القتل فيهم ، ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ أى : فأسروهم،والوثاق (بالفتح والكسر) ما يوثق به ، ﴿ **مَنّا أى : إطلاقاً من الأسر بالمجان** . ﴿ **فداء** ﴾ أى : إطلاقا فى مقابلة مال أو غيره ، ﴿ **أوزارها** ﴾ الأوزار فى الأصل : الأحمال ويراد بها : آلات الحرب وأنفالها من السلاح والكُراع .

﴿ **لانتصر** ﴾ أى : انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ﴿ **ليبلو** ﴾ أى : ليختبر . ﴿ **يضل** ﴾ أى : يضيع ، ﴿ **بالهم** ﴾ أى شأنهم وحالهم ، ﴿ **عرفها** ﴾ أى : بينها وأعلمها . ﴿ **تنصروا الله** ﴾ أى : تنصروا دينه ، ﴿ **فتعساً لهم** ﴾ أى : سقوطاً على الوجه وسقوطاً على الرأس ، ﴿ **أحبط أعمالهم** ﴾ أبطلها .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه . وهذا هو الكفر المزدوج أو الضلال المضاعف أو تحول الكفر من حيوان عادى إلى حيوان شرس فاتك قاتل ، هذا الكفر المزدوج المقرون بالصد عن سبيل الله هو ما شكا المؤمنون منه قديما وحديثاً هو ما أعلن القرآن عليه حرباً شعواء قال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾[1] وبين سبحانه أنهم ينفقون أموالهم للصد عن الإسلام فقال تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عيهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[2] فقد أخبر ـــ تعالى ـــ أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى : ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزى لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى .

وقوله تعالى : ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى : أبطل كيدهم ومكرهم وجعل الدائرة عليهم ـــ وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم أخلاق ، من صلة أرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام ونحو ذلك حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثواباً ، كقوله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء الآيات : ١٦٧ - ١٦٩ (٢) سورة الأنفال الآية : ٣٦ (٣) سورة الفرقان آية ٢٣.

ولما ذكر ــ سبحانه ــ جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا اصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ، ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته ــ ﷺ ــ قاله ابن كثير ، ﴿ **وهو الحق من ربهم** ﴾ جملة معترضة حسنة . ﴿ **ولهذا قال ــ جل جلاله ــ** : ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ أى : فامضى من سيئاتهم وأصلح شأنهم فى الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم فى الآخرة ، بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم فى جناته قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ .

« ذلك » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا ، فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى : كهذا البيان الذى بُين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أمثالهم » يرجع إلى الذين كفروا ، والذين آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ۝ سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ .

يقول تعالى : مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ، ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم** ﴾ : أى : أهلكتموهم قتلاً ، ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال قتادة : حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾(١) .

قال ابن كثير : وقال بعضهم : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أى : أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ــ عز وجل ــ ، وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله ــ تعالى ــ وقيل معناه : حتى تضع الحرب ، أى : الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٣

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم** ﴾ ، « ذلك » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت وقيل : هو مقصور على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والمعنى ذلك حكم الكفار وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . قاله القرطبى . ومعنى : ﴿ **لا نتصر منهم** ﴾ أى : أهلكهم بغير فقال : قال ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة ، ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى : أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين كما بين — سبحانه — فى آخر السورة نفسها ﴿ **ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾

وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[1] **وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾**[2] **وكقوله جل علاه : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾**[3]

وقوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ۝ سيهديهم ويصلح بالهم ۝ ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ . لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال — سبحانه — مبيناً — أن الذين قتلوا فى سبيله فلن يذهب أعمالهم بل يكثرها وينميها ويضاعفها : منهم من يجرى عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده عن كثير من مرة عن قيس الجذامى — رجل كانت له صحبة — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يعطى للشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان »[4] تفرد به أحمد رحمه الله . ذكره ابن كثير .

وفى صحيح مسلم عن أبى قتادة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين »[5] وذكر ابن كثير فى تفسيره حديثا لأبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته »[6] ورواه أبو داود .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٣) سورة التوبة الآية ١٦

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٠٠ حديث قيس الجامى — رضى الله عنه — فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن قيس الجزامى . (رجل كانت له صحبة) .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الاماره » باب « من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه ، إلا الدين » ج ٣ ص ١٥٠٢ حديث رقم ١١٩ / ١٨٨٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٦) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الشهيد يشفع ج ٣ ص ٣٤ حديث رقم ٢٥٢٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى ، وإيماناً بى ، وتصديقاً برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده : ما من كَلْم يُكْلَمُ فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم لونه لون دم ، وريحه مسك والذى نفس محمد بيده ، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزوا فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزوا فأقتل ثم أغزوا فأقتل »[١] متفق عليه .

(ومعنى الكَلْم ــ بفتح الكاف وسكون اللام ــ هو الجرح) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »[٢] رواه البخارى .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قيل : يار سول الله ، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول « لا تستطيعونه » ثم قال « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله »[٣] متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ أى : يهديهم إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم** ﴾[٤] . وقوله : ﴿ **ويصلح بالهم** ﴾ أى : أمرهم وحالهم ، ﴿ **ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ أى : عرفهم بها وهداهم إليها . وقال محمد بن كعب القرظى : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتبعه ابن آدم حتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله ــ تعالى ــ فى الجنة فإذا انتهى

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب « فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ حديث رقم ١٠٣ / ١٨٧٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب فضل الشهادة فى سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٨ حديث رقم ١١٠ / ١٨٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة يونس الآية ٩

إلى أقصى منزله فى الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . ذكره ابن أبى حاتم رحمه الله . قال ابن كثير وقد ورد الحديث الصحيح بذلك ــ أيضا ــ رواه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا »[1] .

ونحن الآن فى سبيلنا إلى تفسير هذا النص الكريم : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب .. الآيات** ﴾ وذلك كما جاء فى كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام للشيخ العابونى . فقد جاء ما نصه .

الحرب فى الإسلام

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

التحليل اللفظى

﴿ **أثخنتموهم** ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح . يقال : أثخن العدو : إذا أكثر فيه الجراح . قال فى اللسان : والإثخان من كل شىء قوته وشدته ، يقال ، قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قوته عليه ووهنه . وأثخنته الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ **حتى يثخن فى الأرض** ﴾[2] معناه : حتى يبالغ فى قتل أعدائه ، ﴿ **الوثاق** ﴾ فى الأصل مصدر كالأخلاص ، وأريد به هنا : ما يوثق به أى : ما يربط به كالحبل وغيره .

قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق ، أى : شده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ والوثاق بكسر الواو لغة فيه .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب المظالم والغصب » باب « قصاص المظالم » ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨ فقد ورد الحديث من روايه لابى سعيد الخدرى بلفظ : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه فى الجنة أذل بمنزله كان فى الدنيا » .

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٧

﴿ **مناً** ﴾ مصدر من ، ومعناه : أن يطلق سراح الأسير بدون فداء وبدون مقابل .

﴿ **فداء** ﴾ مصدر فادى ، والفداء : أن يطلق الأسير مقابل مال يأخذه منه . قال فى اللسان : الفِداء بالكسر : فكاك الأسير والعرب تقول : فاديت الأسير ، وتقول : فديته بمالى . وفديته بأبى وأمى ، إذا لم يكن أسيراً .

﴿ **أوزارها** ﴾ الأوزار : جمع وِزر . وهو فى الأصل : الإثم والذنب ، ويطلق على الحمل الثقيل ، والمراد به : آلات الحرب وأثقالها من السلاح والخيل والعتاد . وسمى السلاح ﴿ **أوزارا** ﴾ لأنه يحمل لثقله . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وإنما جاء الضمير مؤنثاً ﴿ **أوزارها** ﴾ لأن الحرب مؤنثة .

ومعنى الآن : حتى تنتهى الحرب ، وتضع سلاحها ، فلا يكون قتال مع المشركين لضعف شوكتهم .

﴿ **ذلك** ﴾ اسم الإشارة « ذلك » جيء للفصل بين كلامين ، وقد كثر فى لغة العرب إستعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين والانتقال من الكلام الأول إلى الثانى كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقوله فى هذا الشأن ونقول بعده كذا ـ وكذا .

﴿ لا نتصر منهم ﴾ أى : انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال فالله ـ سبحانه ـ قادر على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم . ولكنه ابتلاء من الله ـ سبحانه ـ ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ .

قال الألوسى : قوله تعالى : ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ أى : لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف : أو رجفة ، أو غرق أو موت جارف . ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى : أمركم ـ سبحانه ـ بالحرب ، ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ فيشيب المؤمن ويكرمه بالشهادة . ويخزى الكافر بالقتل والعذاب .

والابتلاء فى اللغة : الامتحان والاختبار .

﴿ **يضل أعمالهم** ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ، بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى يوم الدين .

﴿ **عرّفها لهم** ﴾ أى : بينها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرّفها لهم فى الدنيا بذكر أوصافها كما قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن .. الآية** ﴾ من سورة محمد .

المعنى الجملى

يأمر سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار فى الحرب ، ألا تأخذهم شفقة عليهم ، بل ينبغى أن يحكِّموا السلاح فى رقابهم ، ويحصدوهم بسيوفهم حصدا ، حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم . وكسروا شوكتهم عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق وهو كناية عن وقوعهم أسرى فى أيدى المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند ذلك بالخيار : إما أن يمنوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم .

ثم بين الله — سبحانه — الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته — تعالى — أن ينتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين ، وتلك الحكمة هى امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره واحتمالهم للشدائد فى سبيل الله ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[1] .

ثم بين الله — تعالى — بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة فى سبيله .

ستحفظ أعمالهم ، وتخلد لهم ، ثم هم بعد ذلك فى روضات الجنات يحبرون ، وفى ذلك حض على الجهاد ، وترغيب للخروج فى سبيل الله ، لينال المؤمن إحدى الحسنيين : إما النصر والعزة فى الدنيا ، وإما الشهادة فى سبيل الله .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : عبر القرآن الكريم عن القتل بقوله — تعالى — : ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ والسر فى ذلك : أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ (القتل) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو ملقى على هيئة منكرة — والعياذ بالله — ولو قال : (فاقتلوهم) لما كان هذا المعنى الدقيق .

والتعبير — أيضا — يوحى بشجاعة المؤمنين ، وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم ، يعملون فيهم سيوفهم بضرب الأعناق . وهو (مجاز مرسل) علاقته السببية لأن حز الرقبة سبب الموت .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ كناية عن الأسر أى : اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم ، حتى تروا فيهم رأيكم .

ولما كانت العادة أن يربط الأسير لئلا يهرب جاء التعبير بقوله : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ وفيه الإشارة إلى الكف عن القتل والاكتفاء بالأسر ، لأن الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح ، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **فإما مناً بعد وإما فداء** ﴾ ذكر — تعالى — ﴿ **المن والفداء** ﴾ ولم يذكر القتل والاسترقاق . وفى ذلك **ارشاد** من الله — تعالى — إلى أن الغرض من الحرب كسر (شوكة المشركين) . لا إراقة الدماء والتشفى بإزهاق الأرواح ، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل ، وتقديم (المن) على (الفداء) فى الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، فالمجاهد فى سبيل الله يقاتل لاعلاء كلمة الله ، لا للمغنم المادى والكسب الدنيوّى .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **حتى نضع الحرب أوزارها** ﴾ فى الآية الكريمة إشارة إلى أن الاسلام يكره الحرب ويمقتها ، لأنها مخربة مدمرة ، والتعبير بـ ﴿ **أوزارها** ﴾ للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار ، المحاربون لله ورسوله ، فلولا كفرهم وإفسادهم فى الأرض لما كانت هناك حرب .

قال الإمام الفخر : « والمقصود من وضع الحرب أوزارها ، انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حزب من أحزاب الكفر ، يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، وإنما قال : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ ولم يقل : حتى لا يبقى حرب ، لأن التفاوت بين العبارتين كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة **بنى** أمية ، وقولك : لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثانى أبلغ ، فكذا ههنا » .

اللطفة الخامسة : فإن قيل : لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم ، وأمر المؤمنين بالجهاد ؟ .

فالجواب : أن الله — عز وجل — أراد بذلك أن يختبر عباده ، فابتلى المؤمنين بالكافرين ، ليختبر صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد وابتلى الكافرين بالمؤمنين ، ليطهر الأرض من رجسهم ، وينيل المؤمنين الشهادة فى سبيله بسببهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ .

فإن قيل : إن الله يعلم المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، والمطيع من العاصى ، فما هى الفائدة من هذا الابتلاء ؟ فالجواب : أن الابتلاء من الله — تعالى — ليس بقصد العلم والمعرفة ، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر بعد إقامة الحجة عليه ، حتى يقطع العذر على الإنسان ، أو نقول : إن الابتلاء غرضه الكشف للناس أو للملائكة ، ليظهر لهم الصادق من المنافق ، والتقى من الشقى ، وليس بالنسبة له — تعالى — ، لأنه بكل شىء عليم .

اللطيفة السادسة : أمر الله — تعالى — بالمن أو الفداء ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام . روى أن الحجاج حين أسر أصحاب (عبد الرحمن بن الأشعث) وكانوا قريباً من خمسة آلاف رجل قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من (كيدة) فقال : يا حجاج ، لا جزاك الله عن السنة والكرم خيراً ! قال : ولم ذاك ؟ قال : لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ فى حق الذين كفروا .. فو الله ما مننت ، ولا فديت ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق .

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

• فقال الحجاج : أفٍ لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا سبيل من بقى فخلى يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين ، يقول ذلك الرجل .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد بـ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ فى الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون فى المراد من قوله تعالى : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ على قولين :

(١) **القول الأول** : أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان . وهذا مروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما .

(٢) **القول الثانى** : أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك ، أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية . واختيار جمهور المفسرين .

قال ابن العربى : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، والتخصيص لا دليل عليه .

الحكم الثانى : ما المراد من قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ فى الآية الكريمة ؟ ذهب (السدى) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه القتل .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه (قتل الأسير صبراً) .

والراجح هو الأول ، لأن الآية الكريمة وهى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ قد جعلت ﴿ **الإثخان** ﴾ وهو الإضعاف لشوكة العدو فما اية لضرب الرقاب ، فأين هو قتل الأسير صبراً ؟ مع العلم بأنه إنما يقع فى الأسر بعد إثخانه وضعفه ، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح ، بل هو الصحيح .

الحكم الثالث : ما المراد من الفداء ، وما هى أنواعه ؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من المفادة العتق أى : عتق الأسير . وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير فى مقابل ما يأخذه المسلمون منهم . وقد يكون المقابل (أسرى) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل .

وقد يكون المقابل (مالاً) أو عتادا يأخذه المسلمون فى نظير إطلاق الأسرى .

وقد يكون العوض (منفعة) كما كان فى غزوة بدر ، فقد كان من ليس عنده مال يفدى به نفسه أمره ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

فالمراد من الفداء : كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال ، أو عتاد ، أو منفعة ، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك .

الحكم الرابع : ما معنى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ ؟ اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة على عدة أقوال :

أ ــ قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل .

ب ــ وقال مجاهد : حتى لا يكون دين إلا دين الاسلام .

ج ــ وقال سعيد بن جبير : حتى ينزل المسيح ابن مريم وحينئذ ينتهى القتال .

والقول الأخير ضعيف ــ لأن نزول عيسى ابن مريم ليس فى الآية ما يدل عليه . وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة ، فبنزوله يدخل الناس فى الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر ، كما دلت عليه السنة المطهرة ، ولكن الآية ليس فيها مايشير إلى هذا المراد من قريب أو بعيد .

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان ، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[1] .

الحكم الخامس : هل يجوز قتل الأسير ؟

اتفق الفقهاء على جواز قتل الأسير . حتى قال « الجصاص » : لا نعلم فى ذلك خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبى ﷺ فى قتله لبعض الأسرى .

١ ــ ما روى أن النبى ﷺ ــ قتل (أبا عزة) الشاعر يوم أحد .

٢ ــ وقتل (عُقبة بن أبى مُعَيط) صبراً ، (والنضربن الحارث) بعد الأسر فى بدر .

٣ ــ وقتل (بنى قريظة) بعد نزولهم على حكم (سعد بن معاذ) الذى حكم فيهم بالقتل ، وسبى الذرية

٤ ــ وفتح ــ ﷺ ــ خيبر بعضها صلحا ، وبعضها عَنوة وشرط على (ابن ابى الحقيق) ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله ــ ﷺ ــ .

٥ ــ وفتح مكة وأمر بقتل (هلال بن حظل) و (عبد الله بن أبى سرح) و (مقيس بن حبابه) وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة .

فكل هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير ، ولأن فى قتله حسم مادة الفساد فى الأرض .

قال الألوسى : « وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فإن فعل كان للإمام أن يعزره . ولكن لا يضمن شيئا ، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم ، لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم . فإن الإسلام لا ينافى الرق جزاء على الكفر الأصلى ، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا . لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم ... » .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٣٩

وقال القرطبى : « وقيل : ليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج : أنه دفع أسيراً إلى (عبد الله بن عمر) ليقتله ، فأبى وقال ليس بهذا أمرنا الله ، وقرأ : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ .

قلنا : قد قاله رسول الله ﷺ وفعله ، وليس فى تفسير الله للمن والفداء منع من غيره ، ولعل ابن لحمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال وربك أعلم .. قاله القرطبى .

الحكم السادس : هل يجوز أخذ الفداء من الأسير ؟

اختلف الفقهاء فى أخذ الفداء من الأسير على أقوال :

أولا : مذهب الحنفية : أن الأسير لا يفادى بالمال ، ولا يباع لأهل الحرب ، لأنه يرجع حرباً علينا ، أما فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصاحبين (أبى يوسف ومحمد) ، وقال (أبو حنيفة) : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا .

ثانيا : مذهب الجمهور : (الشافعى ومالك وأحمد) جواز أخذ الفداء من الأسرى .

دليل الحنفية : استدل الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلى :

١ ــ قالوا : إن الآية الكريمة ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾[(١)] ، وبقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾[(٢)] فقل ذلك عن مجاهد وروى عن (قتادة) انه قال : نسختها آية الأنفال ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾[(٣)] .

ووجه الاستدلال :

أن سورة براءة من آخر ما نزل ، فوجب ان يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء ، والصبيان ، ومن يؤخذ منه الجزية ، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء .

٢ ــ وقالوا : لا يجوز المن ولا الفداء . لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل الإسلام ، حيث يرجعون حربا علينا ، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفرومن رجس المشركين .

٣ ــ وقالوا : إن ما روى فى (أسرى بدر) منسوخ أيضا بما تلونا ، سيما وأنه قد نزل العتاب فى قوله تعالى : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة التوبة من الآية ٥

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٠

(٣) سورة الأنفال من الآية ٥٧

(٤) سورة الأنفال من الآية ٦٧

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء .

٤ ــ وقالوا : إن ما كان من النبى ﷺ ــ فى صلح الحديبية « أن من جاء منهم رددناه عليهم » إنما كان فى بدء الدعوة ، وقد نسخ ذلك ، ونهى النبى ﷺ عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال : « من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة »[١] .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة . نوجزها فيما يلى :

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق فإمامنا بعد وإما فداء** ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقاً بدون قيد ولا شرط ، فللإمام أن يمن أو يفدى ، أو يسترق ، عملاً بالآية الكريمة .

٢ ــ وقالوا : إن الآية محكمة ولا نسخ فيها ، لأن النسخ إنما يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهى قوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء . فإذا وقعوا فى الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملاً بقوله تعالى : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ .

٣ ــ واستدلوا ــ أيضا ــ بأن النبى ﷺ فادى أسرى بدر بالمال . ومن لم يكن عنده مال منهم أمره ــ عليه السلام ــ بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وهذا قد ثبت بفعله ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

٤ ــ واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : « أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبى ــ ﷺ ــ وأسر أصحاب النبى ــ ﷺ ــ رجلا من بنى عامر بن صعصعة فمر به النبى ــ ﷺ ــ وهو فى الأسر فقال الأسير : علام أحبس ، فقال : بجريرة حلفائك ، فقال إنى مسلم ، فقال النبى ــ ﷺ ــ لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح ، ثم مضى رسول الله ــ ﷺ ــ فناداه الأسير ، فقال إنى جائع فأطعمنى ، فقال النبى ــ ﷺ ــ نعم هذه حاجتك ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما » .

قالوا : فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

٥ ــ واستدلوا بما رواه مسلم عن عمران بن الحصين أن رسول الله ــ ﷺ ــ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين .

---

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب السير » باب « ما جاء فى كراهية المقام بين أظهر المشركين » ج ٣ ص ٨٠ حديث رقم ١٦٥٤ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله بلفظ « أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبى ــ ﷺ ــ فأمر لهم بنصف العقل وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : يا رسول الله ، ولم ؟ قال : لا تراءى ناراهما » .

٦ ـــ واستدلوا بالمعقول وهو أن تخليص المسلم أدلى من قتل الكافر للانتفاع بالمسلم لأن حرمته عظيمة ، وأما الضرر الذى يعود إلينا بدفعه إلى المشركين ، فيدفعه نفع المسلم الذى يتخلص من فتنتهم وعذابهم ، وضرر واحد يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله ـــ تعالى ـــ ، وفيها زيادة ترجيح .

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة (للفداء) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت .

وأما (المن) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز (عند أبى حنيفة ، ومالك ، وأحمد) وأجاره الامام الشافعى لما ثبت ان النبى ﷺ من على (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن أسلامه ، وقال ـــ ﷺ ـــ : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى من هؤلاء النتنى ـــ يعنى أسارى بدر ـــ لتركته له »[1] رواه البخارى ، فقوله ﷺ ذلك دليل على جواز المن على الأسرى .

الترجيح :

وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح : أن يفوض أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوى الرأى والبصر ، يفعلون ما تقضى به المصلحة العامة ، فإن رأوا قتل الأسرى قتلوهم ، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى ، فادوهم ، وان رأوا ابقاءهم فى الأسر تركوهم تحت أيدى مسلمين ، فيترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التى هم فيها . وهذه من (السياسة الحكيمة) التى ينبغى ان تتوفر فى قادة المسلمين .

والرسول ﷺ قد فعل ذلك كله ، فأسر من أسر . وقتل من قتل . وفادى من فادى منهم ، وأطلق سراح من أطلق دون مال ولا فداء . وما نزل من آيات العقاب فى سورة الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهى حكيم ـــ حسب المصلحة أيضا ـــ حيث نزلت هذه الآيات الكريمة فى (غزوة بدر) وهى أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم فكانت المصلحة تقضى بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة . بالقتل والإثخان وإراقة الدماء ، حتى لا يطمع المشركون بالاقدام على حرب المسلمين مرة أخرى ، وحتى تقلَّم أظافر الكفر منذ اللحظة الأولى ، فإذا علم المشركون أن لا رحمة فى قلوب المسلمين عليهم ، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم ، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر ـــ رضى الله عنه ـــ على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن موافقاً لرأيه ولما كثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن

---

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الكرمانى « كتاب الجهاد والسر » باب « ما من به النبى ـــ ﷺ ـــ على الأمارى من غير أن يخمس » ج ١٣ ص ١١٠ حديث ٢٩٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجبره ، وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية جبير بن مطعم عن أبيه بلفظ « لو كان المطعم ابن عدى حيا فكلمنى فى هؤلاء النتنين أطلقتهم » يعنى أسارى بدر .

الكريم بالمن والفداء على الإسرى ، بعد أن توطدت دعائم الدولة الاسلامية ، وأصبح صرح الإسلام شامخاً عتيداً ، فكان المن عن قوة ، لا عن ضعف ، وعن عزة ، لا عن ذلة واستكانة .

فالمصلحة العامة هى التى ينبغى أن تراعى فى مثل هذه الحالات : والحرب مكر وخديعة ، ولا عزة للضعفاء المستكينين .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : المؤمن يقاتل فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فينبغى أن يكون شجاعاً مقداماً .

ثانياً : إثخان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح ، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهين قوتهم .

ثالثاً : الحرب فى الإسلام حرب مقدسة ، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين .

رابعاً : الاكتفاء بالأسر بعد إثخان العدو مظهر من مظاهر رحمة الاسلام بأعدائه .

خامساً : إطلاق سراح الأسرى بدون عوض ، أو أخذ الفداء منهم ينبغى أن تراعى فيه مصلحة المسلمين .

سادساً : الجهاد فى سبيل الله **ماض** فى هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض شرك .

سابعاً : الله ـــ جل ثناؤه ـــ قادر على أن ينتقم من المشركين ، ولكنه أراد أن ينيل المؤمنين أجر الاستشهاد فى سبيله .

ثامناً : الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر ، يبتلى بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن .

حكمة التشريع

أقر الاسلام الحرب ـــ مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات ـــ لضرورة وقائية . وعلاج اضطرارى . لا مناص منه لمجابهة الطغيان ، ودفع الظلم والعدوان ، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين ، على حد قول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبـا **فما حيلة المضطر إلا ركوبها**

ولكن الإسلام فى الوقت الذى يدعو فيه إلى الجهاد ، ويحض على القتال ، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات ، تجده يأمر بالرحمة والشفقة فى (معاملة الأسرى) الواقعين فى أسر العبودية ، فيحرم تعذيبهم أو إيذاءهم كما يحرم التمثيل بالقتلى ، أو الإجهاز على الجرحى ، أو تقتيل النساء والصبيان .

إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء ، وسلب الأموال ، وتخريب الديار ، ولكنه غرض إنسانى نبيل . هو حماية المستضعفين فى الأرض . ودفع عدوان الظالمين ، وتأمين الدعوة ، والوقوف فى وجه الاستعلاء والطغيان كما قال ـــ جل ثناؤه : ﴿ **ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات**

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[١] .

ولقد كان من وصايا النبى الأكرم — ﷺ — ، للجند والجيش المجاهدين فى سبيل الله ، أن يأمرهم بطاعة الله ، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء . فقد روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله — ﷺ — كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « أغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً »[٢] .

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، ففى وصية أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع — يريد الرهبان — فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وهكذا كانت رحمة الإسلام فى الحرب ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة . فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدرة بقدرها فلا يقتل إلا من يقاتل فى المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه : **﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾**[٣] ، **﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾**[٤] .

لقد حرم الإسلام قتل النساء ، والشيوخ ، والأطفال ، وقتل المرضى والرهبان .

وحرم (المثلة) والإجهاز على الجريح ، وتتبع الفارّ ، وتحريق البيوت والأشجار ، وذلك تمشياً مع نظرته الإنسانية المثلى فى حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان ، ولأن الحرب كعملية جراحية ، يجب إلا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان . فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة فى تعاليم القرآن ، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء ، حتى تنتهى المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل ، وصدق الله العظيم : **﴿ فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾** فلله ما أرحم الاسلام ! وما أسمى مبادئه وأحكامه !! أ هـ .

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .. الخ حديث ٣ / ١٧٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٤

(٤) سورة البقرة من الآية ١٩٠

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ أى : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار . كقوله تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(١) ، فأقسم سبحانه أنه سينصر من ينصر دينه ورسوله فهو القادر لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ثم ذكر — سبحانه — عوامل النصر والذين يستمعون نصرة الله وهم الذين أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة ، ودعوا إلى الخير ، ونهوا عن الشر ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وقوله تعالى : ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أى : عند القتال ، وقيل : على الاسلام وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب كقوله تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾(٢) .

وبين — ﷺ — أن الله يخذل من خذل دينه وركن إلى الدنيا فعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » قال قائل : يا رسول الله ، ومن قلة يومئذ ؟ قال : « لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ولتعرفن فى قلوبكم الوهن قال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت »(٣) ذكره النبوى فى شرح السنة ، ورواه ابو داود بلفظ « وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » ، وفى مسند أحمد « ينزع المهابة من قلوبكم ويجعل فى قلوبكم الوهن » .. وسنده قوى .

عوامل البناء ومعاول الهدم

جاء فى كتابنا « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد إن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليك يا علم الهدى .

ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم

فيا حماة الاسلام وحراس العقيدة .

فإن الدهر مدرسة أساتذته الأيام والليالى ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة قال جل شأنه :

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠ والآية ٤١

(٢) سورة الأنفال الآية ١٢

(٣) انظر شرح السنة للبغوى ج ١٥ ص ١٦ فقد ورد الحديث رقم ٤٢٢٤ من رواية عن ثوبان فقد روى الحديث بلفظه .

﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[1] .

وهذا الكتاب « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » يعرض لدراسة قرنين من الزمان تعرض فيهما العالم الاسلامى للهجمات الصليبية الحاقدة إلى أن قيض الله للأمة البطل المسلم (صلاح الدين الأيوبى) الذى كان يستعين على أعدائه بصلاة الليل ، والذى قال لأصدقائه ذات يوم وقد دارت بينهم طرفة فضحكوا ولم يبتسم ، فقيل له : لماذا لا تشاركنا ضحكنا أيها القائد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحى من الله أن يرانى مبتسماً والمسجد الأقصى فى أيدى الصلبيين ، إنه البطل الذى جعل من جهوده جوادة داراً ومستقراً وقيل له : لما لا تبنى لك داراً فقال بلسان يتفاطر يقينا وجلالاً ومهاباً : وماذا يصنع بالدار من ينتظر الشهادة بين عشية أوضحاها ليست هذه دارنا بإن دارنا هناك لها نجمع وإليها نرجع .

لقد أجرى الله النصر على يديه بعد ما قضى على معاول الهدم من تفسخ أخلاقى ، وانحلال اجتماعى ، وضعف للوازع الدينى ، وشيد عوامل البناء من عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وقوة للوازع الدينى ، ونحن إد نقدم هذه الدراسة بين يدى الأمة الاسلامية نرى أن التاريخ يعيد نفسه ، منها نحن أولاء قد تداعت علينا الأمم من الشرق والغرب ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فلنتخذ من أحداث التاريخ عبرة ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفيما كان عليه (صلاح الدين) فليتنافس المتنافسون وعلى الله فليتوكل المؤمنون وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون . ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[2] .

حالة العالم الإسلامى قبل الحروب الصليبية

إن من الواجب على كل من أراد أن يدرس هذه الحقبة من تاريخ العالم الاسلامى التى خاض فيها الشرق الاسلامى هذا الصراع الدامى الرهيب مع جيوش أوروبا التى نزحت إليه تحاول أن تجتث جذوره وتقضى على مقدساته ، من الواجب على الدارس لهذه الحقبة أن يلقى نظرة على خريطة الشرق الاسلامى والمغرب الاسلامى ليرى كيف انتهز هؤلاء الأعداء تلك الفرص السانحة ، واستغلوا مراكز الضعف فى العالم الإسلامى حينذاك ، ثم انقضوا على الفريسة انقضاضا وحشياً لا يعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا يقيم للقيم والمبادىء والمثل والعقائد وزنا ، وليعلم الدارس للتاريخ أن النكبة إذا كانت قد حلت بالمسلمين فى تلك الحقبة كان ذلك لثلاث أسباب كما قال علماء التاريخ ومؤرخو العلوم ، وهذه الأسباب الثلاثة تنحصر فيما يلى :

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ والآيتان ١٤١ ــ ١٤٢

(٢) سورة النازعات الآية ٢٦

أولاً : ضعف الوازع الدينى

ثانياً : التفسخ الأخلاق

ثالثاً : الانحلال الاجتماعى

وكفى بهذه الأسباب من عوامل للتدمير والهدم ، فإذا ضعف وازع الدين فى النفوس انحلت أكبر عروة وثقى يقوم عليها بناء النفس الإنسانية وإذا ما ضعف وازع الدين فمضا الضمير وقست العاطفة وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة تنام النفوس على هدهدة الشهوات ، وتنزو على الملذات ، ولا تكثرت بعظائم الأمور ، ولذلك كانت الرسالة التى جاء الأنبياء من أجلها بناء العقائد فى النفوس وإقامة النفوس على العقائد ، وتشييد الصروح العالية فى مجال الإصلاح الاجتماعى ، وتزكية النفوس وتطهيرها ، وربط القلوب بخالقها ومبدعها .

ومن ثم فإن التعريف الجامع لكلمة الدين : أنه هو مجموعة العقائد والشرائع التى تنظم علاقة العبد بخالقه ، وعلاقته بمخلوقات الله ، أجل ! تنظيم علاقته بربه . فيعرف واجبه عليه ، ويستشعر هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه ، ولقد أطلق الرسول ــ ﷺ ــ على الإحسان هذا المعنى الواسع الرفيع العظيم القدر الجليل الأثر فقال : « إن الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] . وهذا هو الذى ركز عليه الكتاب الكريم فى قوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾[2] .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم** ﴾[3] .

ما ثمة أدنى شك فى أن قوة الوازع الدينى هى محور الإرتكاز ، ومركز الدائرة ، وحجر الزاوية ، والعنصر الفعال ، والركن الركين ، والحصن المتين ، الذى تبنى عليه سعادة الأمة وتشيد فوقه صروحها .

أما خطر التفسخ الأخلاق على الأمة فشره مستطير ، إذ هو أحد النتائج المترتبة على ضعف الوازع الدينى وإنما تنفسخ الأخلاق إذا ضعفت رقابة العبد لأوامر ربه ، قال الله ــ جل فى علاه ــ ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾[4] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب « سؤال جبريل عن الايمان والاسلام » ج ١ ص ١٩ ــ ٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) سورة الحديد الآية ٤

(٣) سورة المجالة الآية ٧

(٤) سورة الأعراف الآية ١٦٥

ولعل الشهادة العليا والحقيقة الكبرى التى نطق بها القرآن الكريم لنبى الرحمة وباعث النهضة الأخلاقية هى قول الله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(١) .

سئلت عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن خلقه ــ ﷺ ــ فقالت « كان خلقه القرآن »(٢) ، وما أجل قول الرسول ﷺ وهو يلخص رسالته فى قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٣) .

وان من أهم الأسباب التى تباد بها الأمم ويرسل الله بسببها الجوائح هو كثرة ذنوبها ومخالفتها ربها وتلك كلها صور من صور التفسخ الأخلاقى .

قال تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾(٤) .

هذه الآية الكريمة بجلالها وقوتها تلخص إهلاك الله للقرون على قدر قوتها وعتوها وسلطانها وجبروتها ، تلخص كل هذا فى قوله « بذنوبهم » وليست كلمة الذنوب الكلمة الرسلة بل إنها صواعق ورعود ، إنها العاصفة بكل بروقها ورياحها الهوجاء .

ومن هنا يتضح لنا قيمة التمسكِ بالقيم والمبادىء والمثل .

يا رسول الله

بنيت من الأخلاق ركنا ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

ولو حفظوا سبيلك كان نورا ... وكان من النحوس لهم حجابا

فإذا ما تفسخت الأخلاق تربت على ذلك إنحلال المجتمع وهذه ثالثة الأثافى وداهية الدواهى إذ إنحلال المجتمع مرضى من أخطر الأمراض فما انحلت أمة إلا كان الذل رائدها والخذلان حليفها وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

والقرآن العظيم يضرب الأمثلة بأقوام إنحلت مجتمعاتهم بعد ما ضعف وازع الدين فيهم ، وتفسخت الأخلاق بينهم فكان مصيرهم الهلاك والدمار والوبال والعار .. إليك ما قاله الله ــ جل شأنه ــ فى مجتمع كان كل همه كسب المال من الحرام ، ولو أدى ذلك إلى أن يبخس الناس أشياءهم ، وينقص المكيال ، والميزان قال تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان**

(١) سورة القلم الآية ٤

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لسعد بن هشام بن عامر .

(٣) انظر السنن الكبرى للبيهقى « كتاب الشهادات » باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ١٩١ ، ١٩٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦

بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . ﴾[1] .

ولكنهم وقفوا من هذه التعاليم السامية والتوجيهات الربانية الغالية الرفيعة العالية موقف الجحود والتهكم والاستهزاء ، ﴿ **قالوا يا شعيب أصلو تك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾[2] . قالوا ذلك على سبيل السخرية لأن لغة المادة إذا سيطرت على النفس أعمتها عن كل الحقائق وسدت أمامها أبواب الرشد والهدى .

فماذا كانت عافية هؤلاء الذين انحلت مجتمعاتهم وفسدت أخلاقهم ؟ قال تعالى : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود** ﴾[3] .

وهذا نموذج من نماذج عديدة لمجتمعات عديدة وصورة لقوم لم يكن عندهم وازع من الدين ولا بقية من خلق ولا أثارة من إصلاح اجتماعى وهكذا نتبين أن أوروبا انتهزت تفكك المجتمع الاسلامى واستبعاد الفرقة فيه فأرسلت جيوشها لتضرب ضربتها وليلق القارىء نظرة على هذا المجتمع قبل أن تنزح إليه جيوش أوروبا . فقد كان المجتمع الاسلامى قبيل الحروب الصليبية على حالة من الاضطراب والتفكك تسمح لأعدائه بمهاجمته والنيل منه .

فمصر كانت نهباً للمجاعة والثورات والانقلابات وعدم الاستقرار ، وبلاد العراق والخلافة العباسية ما ان شملها نفوذ السلاجقة حتى عادا إلى ما كانا عليه زمان بنى أمية من الخلافات والحوادث والبلاد الشامية كانت مسرحا لحروب بين الفاطميين والسلاجقة وبين السلاجقة أنفسهم .

و لم تكن حالة المغرب الاسلامى أحسن حظاً من المشرق ، فتونس عمتها الفوضى والاضطرابات ونالها التقسيم وفقدان الوحدة السياسية ، وصقلية انتهت منها آخر مقاومة إسلامية واستولى عليها الرومان سنه ٤٨٤ هـ ، أما الأندلس فقد بدأ فيها عهد التراجع ورجحان كفة الصليبين ، وبدأوا يحتلون المدن الاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

و لم تكن نجدة ابن تاشفين إلا إيقافا وقتياً لعهد التفوق الصليبى بالأندلس . وهكذا كان العالم الاسلامى قبيل الحروب الصليبين فى حالة مهيئة على مهاجمته واكتساحه .

ما هى الحروب الصليبية ؟

ـــ حروب الصليبيين عبارة عن الحملات العسكرية التى قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من

---

(١) سورة هود الآيات ٨٤ ـــ ٨٦

(٢) سورة هود الآية ٨٧

(٣) سورة هود الآيتان ٩٤ ـــ ٩٥

الزمن (٤٩٠ هـ ــ ٦٩٠ هـ) بقصد استخلاص بيت المقدس من يد المسلمين أو للمحافظة على امارات الصليبيين التى تكونت فى البلاد الشامية .

والحروب الصليبية تمثل دوراً هاماً من أدوار الصراع المستمر من الزمن القديم ما بين الشرق والغرب .

فما هى الأسباب التى أدت إلى هذه الحروب ؟

يكاد المؤرخون يجمعون على أن أهم الأسباب التى دعت إلى هذا الصراع الدموى العنيف تنحصر فيما يلى :

١ ــ ما يحمله الأوروبيون من الأحقاد للمسلمين نتيجة وجود بيت المقدس فى يد المسلمين .

٢ ــ لما كانت القسطنطينية على وشك ان يستولى عليها المسلمون استنجد الامبراطور الكسيس كومنين بالعالم الأوروبى ضد المسلمين .

٣ ــ وكان من الأسباب التى دعت إلى ذلك تلك الحالة الاجتماعية بأوروبا وسوء نظام الطبقات والظلم والاضطهاد المسلط على عامة الشعب كان يدفع به إلى الانعتاق والحرية كما كانت طبقات الأمراء والإقطاعيين يدفعها حب تكوين الممالك والإمارات .

٤ ــ وكان من أهم الأسباب وأقواها فى نفوس الصليبيين هو انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين .

كيف بدأت .. ؟

وكان فى الأسباب السابقة ما يحفز أهل أوروبا ويدفعهم بقوة إلى أن ينسابوا على الشرق كما تنساب الثلوج من قمم الجبال وأن يتحركوا بسرعة ليحققوا بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتشريد الآباء والأبناء دون أن تأخذهم فى ذلك دوافع من رحمة أو بقية من إنسانية ، وليحولوا منطقة الشرق ومهبط الوحى وأرض الرسالات وجنة الأرض وربوع السلام ــ تحركوا ــ ليحولوها إلى دماء تجرى وأرض تضطرم نارا وتصطلى سعيرا ، ــ تحركوا ــ ليحولوها إلى جحيم يستعرد نارا تلظى .

واعتدوا أولاً مجمع بليزانس بشمالى ايطاليا ، ثم مؤتمر كليرمون بفرنسا وهو الذى قررت فيه الحرب ، واتفقوا فيما بينهم على أن يكون لقاؤهم بمدينة القسطنطينية ، وكانت الحملة الأولى فى غاية الفوضى والاضطراب استطاع قليج أرسلان السلجوقى أن يقضى عليها قرب مدينة نيقيه ثم تبعتها جيوش أخرى نظمها الإقطاعيون والأسراء جاءت من جنوبى فرنسا وشمالها ومن بلجيكا ومن جنوب ايطاليا واجتمعوا كلهم فى القسطنطينية ولما عبروا إلى آسيا الصغرى اعترضهم قليج أرسلان فدارت بينهما معارك كبرى ثم تقدموا إلى انطاكية وفرضوا عليها حصارا استمر ثمانية أشهر سقطت بعدها فى أيديهم وبعد سقوطها توجهوا بجيوشهم يقصدون بيت المقدس المدينة المقدسة التى فتحها المسلمون أيام الفاروق عمر ــ رضى الله عنه ــ .

أرادت جيوش أوروبا بجبروتها وطغيانها أن تنتزع هذه الأرض المقدسة من يد المسلمين بعد ما رأت فيهم عوامل الفرقة والضعف وقد كانت المأساة بل الملهاة وكانت الكارثة بل الطامة الكبرى أن حاصروا

بيت المقدس شهرا وقع بعده فى أيديهم وكان ذلك فى عام ٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٩ م . وناهيك بما جرى فى هذه المدينة من جرائم تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان . سقطت مدينة القدس فى شهر شعبان بعد سفك للدماء بصورة وحشية قدرها المؤرخون بسبعين ألفاً من المسلمين .

وإليك ما قاله ابن الأثير عن ابتلاء المجتمع الإسلامى بهذه الكارثة :

« وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم أفطروا .. و لم يكن الخليفة العباسى فى هذا الوقت يملك من الأمر شيئاً فالضعف والفرقة عاملان خطيران دبا فى صفوف المسلمين ، فتعدد ما كان الصليبيون فى نشوة وفرح بالغلبة والنصر كان ملوك المسلمين وأمراؤهم فى شغل شاغل عما يدور على أرضهم من أخطار جسام ، وأهوال عظام ، شغلتهم الدنيا ، وبددتهم الفرقة . وأضعفتهم الخلافات ، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

أما الصليبيون فقد استمر رأيهم على أن يقيموا مملكة لاتينية ببيت المقدس واختير لرئاستها قواد فروا ، وهكذا حققت أوروبا حلمها الذى كان يراودها عبر السنين الماضيات فمنذ أن استقر لها الأمر أخذت الأمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ولكى يتم لها احتلال بقية السواحل الشامية .

ولقد قام لها بعد ذلك إمارات عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصليبين وهى :

١ ـ إمارة الرها : وتم الاستيلاء عليها سنه ٤٩٢ هـ

٢ ـ إمارة انطاكية : وظلت فى أيديهم إلى سنة ٦٦٧ هـ .

٣ ـ مملكة ببيت المقدس : وكانت من أعظم الإمارات الصليبية ولهذا متوليها يلقب بملك وكانت هذه المملكة أعظمها شأناً وأوسعها رقعة ، إذ امتدت حدودها إلى أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان . وكذلك كانت تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة .

٤ ـ إمارة طرابلس : تكونت سنه ٤٩٦ هـ واستمرت إلى سنه ٦٨٨ هـ :

ولا يهولنك أن قامت للصليبيين إمارات فإنها لم تكن مستقرة فى أوضاعها ولا هى بالتى يستعصى النصر فيها على المسلمين ، لولا أن الأمراء لمسوا جوانب الضعف والفرقة فى صفوف المسلمين وما كان لهذه الأمارات أن تدوم وما كان للحق أن يرى الباطل يزأر فى عرضات الدنيا ويعربد فى رحابها دون أن يتصدى له بضربة يهوى لها صريعا فقد شاءت حكمة العلى الأعلى والحاكم الأعظم ـ جل فى علاه ـ أن يقيض لهؤلاء الطغاة بيتين كريمين هما (آل زنكى ، وآل أيوب) ومن ثم بدأ رد الفعل الإسلامى يتجلى بقوة وبدأ الذين كانوا

يدخلون الرعب فى قلوب المسلمين يرتد كيدهم فى نحورهم ويهتزون من أعماقهم بعد ما أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وهذه سنة الله فى خلقه عندما يلجأ المسلمون إلى ربهم ويعرفون الطريق إلى رضاه ويأخذون فى الأسباب إلى طاعته لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقف فى سبيلهم هذا قانون الله الذى لا يتغير : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] .

وعندما يتفرقون ويختلفون يحل بهم من البلاء ويسلط عليهم من يبعث الرعب فى قلوبهم فلا ينزع إلا إذا عادوا إلى الله .

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا . أو من قلة يومئذ يا رسول الله ، قال : لا ، إنكم لكثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ويلقى الوهن فى قلوبكم . قالوا : وما الوهن يا رسول الله : قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[2] .

وكأنى ألقى فباظرى إلى مملكة بيت المقدس التى قامت على يد الصليبيين فى شعبان ٤٩٢ هـ حتى قيض الله للأمة البطل المغوار والمجاهد المسلم (صلاح الدين الأيوبىّ الذى استرد المسجد الأقصى فى رجب ٥٨٣ هـ كأنى انظر الآن إلى مدينة القدس ومسجدها المبارك وهى تقع أسيرة تحت يد الصهيونيين شذاذ الآفاق وبغاة البشر كأنى بالتاريخ يندى جبينه حياء وخجلا عندما ينظر إلى هذه الراية البيضاء ذات النجمة الزرقاء المسدسة الأضلاع ترفرف على أرض السلام على أرض الاسلام ، على أرض النبوة ، على أرض الوحى ، على أرض مواكب النور والعرفان ، على أرض الهدى ، على أرض الضياء ، على ربوع فلسطين التى صارت وطناً بلا شعب لشعب بلا وطن . عندما دخلتها اسرائيل ، بيت الصهيونية البكر لتجعلها ركيزة تقيم عليها دولة تسمى اسرائيل الكبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، والمسلمون يملأون الدنيا مشرقا ومغربا ولكن فرقة وخلاف وشتات فما أشبه الليلة بالبارحة . إنها المأساة ، لقد سقطت صقلية وكانت الشهيدة الأولى ، وجاءت بعدها الأندلس فخرت شهيدة على أرض الإسلام .

وتبعتها فلسطين التى سالت دماؤها الذكية بعد ما ذبحها العدو الفاشيستى ، لأنه سرطان يمتد ويسرى إن لم يهب المسلمون ويجروا عملية آستئصال له ، فالله وحده هو الذى يعلم العواقب وهو الذى يجرى عاقبة الأمور وهو الذى إليه تعيد مقتضياتها وإليه يرجع الأمر كله .

---

(١) سورة محمد الآية ٧

(٢) انظر شرح السنة للبغوى ج ١٥ — ص ١٦ حديث ٤٢٢٤ من رواية لثوبان (سبق تخريجه فى ص ٦٦) .

نهضة مباركة

إذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما مضى من الأحداث رأينا أن سنة الله الواقعة فى كونه شاءت للمسلمين بالنصر إذا كان الله غايتهم الكبرى ، وإذا كانت تعاليم رسوله هدفهم الأسمى .

« مازلتم منتصرين على عدوكم مادتم متمسكين بسنتى » .

والقرآن يؤكد المعنى فى أكثر من موضع حيث يقول الحق :

﴿ **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** ﴾[1] .

وحيث يقول : ﴿ **كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز** ﴾[2] .

وحيث يقول : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[3] .

وطريق النجاة هو الإيمان هذا حكم الله القاطع الذى لا يتخلف ولا يغيب .

﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾[4] .

فإذا ما تخلف المسلمون عن اتباع كتابهم والسير وراء هدى نبيهم كانت النتيجة : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[5] .

« فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من يبعث الرعب فى قلوبكم » .

وهكذا تجلت الأمور وانكشف الحقائق ، فما كان لجيوش أوروبا ان تستولى على بيت المقدس وما وقع فى أيديها من الامارات إلا عندما انتهزت فرصة الضعف السياسى والاجتماعى فى المشرق الإسلامى ولكن العناية العليا ، والإرادة العظمى لها فى هذا حكمة فلعل الشدائد هى التى تمحص الرجال ، ولعل المحن هى البوتقة التى تنصهر فيها النفوس ، لينض خبثها وينصع طيبها .

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[6] .

إن العقيدة هى التى تخلق البطولة وإن الشدائد هى التى تمحص النفوس وتزكيها وإن المحن هى التى تلخص معادنها .

﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[7] .

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) سورة المجادلة الآية ٢١

(٣) سورة غافر الآية ٥١

(٤) سورة يونس الآية ١٠٣

(٥) سورة النور من الآية ٦٣

(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٧) سورة آل عمران من الآية ١٤٠

هذه حقائق قرآنية عليها خمس نتائج :

الأولى : وليعلم الله الذين آمنوا .

الثانية : ويتخذ منكم شهداء .

الثالثة : والله لا يحب الظالمين

الرابعة : وليمحص الله الذين آمنوا

الخامسة : ويمحق الكافرين .

فى وسط هذا الظلام المدلهم والخطوب المحتدمة وأعماء الليل الحالكة وقد جلل المشرق الاسلامى عار الاحتلال الأوروبى والضعف السياسى والاجتماعى ضاربا أطنابه أوجد الله من الشدة فرجاً ومن الضيق مخرجاً ومن الليل فجراً .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج — أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه — لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة — لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به — إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد — فحسبك الله فى كل لك الله

بيت آل زنكى

شاء الله ولا راد لمشيئته ، أن يقوم أبطال يحملون عقيدة التوحيد ، يزلزلون الأرض تحت أقدام الصليبيةَ الأولى ، التى استولت على بيت المقدس والإمارات ، فكان هذا الفجر الذى أشرق أمله ، وانتشر جنوده فى بيت آل زنكى ، ومن حق هؤلاء الناس علينا ، أن نسلط على بيتهم الأصيل بعض الأضواء الكاشفة ، حتى تكون صورتهم فى الأذهان جلية ، فآل زنكى هم هؤلاء الأبطال ، الذين وضعوا المسمار الأول فى نعش الصليبين الأوربية ، عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان (ملكشاه) السلجوق وهو قسيم الدولة آقسنقر ، وقد عرفه صاحب كتاب وفيات الأعيان بقوله : هو أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب ، جر البيت الأتابكى أصحاب الموصل ، وقد كان من المماليك وأصحاب « ملكشاه » وتربى معه منذ الصغر .

وعندما تولى ملكشاه المملكة اتخذه من قواده ، وذلك لأنه لمح فيه أمارات الاستقامة الخلقية ، والكفاءة النادرة ، والشجاعة والقيادة والحكمة ، وهكذا تكون صفات القائد والأمير ، وبهذا يكون ملكشاه قد وضع الأمور فى نصابها ، وأعطى القوس باريها .

ولقد تولى آقسنقر إمارة حلب من قبل ملكشاه ، وكانت وفاته سنه ٤٨٧ هـ ولم يترك إلا ولداً صغيرا له من العمر عشر سنوات ، وهو عماد الدين زنكى .

ويطيب لنا الحديث عن هذا البطل ، الذى طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته ، فاهتزت له أعواد المنابر ، ووصل رنينه إلى أعماق القلوب المؤمنة ، لقد قام بتربية هذا الطفل الأوصياء من أصدقاء أبيه ، ولما بلغ أشده واستوى عوده ، جاهد مع المجاهدين جند الإمارات الصليبيه ، فبدت منه آيات النجابة ودلائل الشجاعة ، وإمارات الصدق مما استرعى أنظار الخليفة العباسى والسلاجقة ، فولوه حكم مدينتى « واسط ـــ والبصرة سنة ٥١٦ هـ » وفى سنة ٥٢١ هـ نال الولاية على الموصل .

وهكذا انفسح المجال أمام هذا الأمير الموفق والزعيم الملهم ، فكرس إهتمامه ، وركز هدفه فى إقامة أمة إسلامية موحدة ، لحمتها العدل ، وسداها الرحمة ، وهدفها الجهاد من أجل تحقيق عزة الإسلام ، لأمة ترفرف فوقها راية السلام والإسلام ، ويحددها العمل الصالح من أجل رضا الواحد الديان ، ويهتف بها قول الحق جل جلاله :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(1) .

وقد تركزت سياسته الداخلية على أمرين فى غاية الأهمية ، هما : بث الأمن ، والعدالة الاجتماعية داخلياً ، وتركزت سياسته الخارجية على تنظيم الأمة الاسلامية ، وجمع شملها ، وتطهير الأرض من أرجاس المحتل الأثيم .

وكأنه يردد قول القائل :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب .

فذاع صيته ، مما جعل أهل المدن يستنجدون به ضد ظلم حكامهم ، ووجد الاستنجاد قلبا مؤمناً ، فلبى نداء أهل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية ، وديار بكر ، وغربى الفرات ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى كان عماد الدين تحت إمرته ، حمص وحماه وحلب وبعلبك ومعرة النعمان ، ومن ثم فإن دولته أصبحت تهدد الإمارات الصليبية ، حيث كانت تتاخمها ولم يكن خارجاً عن حكمه فى بلاد الشام سوى دمشق وما جاورها من البلاد .

(1) ـــ آل عمران آية : ١٠٤

فجر جديد :

إن التاريخ يشهد ، والوقائع تثبت ، والحقائق تؤكد ، أن العدل والحزم والرحمة ، إذا توافرت فى إنسان يحكم ، كانت مفاتيح يضعها الله ليجرى بها الخير على يديه ، وأن الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا أخذت مكانها فى قلبه ، أتته الأمور منقادة إليه تجر أذيالها ، وهى طيعة ، فلقد رأيت عماد الدين ، وقد هيأ الله له السبيل إلى توحيد الأمة المتفرقة ، فنشر العدل وركز دعائم الأمن ، وأقام صروح الإصلاح الاجتماعى ، حتى أصبح الرجل الذى يستنجد به لدفع الظلم ، وما أجل هذا العمل ، وما أروعة وفى هذا يقول : ربنا فى الحديث القدسى : « ياعبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً »(١) .

عماد الدين رجل أشرب قلبه بحب الجهاد ، ووجد فى ذلك الغاية الكبرى ، وأراد أن يبدأ حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، بفتح مدينة الرها ، وما أدراك ما مدينة الرها ، إنها مدينة ذات قداسة عند الصليبيين ، وفى ذات الوقت لها مكانتها فى قلوب المسلمين ، لما احتوته من المعالم الاسلامية ، والآثار التاريخية ، فيوجد بها جامع ينسب للخليل عليه السلام ، ومقام الأيوب الصديق ، واضرحة لجابر الأنصارى وأبى عبيدة بن الجراح ــ **بديع** الزمان الهمزانى .

فقد جيش عماد الدين الجيوش ، وعبأهم بالعقيدة ، التى تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والتقى بالصليبيين ، ودارت بينهما رحى الحرب ، وحمى وطيسها وأشتد القتال ، وكان النصر المبين لعماد الدين ، وقد هزم فى هذه المعركة قائد الصليبين جوسلين الثانى ، وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ وكان للانتصار الباهر الذى حققه فى هذه الموقعة آثار كبيرة ، وأهداف عليا ، فلقد علمت المدينة الرها فى نفوس الصليبين ، فضلا عن أنها كانت أول المدن تكويناً وامتدادا فى الشرق الاسلامى ، وأكبر من هذا كله أن النصر فى هذه المدينة ، جاء عقب ليل شديد الظلمة ، قارس البرودة ، عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس ، جاء النصر ليبدد هذه الخيوط ويقيم فى القلوب صروح الأمل باذخة عالية ، لا يعرف اليأس اليها سبيلا ، فكان هذا النصر من أجل ما حققه ذلك الأمير المسلم .

وظل هذا البطل المجاهد **يواصل الإصلاح ويقيم** آيات الجهاد ، ويرفع رايات الشرف فى ساحة الحق ، إلى أن وقع ضحية اغتيال أثيم ، فلقى ربه راضيا مرضيا واستقر به المطاف فى جوار الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وكانت وفاة هذا البطل سنة ٥٤١ هـ .

ماذا بعد وفاة عماد الدين ؟

لما استشهد عماد الدين ، خلفه من بعده ولداه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، وكان طبيعيا أن يقتسم الأخوان هذه المملكة ، فكان القسم الشرقى لسيف الدين غازى وعاصمته الموصل ، وانقسم

(١) ــ أخرجه الامام مسلم فى كتاب البر والصلة حـ ٤ صـ ١٩٩٤ ، صـ ١٩٩٥ برقم ٥٥ /٢٥٧٧

الغربى لنور الدين محمود وعاصمته حلب ، وبهذا كانت مملكة نور الدين محمود، وهى المتاخمة للمالك الصليبية قائما ، بصفة عنيفة ، مما جعل التاريخ يمد يديه مصافحا ذلك البطل بدخوله من أوسع الأبواب ، مسجلا له آيات من الفخر والرجولة النادرة ، والبطولة الكريمة .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض النفوس قد يتسرب إليها الضعف ، فيثير فيها روح الشقاق والفرقة والخلاف ، لكن الأيام شهدت ، والوقائع أكدت ، أن هذين الأخوين ، لم يستطع الشيطان أن ينزع بينهما ، ولم تستطع الدنيا أن تثير الخلاف فى نفوسهما ، فلقد كانا فى غاية الوفاق والمحبة ، ولعل هذا العامل له أثره الكبير ، ومكانته التى لا تسامى فى تحقيق الآمال .

ولقد تغيرت الأمور بعد موت عماد الدين زنكى ، وهذه سنة الحياة فليس موت البطل بالأمر العادى ، إنما الأبطال رجال لهم الأثر الكريم فى حياتهم ، ولهم ما يلفت الأنظار بعد مماتهم ، لقد إستغل الأعداء موت عماد الدين فانقض الصليبيون على مدينة الرها ، فاستردها الأمير المنهزم جوسلين الثانى ، وعاث فيها فسادا ..

نور الدين ومدينة الرها :

لما ترامت الأنباء إلى نور الدين ، بما حدث فى مدينة الرها ، انتفض انتفاضة القائد الذى اعتدى على كرامته ، فأراد أن يغسل هذا العار ، ويسيل على جوانبه الدم ، وزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها ، وزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب ، واستشار المسلمين ، حتى استطاع أن يكون جيشاً ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، توجه بهم إلى مدينة الرها ، وكان النصر حليفه ، فقد هزم أميرها الذى هزمه أبوه من قبل ذلك ، وأسقط كثيرا من الحصون الصليبيه ، التى وقعت صريعة تحت ضرباته القاضية القاصمة ، ولقن الذين انتقضوا حكمه فى الرها لقنهم درساً لاينسونه مدى الدهر .

وهكذا تكون الرجولة إذا كانت حازمة صارمة ، لا تعرف التوانى أو التخاذل ، ولا ترض عيشة الذل والهوان ، إما أن تعيش عيشة الكرماء ، وإما أن تموت ميتة الشرف والشهادة فى سبيل توطيد أركان الحق .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[1]

الحملة الصليبية الثانية :

تحركت الأحداث بسرعة ، لم يكن أهل أوروبا يتوقعونها ، فلقد ظن الصليبيون أنهم سيصفو لهم الجو فى المشرق الإسلامى ، ونسوا أو تناسوا أن الله هو صاحب الإرادة العليا ، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، قوله الحق وله الملك ، خالق الانسان ، **ومبدع الأكوان** .

---

(١) المنافقون آية : ٨

لعل المنقب فى بطون التاريخ ، اذا عجم عود الأحداث ونخل مخزونها ، وقدح زنادها ، يعلم أن من أهم الأسباب التى دفعت أوروبا إلى تكوين الحملة الصليبية الثانية :

١ ــ اليقظة الإسلامية ، التى قواها وأخرجها إلى حيز الوجود ، الشهيد البطل عماد الدين زنكى ، فالإسلام ذلك العملاق الكبير ، الذى تتضاءل أمامه كل مظاهر الحياة وزخارفها ، والإسلام يحمل من عوامل القوة الذاتية ، ما يجعله كفيلا بأن ينشر نفسه بنفسه ، فهو الحقيقة الثابته التى قال الله فى شأنها :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاة وما هو ببالغه ﴾(١)

أجل أنه الحقيقة ، لأنه وحى الله وإرشاده وتوجيهه .

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾(٢) .

٢ ــ ويأتى السبب الثانى للحملة الصليبيه الثانية ، وهو إنتصار عماد الدين زنكى فى مدينة الرها ، لما لها فى قلب الصليبيين من قداسة ، واسترجاع ابنه نور الدين لها من يد أميرها المنهزم جوسلين الثانى ، الذى فر منها بعد أسبوع واحد ، كل أولئك الأسباب دعت إلى تكوين هذه الحملة ، التى دعا إليها المحرض لها سان برنارد ، وقد عقد مجمع فى مدينة فيزولاى (مارس ١١٤٦ ــ ٥٤٠ هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويس السابع ، وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث ، فماذا كان مصير هذه الحملة الثانية ؟

لقد تحركت جيوشها إلى القسطنطينيه ، ومنها إلى آسيا الصغرى ، ولقد التقى لويس السابع بأمير انطاكيت « ريموند » وكان من رأى هذا الأجنبى لويس أن تقع محاربة نور الدين محمود ، لأنه يمثل الخطر الحقيقى ضد الإمارات الصليبيه ، ولكن لويس السابع امتنع عن ذلك ، مفضلاً زيارة بيت المقدس قبل كل شىء ، واحتدم الخلاف بينهما ، حتى خرج لويس السابع مغاضبا متجها إلى بيت المقدس ، ومعهما امبراطور ألمانيا ، واستقر رأى الثلاثة على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق . ويحتلوها ، وأراد الله أن يكون هذا القرار ، الذى استقروا عليه مخيباً لآمالهم ، فلقد تحركت الجيوش فعلا ، وحاصرت دمشق ، ولكن لم يدم حصارها أكثر من خمسة أيام فقد دب الخلاف بين القادة الصليبين ، وترامت الانباء بتحرك البطلين نور الدين محمود ، وشقيقه سيف الدين غازى ، ورجعت الحملة التى كانت تريد بالإسلام شراً ، رجعت تجر وراءها أذيال الندامة ، رجعت بخف حنين .

---

(١) الرعد آية : ١٤

(٢) يونس آية : ٣٢

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾(١) .

ولا تسأل عن الآثار الطيبة ، التى كان لها الدافع القوى فى مواصلة الجهاد ، بالنسبة للمسلمين ، فبعد فشل هذه الحملة ، ورجوع جيوشها خائبة ، ارتفعت معنويات المسلمين ، وإزدادت نفوسهم حماسا للجهاد ، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح .

أهداف لمواصلة الكفاح .

إن الإسلام بعقيدته ، يقيم مكلفيه النفوس على مبادىء قوية من الحق والعدل والرحمة والحزم ، تواضع فى غير ذل ، ورفعة فى غير تكبر ، وهذا هو السر فى عظمة الإسلام ، يقيم النفس على حب الخير ، دون أن يكون ذلك أدنى تسرب للأنانية ، ويقيمها نفساً قوية عزيزة ، دون أن يكون فى ذلك عنف أو ظلم ، ويقيمها صافية طاهرة زاكية ، دون أن يكون للحقد والبغضاء والحسد والشحناء أى سلطان عليها ، ومن الأبطال الذين صقلهم الإسلام بروحه ، ورباهم على عقيدته سليل بيت البطولة نور الدين زنكى ، الذى ورث عن أبيه علو همته ، وسمو فكرته ، وشرف غايته ، ونبل هدفه ، فلقد جمع كل أغراضه الشريفة فى إقامة أمة إسلامية واحدة ، تقوى وحدتها عقيدة الإسلام الصافية ، وتاريخها المشرف وأرضه ، التى تفيض بالخيرات ، وتثمر البركات ، وآماله العريضة ، وآلامة المشتركة ، ولقد علم الله صدق نيته فحقق له هدفه ، فقد استعاد مدينة الرها ، ثم زحف إلى انطاكية وقتل **أميرها** ريموند سنه ٥٤٤ هـ كما تغلب على جوسلين الثانى ، واحتل الكثير من الحصون والقلاع الواقعة شمالى حلب منها عين تاب — عزاز — حصن البارة — تل خالد — كفر لاثا — كفر سوب — دلوك — مرعشى — نهر الجوز — برج الرصاص .

وهكذا لم يمض إلا وقت قليل ، حتى أصبحت أملاك إمارة الرها وغالب أملاك انطاكية ، خصوصا ما كان منها شرق نهر العاص ، خاضعة لسيادة نور الدين محمود ، ورأى نور الدين بثاقب فكره ، أن يفتح دمشق حتى يقوى بها الوحدة الاسلامية ، فسار بجيوشه اليها ، وهيأ الله له أسباب فتحها ، فاستسلمت له ، وألقت إليها قيادها ، وبفتح دمشق ، يكون قد استولى على البلاد الشامية ، وكانت هذه خطوة مباركة ، خطاها نور الدين على طريق الهداية والنصر .

وبعد أن استولى على البلاد الشامية ، كان لابد أن يلقى بنظرة على مصر ، فإن لمصر مكانتها الخالدة ، وموقعها الممتاز ، فكيف كان حالها فى هذه الحقبة ؟

كانت مصر تحت الخلافة الفاطمية ، وقد دبت فيها الفوضى والنزاع ، وفى نفس الوقت كانت مطمعاً

---

(١) الأحزاب آية : ٢٥

لملك بيت المقدس الرجل الصليبي ، ولذلك قام الصراع بينه وبين نور الدين على مصر ، فالصليبون يريدون ضمها إلى مملكتهم ، ونور الدين محمود لا يرى بدا من فتح مصر ، ليكون عقدا فريدا ، ويقيم وحدة اسلامية خالدة .

ولقد جرت بين الطرفين معارك على ثلاث دفعات ، كانت الجولة الأخيرة لنور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ بتغلب قائده أسدالدين شيركوه على الصليبيين ، وانتصابه وزيرا للخليفة الفاطمى ، وبذلك أصبحت السيادة على مصر لنور الدين محمود ، بواسطة قائده أسد الدين شيريكوه ولكن هذا القائد لم يطل به الأمد فقد توفى بعد شهرين من تولية الوزارة .

لله درك نور الدين — من ملك ... بالعزم مفتتح ، بالنصر مختتم .
آثار عزمك فى الإسلام واضحة ... وسره ذلك باد غير مكتتم .
بما من العدل والإحسان تنشره ... تخاف ربك خوف المذنب الأثم .
أوردت مصر خيول النصر عازمة ... ثنى الأعنة إقداماً على اللجم .
فأقبلت فى سحاب من ذوابها ... وقضبها بدماء الهام منسجم .
تمكن الرعب فى قلب العدو بها ... تمكن النار بالإحراق فى الفحم
لله درك نور الدين من ملك ... عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... فى عقد عز من الإسلام منتظم .

صلاح الدين الأيوبى والحملة الصليبية الثالثة

الكلام عن صلاح الدين ، إنما هو عن رجل مسلم ، صفا قلبه ، وزكت نفسه ، وطهر وجدانه ، نعم كان صلاح الدين رجلا ذا عقيدة قوية ، وثقة فى الله مطلقة ، كان اذا صلى يطيل الركوع والسجود ، ويطمئن فى صلاته بخشوع ، وكان يستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، كان من الذين يقول الله فيهم :

﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾(١) ولقد أثر عنه القول .

« إنى استحى أن يرانى الله ناقضاً للعهد ، كاذبا فى القول «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »(٢) .

يقف صلاح الدين الأيوبى على قمة من قمم الإسلام ، وجهاده العربى فى سبيل الحرية والكرامة ، ومقاومة الاستعمار ، فإن جانبا خطيرا من تاريخ الأمة الاسلامية ، يرتبط باسمه ارتباطا ضخما ، ذلك هو امتلاك

(١) الذاريات الآيتان : ١٧ ، ١٨

(٢) آل عمران آية : ١٢٦

الصليبين للساحل الشامى ، وانتصار صلاح الدين عليهم فى معركة حطين ، ثم دخوله بيت المقدس رافعاً راية الاسلام خفاقة عالية ، معليا كلمة الله ، هاتفا فى معسكر التوحيد .

« بأن الله وحده صدق وعده ، ونصره عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

إن هذه العقيدة ، هى التى صنعت تلك البطولة ، فمثل صلاح الدين رجل خاف الله مخافة كل شيء ، ولو لم يخف الله لخاف من كل شيء ، رجل امتلأ قلبه يقينا وثقة فوثق بقوله تعالى :

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾(١)

اعتقد أن هذا قانون الله الذى لا يتخلف ، ولا يمكن أن يتخلف ، لأن الذى حكم به هو مالك الملك وملك الملوك ، ولأن الذى جاء به هو كتاب الله الخالد ، والله اذا حكم ، فلا معقب لحكمه ، واذا قضى فلا راد لقضائه .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢) .

أن معزكة « حطين » وما بعدها ، ترسم صورة صادقة للبطل المجاهد ، والعبقرى الفذ صلاح الدين ، وتوضح شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور ، فقد كان محارباً شجاعاً ، بالغ الشجاعة ، خبيراً بفنون الحرب وضروبها ، وهو فى المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه ، فإذا ما انتهت الحرب ، كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه ، وقد استمد هذه الروح العالية من استاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء سيدنا محمد ﷺ ، فقد كان يأمر بإكرام الأسرى ، ومن أجل صفاته الوفاء بالعهد مع الأعداء ، لأن القرآن الكريم ركز هذا المعنى فى قرارات نفوسهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون ﴾(٣) .

ولعل فى هذا الحادث الذى سنسوقه بين يدى القارىء ، ما يملأ النفس روعة وجلالة ، ويرفع رأس المسبلم إلى ما فوق قبه الفلك ، عزيزاً فخورا ، يقول لربه كفانى عزاً أن أكون لك عبداً وكفانى أن تكون لى فخراً وكفانى شرفاً أن يكون الإسلام لى ديناً وكفانى عظمة أن يكون محمد لى نبياً ورسولا .

ومما زادنى عــزاً وفخــراً   وكـدت بـأخمص أطـأ الثريـا
دخولى تحت قولك يا عـبادى   وأن صيرت أحمد لى نبيــاً

لقد وقع سهيل بن عمرو اسيرا فى يد المسلمين فى غزوة بدر ، وكان من ألد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، ولما دفع الفداء أطلق سراحه ، فرآه عمر بن الخطاب متوجها إلى مكة ، ليس عليه أى ضير

---

(١) الروم آية : ٤٧
(٢) يوسف آية : ٤٠
(٣) المائدة آية : ٨

ولا سلام ، فقال عملاق الاسلام عمر : « يا رسول الله لا تدع سهيلا يذهب إلى مكة حتى أخلع له ثنيتيه ، حتى إذا قام خطيبا عليك ، اندلع لسانه من فمه فلا يستطيع أن يسبك بعد اليوم » .

فماذا كان رد المبعوث رحمة للعالمين لقد قال له :

« لا والله يا عمر لا أمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبياً »[1] .

هذا حكم شريف نطق به فم شريف ، وكما قال شوقى فى هذا المعنى

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو اعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هم الرحماء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويلع الكرماء

من هذه الروح العالية ، والرجولة النادرة الكاملة ، والإنسانية السمحة ، ينهل أبطال الاسلام ، وارتشفوا من نهلها العذب المورود فكان صلاح الدين شجاعا فى حربه ، قاسيا على عدوه ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها ، كان الوفى بالعهد ، الحريص على صدق الوعد ،

لقد حاز صلاح الدين اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين ، فكتب عنه من مؤرخى العرب ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء ، وأما مؤرخو الإفرنج ، فقد كتبوا عنه فى سياق الحديث عن الحروب الصليبية ، وأفرد الكاتب الانجليزى ستانلى لين كتابا خاصا عن صلاح الدين .

ولقد ذهب كثير من مؤرخى الإفرنج ، بأن الله وفق صلاح الدين ، ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ، ثم يقول هؤلاء المؤرخون : « اذا كان الفرنجة **عاثوا** فى الأرض فسادا ، وطغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ، ما أحمرت منه الأرض خجلا ، وفق الله صلاح الدين بروح من عنده ليوقع عقابه بهم على يده ، فكان من أمره ما كان » .

شهادات من الأعداء :

لما زار الامبراطور غليوم الثانى بلاد الشام قال ما ترجمته :

« مما يزيد سرورى أننى موجود فى بلد ، عاش بها من كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره ، شجاعة وبسالة « وكان يقصد بذلك البطل صلاح الدين ، والحق ما شهدت به الأعداء ..

ويقول « ستيفن » : كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعا فى تقريره ، قوى الشخصية ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه ، كان صبورا على الشدائد ، يثق بنفسه وثوقا عظيماً .

(١) سيرة ابن هشام ص ٢ ، ص ٣٠٤ غزوة بدر الكبرى س ١ الحلبى

علمه بفنون الحرب

نشأ صلاح الدين بين الأكراد ، وهؤلاء كانوا أهل فروسية ، يحبون الحرب والقتال والغزو ، وبيئة هذه أمرها ، لابد أن ينشأ الفرد فيها ، وقد عرفت عنه المقرة الحربية ، والفن العسكرى ، والقوة الجبارة ، والروح العسكرية المجيدة ، من إقدام وشدة ، وشجاعة وقوة وجرأة ، وتضحية ، ولا شك أن البيئة لها أثرها الكبير ، الخطير فى حياة الفرد الذى يتطبع إلى درجة كبيرة بطباعها وعاداتها وأحوالها .

وقد تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية وذكاؤه الحربى ، أنه اضطر الصليبين إلى أن يحاربوا فى وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب . إذ أمسك بيده عنصر المباغته ، واختار زمن المعركة ومكانها ، وهما من أهم العناصر فى الحرب ، وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم ، ليحاربوه فى منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ، ليغريهم بالإسراع لنجدتها ، فتركوا مواقعهم الحصينة ، واندفعوا إلى حيث أراد صلاح الدين الهزيمة الساحقة ، إذ أن الحرب رأى وخدعة ومكيدة فقد تقدم الجيش فى أرض لا ماء فيها ولا زرع ، فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة اعياء شديدا ، وتخلفوا عن الفرسان فى الوقت الذى كانت قوات صلاح الدين ، تمطرهم وابلاً من السهام ، وهجم المسلمون على خيمة الملك لوزينان ، فسقط أسيرا فى قبضتهم ، كما أسر أرناط ومقدم الراية وكثيرا من الفرسان ، وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء وفاقاً ، لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان ، وتقدم صلاح الدين ، فأخذ يفضى حصون الصليبين ، التى لم تعد لها قيمة حربية ، بعد القضاء على الفرسان ، فاستولى على عكا (٥٨٣) ونابلس وقيساربه وصنوربة ، ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ هـ الموافق سبتمبر ١١٨٧ م حصارا دام أربعة عشر يوما ، ثم تمكن المسلمون من أحداث ثغرات فى الأسوار فسلمت المدينة .

ولقد علم صلاح الدين أيضا ، أن القوات المحاربة ، لا تستطيع الاستغناء عن الماء ، وأن الجنود لا تستطيع العيش دون الاستمرار فى حربها وقتالها ، إلا اذا كان معهم كميات كبيرة وافرة ، تسد رمقها ، وتروى ظمأها ، لهذا نجده فى موقعة طبرية يرسل جيوشه ، لمنع الماء عن الفرنجة وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج ، وكان الوقت صيفا ، وفى هذا الفصل يشتد احتياج المرء إلى المياه ، ولم يستطع الفرنجة بلوغ الماء ، ولم يجدوا فى الصهاريج أى كمية تغنيهم عن عطش ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، وكان من نتيجة محاولتهم الوصول إلى ينابيع المياه ومواردها أن تمكن القائد الذكى المدرب الحذر ، الذى كان يراقب حركاتهم ، ويعرف مقصدهم من حصارهم حصارا تاما وضيق عليهم الخناق ، حتى كان النصر فى النهاية له والهزيمة والخزلان نصيب أعدائه .

الجهاد المقدس :

فما أعظم الحرب ، وماأجمل الانتصار ، اذا كان المحارب ذا عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمي ، وتخطيط قائد مجرب ، ولقد كان صلاح الدين من هذا الطراز الرفيع ، الذى خاض الحرب جليلها ودقيقها ، ومحرك الفلك ، من الإله الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، استمد النصر من **فالق الإصباح** ، وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم .

هنا يتجلى دور العقيدة فى القائد المحارب .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[1]

إن المؤمن صاحب العقيدة الراسخة ، اذا نزل صومة الوغى وساحات القتال ، يجد ريح الجنة دون المعركة ، فتهفوا نفسه اليها ، وتتوق روحه لرياضها ، لأنه واثق أنه الرابح فى كلتا الحالتين ، النصر أو الشهادة ، وكلاهما من أسمى الأهداف عند المؤمن ، وأجل الغايات فى قلبه ، بهذا نطق القرآن الكريم :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾[2] .

إن المؤمن الحق يحس ضربات السيوف ، كأنها قبلات الملائكة ، **يسمع صليلها على أنغام قدسية** ، ويرى بريقها كأنه سنا من نور السماء ويهتف من أعماقه .

﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[3] .

لا يعرف اليأس ، كما لا يعرفه اليأس ، يجعل من الملح **الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا** ، ومن الخطوب **المدلهمة أمنا وطمأنينا وسلامة** ، ومن الليل الطويل نهارا مشرقا بنور النصر وضياء بأفراح الظفر .

الله أكبر إن ديـــن محمـــد وكتابـه أقـوى وأقـوم قيـلا .

لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا .

عرف صلاح الدين أن الحرب علم وتخطيط ، وفن ودراسة ، كما أهتم فى معاركة بعامل المباغته ، واضطر العدو إلى أن يخوض معركة فرض صلاح الدين زمانها ومكانها ، كما أهتم كذلك بعامل الاستطلاع ، أى

---

(١) آل عمران الآيات : ١٧٣ ـــ ١٧٥

(٢) التوبة آية : ٥٢

(٣) الأعراف الآيتان : ١٩٦ ـــ ١٩٧

معرفة مواطن الضعف عند العدو ، ومعرفة موارده وقوته ، وما يدبره فى الخفاء وتحركاته وسكناته ، وهذا العامل من أهم العوامل فى الحروب إذ على قدر المعلومات يقاس النصر .

فكلما علمت من عدوك الكثير من تمرده وعدده ، ومواقعه ، كلما كانت المعركة أقرب إلى النجاح ، وبهذه المعلومات ، التى تأتى بها سرايا الاستطلاع ، يستطيع القائد أن يضع خطته حسب ما يتراءى له ، ويقدر موقفه حسب ماتمليه عليه هذه المعلومات ، ولقد ظهر هذا العامل فى الحرب عندما أراد صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس ، فقد عرض على أهلها الصلح على أن يسلموا له المدينة فرفضوا عرضه .

وهنا قرر أن يأخذ المدينة عنوة ، فأرسل قوات استطلاعيه هنا وهناك ، يلتمسون من أسوارها النقط الضعيفة ، بعد فحص دقيق دام خمسة أيام ، حتى توصل إلى إيجاد ثغرات كثيرة فى الجبهة الشمالية . عند المكان المعروف بـ « باب كنيسه صهيون » فنصب المنجنيقات ، ونظم الرماه ، وحرك الجند إلى الأسوار عند النقط الضعيفة ، وبدأ هجومه القوى القاسى ، الذى لم يدم أكثر من أسبوع واحد ، رأى بعض المحاصرين أن لا أمل لهم فى النجاة ، فأرسلوا إليه يفاوضونه ويستسلمون ، كذلك من العوامل التى ينبى عليها نجاح المعارك الحربية ، ثقة القائد بربه ، ثم ثقة قواده وجنوده به ، وهذا العامل أيضا كان متوفرا فى شخصية صلاح الدين ، ولقد كان موضع ثقة جنوده ، وموضع ثقة نفسه ، كان مؤمنا بالله ، وبأنه يعمل لغرض شريف ، وهدف نبيل ، وكان واثقا من أن نصر الله سيواتيه ، وسيتحقق على يديه ــ بمشيئة الله ــ كل ما يصبوا إليه من أمانى وأحلام ، ولقد حدث أن وصلت أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ، ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ القائد العظيم بهذا النبأ ، ولم يجد الفزع إلى قلبه سبيلا ، بل كان ثابتا ثبات الرواسى الشامخات واقفا على أرض صلبة ، لا تعرف الخور ولا الفزع وهذا المعنى يجليه قوله تعالى :

﴿ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[١]

هذا منطق العقيدة الراسخة ، يعقب عليها القرآن الكريم بقوله :

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾[٢] ولقد قال صلاح الدين لجنوده ، عندما ترامت إلى سمعه تلك الأنباء ، التى تنخلع لها القلوب ، وتنفطر لها الأفئدة :

« دعوهم فليعملوا ما يشاءون ، فإنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، فى حين أننا نأخذ مدناً وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم ، جئنا لهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون » . وهذا القول الذى قاله وسط جنوده ، يشهد له المؤرخ الأوربى ستيفن سن فى كتابه أنه كان (صبورا على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيماً)

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) آل عمران آية : ١٤٨

ومن العوامل القوية ، التى يبنى عليها نجاح المعارك ، أن يكون القائد مثلاً لجنده فى الشجاعة والأقدام ، لا يخشى قوة العدو ، ولا يهاب بأسه ، ولقد كان سيد المرسلين ﷺ ذلك المثل ، الذى لقنه لأبطال الاسلام الافذاذ ، عندما وقف فى صومعة الوغى يوم حنين ، ينادى بأعلى صوته : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »(١) لقد اقتبس صلاح الدين هذا الدرس فى الشجاعة والإقدام من سيرة بطل الأنبياء محمد ، الذى اذا تحدث عنه التاريخ جثا على ركبتيه ، فإذا ما تكلمت عنه الدنيا تمرغت تحت قدميه ، لقد كانت شجاعة صلاح الدين الأيوبى من أسباب تتويج جنود المسلمين بانتصارات رائعة ، اذا دلت على شيء فعلى تشبههم بقائدهم العبقرى فى شجاعته النادرة .

يشهد بذلك أنه حدث مرة ، أن أسرع بجواده إلى حيث يوجد بعض جنوده قائد الفرنجة الملقب الأسد ، فقال لهم بصوت دوى كالرعد فيه زئير الأسود ، وقوة الحق ، كأنه العاصفة ببروقها ورعودها ديباجها ورماها قال لجنودالأفرنجة .

(قفوا مكانكم فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) وهكذا كان يعرض نفسه للخطر مع جنوده ، رغبة منه فى قهر أعداء الاسلام ، حتى لا يقربوا الأراضى المقدسة .

وكان صلاح الدين كغيره من القادة الممتازين ، يمتاز بشجاعة لا مثيل لها هى مثل طيب لجنوده ، ومن تحت إمرته يدلنا على ذلك أنه كان لا يخشى سهام عدوه المرسلة اليه ، وكان يركب جواده ، وهو مريض ويقود جنوده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يريح نفسه قال :

(إنى إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) .

هذه عبارة سجلها التاريخ بحروف من ذهب على صفحات من نور ، لذلك البطل المسلم . (إنما أشعر بالمرض حيث أترك ظهر جوادى) وهذا مبعثه العقيدة الراسخة والإيمان الذى اذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، تكاد تجعل المستحيل ممكناً)

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢)

---

(١) أخرجه مسلم فى كتابه الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٠ برقم ٧٨ /١٧٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ /١٧٧٦ والبخارى حـ ٥ صـ ١٩٥ غزوات النبى .

(٢) التوبة آية : ٢٤

صلاح الدين ومبدأ الشورى

من المبادىء التى قام عليها بناء الإسلام ، مبدأ الشورى ، فرأى الإنسان مع الجماعة ، أنفع إلى الناس من رأيه وحده ، وهذا مما يجعل الاسلام يعنى بهذا المبدأ عناية تامة ، ويجعل من أوصاف الجماعة المؤمنة ، أن الأمر شورى بينهم ، فيقول سبحانه فى سورة الشورى : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم** ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾[2] . وللأمام الرازى موقف جديد بالتسجيل على هذه الصفحة لما فيه من روعة وجلال فى قوله تعالى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾

قال : هذه الآية نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الاسلام على مبدأ الشورى ، وكراهيته للاستبداد بالرأى .

ففى هذه الغزوة بالذات ، بينما كان رأى بعض المسلمين ، خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج ، بينما كان رأيه صلى الله عليه وسلم التحصن بالمدينة ، وكانت محنة . ومثل هذا الحدث ، قد يعطى مبررا لأى أمير مستبد عبر التاريخ ، لكى يرفض رأى الجماعة ، لأنه خاطىء ... ومنعاً لذلك نزلت آية الشورى ، وفى أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى الأمة ، أو الافتئات على حقوقها .

وما أجمل كلام شوقى فى **همزيته** ، إذا يقول مخاطبا رسول الله :

وأقمت بعدك للعباد حكومة ... لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده ... والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى ، والحقوق قضاء
لو أن إنسانا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً ... هى أنت بل أنت اليد البيضاء

ولقد كان صلاح الدين لا يعمل برأيه منفردا ، بل كان يأخذ على الدوام رأى الجماعة وذوى الخبرة من أصحاب الرأى ، لما كان يراه فى رأى الفرد ، من الاستبداد الآمر ، عملاً بأمر الدين ، وجرياً على سنة الرسول كثيرا ما عدل عن رأيه ، وهو يعلم صحة هذا الرأى ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حدث أمام عكا وصور ، ونحن جميعا فى عصرنا هذا أن أى قائد يجتمع بضباط أركان حربه ، للتداول فيما بينهم ، وللتشاور فى اتخاذ خطة معينة ، وقد ذكر المؤرخون لهذه الحادثة التى إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى اهتمام ذلك القائد برأى الجماعة ...

---

(١) الشورى آية : ٣٨
(٢) آل عمران : ١٥٩

حدث مرة أن كان صلاح الدين عند حصن (الشقيف) فبلغ سمعه نبأ سير الفرنج من صور ناحية عكا ، فأسرع إلى دعوة امرائه ، وجمع مجلساً حربياً ، يعرض عليه الموقف ، ويطلب منه إبداء الآراء ، واختيار ما يراه صالحاً لمعالجة الموقف ومواجهته .

وكانت الطرق مفتوحة أمامه ، أما أن يساير الافرنج على الساحل ، ثم يقاتلهم قبل بلوغهم عكا ، وإما أن يلقاهم هناك بعد أن يسلك طريقاً فى الداخل مارا بطبرية ، وعلى الرغم أنه كان يؤيد الطريق الأول ، إلا أنه عندما رأى أمراؤه يقررون الطريق الآخر ، وافق عليه على الرغم من خطورته ، لأن من نتائجه أن الأفرنج يصلون إلى عكا ، ثم يستطيعون بذلك اختيار المكان اللائق للدفاع ووسائل المقاومة للتحصين ،

وليس ثمة أدنى شك فى أن تقدير القائد للموقف الحربى ، له أثر كبير فى نتيجة هذا الموقف ، فكلما كان القائد ممتازا كلما استطاع تقدير الموقف تقديرا صائباً ، ويستطيع بناء على هذا التقدير أن يقر خطة تؤدى به إلى النصر بعون الله ، وهذا ما مكان يمتاز به صلاح الدين .

فقد حدث فى أثناء القتال حول طبرية ، أن كانت همة الإفرنج متجهه إلى قطع الرجعة على صلاح الدين وجيشه ، ليحولوا بينه وبين مركز قواته وينابيع المياه ، إلا أن القوم لم يعرفوا أن صلاح الدين يحتاط فى حرية للأمر قبل وقوعه ، وأنه يعلم ما للحيلة من التأثير العظيم ، والغريب أن الافرنج نسوا أن عليهم أن يدافعوا ، ما دامت قواتهم ليست فى مركز منيع يرتدون اليه عند الحاجة ، إذا إنهم حينما هاجموا وحاولوا تنفيذ ما دبروه ، وجدوا أنفسهم فى كل خطوة تحت نيران صلاح الدين ، فلم يثبتوا ، بل والأدهى من ذلك أنهم عندما حاولوا التقهقر بل الفرار ، وجدوا فرق المسلمين تحيط بفرقهم ، وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى .

مع سير الأحداث :

استمرت الخلافة الفاطمية فى مصر من سنة ٣٦٢ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ وكان على عهد صلاح الدين خليفة فاطمى يسمى الخليفة العاضد ، فلما مات عم صلاح الدين (أسد الدين شيريكوه) اختار الخليفة الفاطمى صلاح الدين وزيراً له ، على الرغم من صغر سنه ، ووجود غيره من القواد ، وكان صلاح الدين بهذا الاختيار أهلاً ، لما ظهر به من الكفاءة والنبوغ ، ورجاحة العقل ، وإحكام الخطط ، والبطولة النادرة .

ولما مات الخليفة العاضد انقرضت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطان مصر ، ثم وسع دائرة نفوذه ، فغزا النوبة واستولى على اليمن والحجاز ، ولما مات نور الدين محمود عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه ، بعد أن دخلها الاضطراب والانقسام ، فامتلك دمشق وحلب ، وبقية البلاد الشامية والجزرية ، وتكونت لصلاح الدين مملكة عظيمة ، تمتد من العراق إلى برقة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبين ، بعد أن وجد مملكته ، وقوى نفوذه ، واستمرت حروبه معهم نحواً من عشر سنوات ، كان فيها منتصرا مظفراً ، وتوج أعماله بانتصاره على الصليبين فى معركة حطين ، واستيلائه على بيت

المقدس ، وحصر الصليبين فى منطقة ساحلية ضيقة ، انتقلت اليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة عكا عاصمة لها .

حول بيت المقدس :

أكتب سطور هذا الكتاب والأمة الاسلامية ، تمر بمحنة قاسية الأحداث ، تتحرك بقسوة كالعاصفة العاتية ، بكل رعودها وبروقها ، ورياحها ورمالها ، فبعد الاعتداء الصهيونى فى الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م ، احتلت اسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن ، والمرتفعات السورية ، وشبه جزيرة سيناء ، وتوالت التصريحات من قادة اسرائيل العسكريين والمدنيين ، ولا فرق بين هؤلاء وأولئك . فليس فى اسرائيل صقور أو حمام بل كل حكام الصهيونية صقور ، وإن ارتدوا ريش الحمام ، وكان آخر ما ادلت به رئيسه وزراء اسرائيل : « جولد مائير » قولها :

« إن اسرائيل سترفض أى حل تقترحه الدول الأربعة الكبرى »

ومن قبل أدلى وزير خارجية اسرائيل بقوله :

(إن اسرائيل ستظل محتفظة بخطوط وقف اطلاق النار ما لم توقع معاهدة صلح بين العرب واسرائيل ، يكون معترفا بها بحدود آمنة ، ولو لم تفعل اسرائيل ذلك ، فإنها ستكون قد انتحرت انتحارا سياسياً)

وآخر ما أدلى به وزير الدفاع الاسرائيلى قوله :

(أن الصيف القادم خطير وعلى شعب اسرائيل أن يعد جميع الامكانيات اللازمة للحرب المحتملة .

أسجل سطور هذا الكتاب ، والمسجد الأقصى أسير فى يد الصهيونية ، والمقدسات الإسلامية تئن بدموع اللوعة على ما أصابها من عبث وانتهاك ، وقاذفات القنابل اليهودية تضرب الشيوخ والأطفال ، والنساء الآمنين الوادعين فى الضفة الشرقية للأردن ، وجبهه القتال المصرية فى الضفة الغربية للقتال بين عشيه أو ضحاها ، تشتبك مع القوات الصهيونية المرابطة . على الضفة الشرقية للقتال ، فالحرب الساخنة والوقود المشتعل ، ينذر بالخطر المدهم ، ومنطقة الشرق الأوسط كما شبهها وزير الدفاع الأمريكى كلارل كليفورد بأنها علبة كبريت ، قابلة للاشتعال فى أى وقت ، وكما شبهها رئيس وزراء اسرائيل السابق ، أنها برميل من البترول ، ما يلبث أن يشتعل ، وقع المسجد الأقصى فى يد الصهيونية ، فكان ذلك الحادث الأليم ، طعنة مسمومة فى قلوب أكثر من ستمائة مليون مسلم ، يسكنون أكثر من أربعين دولة اسلامية ، وكأن التاريخ يرجع بنا إلى الحروب الصليبية ، التى وقعت بين المسلمين وجيوش أوربا ، خلال قرنين كاملين **من الزمان ، امتدت من سنة ٤٩٠ هـ إلى ٦٩٠ هـ كأن التاريخ يريد أن ينطلق بحكمه الصادق ؛ أن هذه الحروب لا تزال ممتدة ، فقد كان الشعار الذى يجمع به المال لاسرائيل فى دول أوروبا قبل حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م « قاتلوا المسلمين »** .

وبفضل هذا الشعار ، تدفقت الأموال كالسيل المنهمر ، ودارت الأيام دورتها أيام الصليبيين ، فقيض الله للمسجد الأقصى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فوجهوا الضربات القاضية القاصمة إلى القلوب

المعتدية الأثيمة ، واستخلصوا بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة ، وأن علماء التاريخ ومؤرخي العلوم ، يكادون يجمعون على أن هزيمة المسلمين أيام الصليبيين فى القرون الخالية ، كان مرجعها ثلاثة أشياء :

ضعف الوازع الدينى .

الاغلال الاجتماعى .

التنسخ الأخلاقى .

وما أقساها من أسباب ، وما أعظمها من أدواء ، وها نحن فى أولى القرن الرابع عشر الهجرى ، وها هى الصهيونية تنفذ المخطط الرهيب ، وترسم خريطتها الشنيعة التى تقوم على التوسع والاستيلاء ، وفى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ تطأ **الصهيونية** بأقدامها المدنسة الأراضى المقدسة ، وتعبث بحرمات الاسلام .

وإننى اذا أذكر للمسلمين الأسباب ، التى أدت إلى وقوع الكارثة أيام الصليبيين ، فلعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فإن الأرض المقدسة تهتف بهم أن وحدوا صفوفكم ، وكلمتكم ، وتناسوا الخلافات ، وقفوا وقفة رجل واحد لخوض المعركة الفاصلة ، فإنها معركة الاسلام .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾[(١)]

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[(٢)] .

يا أيها المسلمون فى كل مكان : إن القرآن يناديكم ويهتف بكم قائلا :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[(٣)] .

ثم يبعث فينا أملاً ويقينا فى النصر ، إن نحن اعتصمنا بالله واصطلحنا مع الله ، فيقول سبحانه :

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾[(٤)]

ويؤكد أن ما نعده من قوة ومن رباط الخيل ، إنما هو إرهاب لأعداء الله ، أما الذى يقتل الأعداء حقيقه ، فهو الله فيقول : **﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين**

---

(١) الأنفال آية : ١٥

(٢) الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦

(٣) آل عمران الآيات : ١٣٩ — ١٤١

(٤) الأنفال آية : ٥٩

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾[١] .

ويؤكد هنا المعنى

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٢]

وعلى المسلمين أن يتذكروا ما للمسجد الأقصى من مكانه فى القلوب ، وحرمة فى الاسلام ، ومنزلة فى مقدساتهم ، فقد سأل **الصحابى** الجليل أبو ذر الغفارى — رضى الله عنه — رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض **أول** ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت . كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة — الحديث[٣]

وبلغ من فضل هذا المسجد ومكانته فى الاسلام ، أنه أحد المساجد الثلاثة ، التى لا تشد الرحال إلا إليها ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه — أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال ، إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » رواه البخارى ومسلم وأبو داود[٤]

وللصلاة فى المسجد الأقصى ، فضل كبير ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه »[٥] .

وقد جاء فى الأحاديث ؟ إن فضل الصلاة فى مسجد بيت المقدس ، أفضل مما سواه من المساجد — غير المسجد الحرام والمسجد النبوى . بخمسمائة صلاة[٦]

ويكفى المسجد الأقصى فخراً ، أنه أولى القبلتين ، فقد استقبله الرسول ﷺ فى صلواته ومعه المسلمون ، وظلوا على هذا الحال بعد الهجرة بستة عشر شهرا ، إلى أن أمره الله تعالى باستقبال البيت الحرام .

وتلك مفخرة أخرى للمسجد الأقصى ، تتردد فى سمع الزمان ما تعاقب الملوان ، واختلف الجديدان ، إلا أنها مسرى رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث التقى بالأنبياء ، وصلى بهم إماماً ، ليعلن أمام الناس أجمعين ، أن شريعة الأنبياء واحدة ، فكلهم يعملون فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

---

(١) الأنفال آية : ٦٠

(٢) الأنفال آية : ١٧

(٣) أخرجه الامام مسلم فى كتاب المساجد حـ ١ صـ ٣٧٠ برقم ١ /٥٢٠

(٤) أخرجه البخارى حـ ٢ صـ ٩٧٥ برقم ٤١٥ / ٨٢٧ كتاب الحج ، صـ ١٠١٤ برقم ٥١١ /١٣٩٧ وأبو داود حـ ٢ صـ ٥٢٩ برقم ٢٠٣٣ والترمذى حـ ١ صـ ٢٠٥ برقم ٣٢٥ ط دار الفكر

(٥) أخرجه الأمام مسلم حـ ٢ صـ ١٠١٢ برقم ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ /١٣٩٤

(٦) الترغيب والترهيب حـ ٢ صـ ٣٦١ ، صـ ٣٦٢ برقم ١٠ ط مكتبة الجمهورية .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾(١) .

وهكذا يقف المسجد الأقصى ليأخذ مكانته اللائقة به فى تاريخ الاسلام فقد شرف بزيارة الرسول ﷺ له ليلة الاسراء والمعراج .

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾(٢) .

صلاح الدين الأيوبى وبيت المقدس

كانت الشرارة الأولى التى فجرت نار الحرب ، بين البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبى ، وبين قوات الفرنجة المعتدية الباغية ، أن رجلا يدعى « أرناط » كان حاكما على « الكرك » وهذا الرجل سولت له نفسه سوءاً ، فقد اعتدى على قافلة تجارية تابعة لصلاح الدين ، فغنم أموالها ، وأسر رجالها ، وعلى الرغم من أن صلاح الدين أنذره ، إلا أن هذا الشقى ركب رأسه ، الذى عشش الشيطان فيه وفرخ ، فأقسم صلاح الدين إن ظفر به ليقتلنه بيده ، وعزم أن ينتقم منه ، وأن يكيل له الصاع صاعين ، كان ذلك فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة هجرية ، وفى سنة ٥٨٣ هـ عزم صلاح الدين عزماً اكيداً على أن ينفذ وعيده فى صاحب حصن « الكرك » أرناط ، وعلى أن يهاجم مملكة بيت المقدس ، التى كانت فى ذلك الوقت تحت يد الصليبيين ، فكانت المعركة الفاصلة الخالدة ، التى سجلها التاريخ ، لذلك البطل بحروف من ذهب ، على صفحة من نور ، باقية مدى الدهر ، أعطر من الزهر ، ألا إنها موقعة حطين ، فكيف كان ذلك ؟

معركة حطين :

خرج صلاح الدين من دمشق فى شهر المحرم (٥٨٣ هـ ـــ ١١٨٧م) ولما وصل إلى رأس الماء جعله مركزا لاجتماع الجيوش ، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام ، وأعلن حالة التعبئة فى الجماهير المسلمة .

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٣)

وقامت العقيدة بدورها الحقيقى ، لتعلن فى صفوف المجاهدين قول الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٤) .

---

(١) الزخرف آية : ٤٥

(٢) الاسراء آية : ١

(٣) التوبة آية : ٤١

(٤) التوبة آية : ١١١

وهكذا نهض الناس وانتفضوا كالليوث الرئبالة ، يزمجرون غضباً لانتهاك **الحرمات**، ويصيحون صيحة الحق ، ليدمروا الباطل ، الذى أخذ يزأر فى عرضات الدنيا ، فإذا ما توافر للقائد عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمى فى فن القتال ، كان النصر حليفه ، والتوفيق رائده .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾[1]

لما التقى صلاح الدين بولده الأفضل عند « رأس الماء » **بقى** ولده برأس الماء ، وسار هو إلى بصرى ، وسار مظفر الدين كوكبورى إلى عكا ، وأيقن الصليبيون باتساع الخطة ، التى دبرها صلاح الدين ضدهم ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى طبرية .

وتقابل الفريقان فى حطين ، وجرت معارك قاسية بين الطرفين ، وانتصر فيها صلاح الدين انتصارا حاسما ، فقد هزمت قوات التوحيد ، شراذم الشر الباغية ، هزيمة ساحقة ، فسبحان القائل : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾[2] .

وقد بلغ عدد القتلى من الفرنجة عشرة آلاف ، هذا بالاضافة إلى أن ملك بيت المقدس وأرناط ، قد وقعا أسيرين فى أيدى المسلمين ، ولقد أظهر صلاح الدين شهامته ، ورجولته ، وروحه العالية ، روح البطولة ، فعامل ملك بيت المقدس معاملة كريمة وعطف عليه .

أما « أرناط » صاحب حصن الكرك ، الذى سبق أن صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقتلنه ، فقد بر بقسمه وضرب عنقه جزاء ما قدمت يداه ، وبهذا الانتصار الساحق فى موقعة حطين ، بدت **شخصية صلاح** الدين فى أوروبا ، تحمل أجل صفات البطولة ، وأنصع معانى النصر ، حتى ذاع صيته **فى كل مكان** ، فملأ قلوب الفرنجة رعباً ، حتى قيل أن نساء أوروبا ، كن إذا أردن أن يخفن أطفالهن : **ذكرت لهم** اسم صلاح الدين .

هذا هو الرجل ، الذى كان اذا صلى يطيل ركوعه وسجوده ، ويستعين على أعدائه **بالدعاء وقت** السحر ، وهذه معجزة الاسلام فى صنع الرجال ، وماا أصعب بناء النفوس ، وما أجل بناء **البطولات ولما** حقق الله النصر على يدى صلاح الدين فى موقعه حطين .

كان ذلك بشير يمن ، وطالع خير ، وإيذانا بأن فجر الحق ، قد امتدت خيوطه **تملأ الآفاق ، فتوالت** الانتصارات بعد ذلك ، ففى الفترة الواقعة بين الانتصار فى حطين ، وبين فتح بيت المقدس ، **توجه صلاح** الدين بقواته إلى عكا فاستسلم من فيها بأمان ، ودخلها غرة جمادى الأولى (٥٨٣ هـ ــ ١١٨٧م) وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة صور .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٢) الروم آية : ٤٧

ثم وقع احتلال المدن والحصون، التى حول عكا ، مثل (تبنين — صيدا — جبيل — بيروت) وبعد ذلك ساير الساحل ، وحاصر عسقلان ، مدة أربعة عشر يوما ، وانتهى الأمر باستسلامها فى ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ .

وبذلك نصب صلاح الدين حصاراً على بيت المقدس ، وحال بين مملكة بيت المقدس ، وبين الامدادات الصليبية التى كانت ترد اليها من الساحل .

صلاح الدين وبيت المقدس :

بعد أن استطاع صلاح الدين ، أن يقطع الإمدادات ، التى كانت ترد إلى بيت المقدس من الصليبيين ، **سهل عليه حصار بيت المقدس ، وذلك بعد مااستسلمت (الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون) ومن الجدير بالذكر أن حصار بيت المقدس ، لم تدم طويلا ، فقد استمر أسبوعا واحدا ، انتهت بعده المقاومة الصليبية ، وأعاد الله الحق إلى أهله ، وأجرى النصر على يدى عبده المجاهد فى سبيله .**

وهنا تظهر الروح الكريمة العالية ، روح الاسلام التى تتسم بالرحمة ، وتمتاز بالسماحة ، فلعلنا نذكر أن الفرنجة لما دخلوا بيت المقدس ، قتلوا من أهل هذه المدينة المقدسة ، سبعين ألفا من المسلمين ، وكان ذلك فى سنة ٤٩٢ هـ فى شهر شعبان ، لكن صلاح الدين أبت عليه عقيدته ، وشهامته ، ورجولته ، وبطولته ، وانسانيته ، أن يجرى الدماء أنهارا ، بل لقد عفا وأصلح ، وقبل الفداء من الصليبيين (١٠ دنانير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل) وأوسع لهم فى أجل هذا الفداء لمدة ٤٠ أربعين يوما ، فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الاسلامية ، إلى مدينة صور ، متعهدين بعدم الرجوع إلى الحرب .

فتحنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... فكل أناء بالذى فيه ينضح

رد الفعل :

كان لاحتلال بيت المقدس ، واسترجاعها بأيدى المسلمين ، هزة عنيفة فى أوروبا ، فنظمت حملة صليبية ثالثة ، شارك فيها أعظم ملوك أوروبا فى ذلك الزمان :

(١) امبراطور ألمانيا فردريك بربروس .

(٢) ملك فرنسا فيليب أوغسطس .

(٣) ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد .

ومات امبراطور الألمان أثناء الطريق ، فلم يكن لأمره شأن ، أما الملكان الفرنسي والانكليزى ، فقد

وصلا إلى الشام أثناء حصار عكا الشهير ، وبعد معارك أخرى بين الفريقين ، عقد صلح الرملة بين صلاح الدين وملك الانكليز . نص فيه على حدود الطرفين ، وعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وأنه يسمح للصليبين بزيارة بيت المقدس .

وفاة البطل صلاح الدين

بعد صلح الرملة رجع صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإجراء عدة اصلاحات وتنظيمات ، ثم صار قاصداً دمشق ، فوصلها فى ٢٥ شوال سنة ٥٨٨ هـ . ولم يعمر صلاح الدين طويلاً بعد صلح الرملة ، فقد وافاه الأجل ، وهو بدمشق ، فأسلم الرو ح فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣م) وفارق الحياة ، بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وصبر على البلاء ، وتحمل الضراء ، ومات ميتة الأبطال ، بعد أن سجل له التاريخ الأمجاد الخالدة ، فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ، وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[1]

فإلى رحمة الله ياصلاح الدين ، جزاء ما قدمت من أياد بيض ، ومواقف شرف فى سبيل إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق .

الحملتان الصليبيتان الرابعة والخامسة .

بعد الحديث عن موقعة حطين ، وفتح بيت المقدس ، رأينا أن نتمم الفائدة العملية والتاريخية ، حتى يكون القارىء على علم تام بالحملات الأوربية ، التى زحفت إلى الشرق الاسلامى ، تريد أن تغوص أرجل خيولها فى بحار من دم المسلمين ، وأن تستنفد قواهم ، وتستولى على ما فى الأرض من خيرات ، أو على حد قولهم : إنها أرض تفيض باللبن والعسل ، ومن ثم عرضنا للكلام عن بقية الحملات الصليبية ، بعد صلاح الدين رحمه الله .

جاءت الحملة الصليبية الرابعة ، نتيجة للخلاف المحتدم بين الكنيستين ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، تبعة خلاف سياسى وحربى ، كثيرا ما جر إلى الويلات والخطوب ، ولهذا فإن قادة الحملة الصليبية الرابعة ، سرعان ما استجابوا لدعوة دوق البندقية ، فهاجموا الامبراطورية البيزنطية ، واستولوا على القسطنطينية ، وأنشأوا فيها مملكة لاتينيه ، استمرت ٥٧ سنة . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة ، أما الحملة الخامسة ، فقد كان الغرض منها ، استنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين ، فاستجاب لهذه الدعوة ، ملك المجر أندارى الثانى ، ودوق النمسا ليوبول السادس ، وكانت سنة ٦١٢ هـ ــ ١٢١٦م ، ولقد تحركت صوب الشرق

---

(١) مريم آية : ٤٠

الاسلامى ، والهدف الأساسى أمام عينيها ، ولكنها لما فشلت بالنسبة لبلاد الشام ، قرر ملك المجر الرجوع إلى بلاده .

لكن بقية الفرنجة ، كانوا قد وضعوا خطة ، تقضى بالزحف على مصر ، التى كانت فى ذلك الوقت ، تحكم بيت المقدس . وكان على حكمها رجل من آل أيوب ، هو الملك العادل ، وكانت الخطة ، تقتضى محاصرة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقى لدلتا النيل ، فإذا ما إحتلوها يتجهون إلى القاهرة ، مساير بين فرع النيل الشرق .

حصار دمياط :

وبدأوا ينفذون الخطة ، فتحركت جيوشهم إلى مدينة دمياط ، وحاصروها فى صفر ٦١٥ هـ ، وظلت محاصرة إلى سنة ٦١٦ ، وقد حدث أن الملك العادل مات فى هذه الفترة ، فاضطربت الأمور لموته ، مما أدى إلى سقوط دمياط فى أيديهم ، وبعد سقوط دمياط ، استراحت جيوشهم قليلاً ، ثم قرروا متابعة الزحف إلى القاهرة ، لكن الذى حدث فى هذه الأثناء ، أن الملك الكامل ابن الملك العادل ، استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ، فأرسل إلى أخوته أمراء الشام ، ليوحد الكلمة ضد الصليبيين ، واستعد لملاقاتهم .

يقول المؤرخون : استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة ، وصمد لهم هناك ، واستمر القتال محتدماً بين الطرفين ، وخشى الملك الكامل تفوق الصليبيين واحتلالهم القاهرة ، فأجرى معهم مخابرات فى الصلح ، وعرض عليهم تسليم بيت المقدس ، وعسقلان وطبرية ، وجميلة ، واللاذقية ، فى مقابل تسليمهم دمياط والخروج من مصر .

لكن الصليبيين لم يرضوا بهذا ، بل طلبوا زيادة عن ذلك ـــ بتسليم حصن الكرك ، وثلاثمائة ألف دينار تعويضاً عن تخريب بيت المقدس ، وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوض ، وأغراهم عنادهم ، بمهاجمة القاهرة ، وصادف أن كان الوقت زمن فيضان النيل ، فقطع المصريون الجسور ، واندفعت المياة فى الأرض المنخفضة ، التى كان فيها الصليبيون ، فغمرتهم المياه وحصرتهم من كل جانب ، وأصبحوا فى الماء والوحل .

وانتصبت قوات إسلامية فى المنفذ الوحيد ، الذى يمكن للصليبيين الخروج منه ، فأسقط فى أيديهم ، وركنوا إلى الاستسلام ، والخروج من مصر ، والانسحاب عن دمياط بدون مقابل (رجب ٦١٨ هـ ـــ ١٢٢١م) .

فانظر إلى العناية الإلهية ، وتأمل تدبير خالق السماء والأرض ، وكيف أن الأرض ضاقت على المسلمين بما رحبت ، حتى عرضوا على أعداء الله العروض السخية ، فى سبيل أن يوقفوا هذا السرطان ، الذى يسرى فى جسد الأمة ، فيأبى هؤلاء إلا أن يركبوا رؤوسهم ، ولم يكن أحد يعلم المصير الذى ستنتهى اليه .

تلك الحملة إلا الله وحده ، فتكون هزيمة هؤلاء على يد ماء النيل ، بعد ما ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا ، وظن الصليبيون أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، حيث صدرت أوامره الفعالة إلى ماء النيل ، أن يفيض ، فيغرق الجسور ، ويحاصر الأعداء .

أن موقف المسلمين من الحملة الخامسة ، يجب أن نأخذ منه عبرة فى شدة التمسك بحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، فإن أهل الأرض مهما بلغت قوتهم ، وزادت الأسباب المادية فى أيديهم ، فإنهم لن يستطيعوا أن يطاولوا مالك الملك ، الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن **يشاء** ، ويعز ويذل من يشاء .

« الحرب الصليبية السادسة »

إن المنقب فى بطون التاريخ ، إذا ما ألقى نظرة فاحصة على مسيرة الأحداث عبر القرون الخالية ، يجد من الاستعمار الغربى عجباً عجيبا ، فقد تفاقم الصراع بين الغرب الصليبى ، والشرق الإسلامى ، يريد الغرب أن ينتزع بأنيابه الضارية بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ويصر المسلمون على أن يحافظوا على هذا البيت ، وهكذا دارت رحى الحرب ، وحمى وطيسها ، ونحن نقول فى هذا الصدد إن التاريخ أستاذ عظيم ، يلقن الأمم الدروس ، ذات الأثر الفعال ، التى لا تنسى ، والله يقول ﴿ **لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية** ﴾(١)

وما أعظم الدروس التاريخية ، التى يقدمها لنا القرآن العظيم ، والتى تبدو فيها سنن الله واضحة فى أمم خلقه . اقرأ قوله تعالى :

﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾(٢) .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بم كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾(٣)

وليستمر الكتاب العزيز فى بيان هذه الدروس ، يلقنها للأمم ، ويبين حيثيات حكم الله القاطع ، الذى حكم به عليها ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾(٤)

---

(١) الحاقة آية : ١٢
(٢) آل عمران الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨
(٣) النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣
(٤) الحج آية : ٤٥

ثم استمر فى تلاوة هذه الآيات ، لترى القرآن يلقى بلائمة ، وينعى على الذين إذا ساروا فى الأرض ، لا يأخذون من سيرهم عبرة ولا يستخلصون من حال أهلها موعظة ، يقول جل شأنه :

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(1) فياخير أمة أخرجت للناس .

اقرءوا التاريخ ، وكونوا فى قراءتكم معتبرين ، واستخلصوا الدروس ، وكونوا فى دروسه مستبصرين ، ونقبوا فى بطون العبر ، وكونوا فى ذلك مسترشدين ، من قبل أن يأتى يوم لا نملك فيه إلا دموع عيوننا ، وعض بناننا ، ولات ساعة مندم .

لقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى الشرق الإسلامى ، تريد أيضا استنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين ، كما كانت حال الحملات التى سبقتها ، فقد صارت أنياب الغرب شرسه ضارية تأبى على المسلمين أن تكون لهم كلمة فى هذه الأرض المقدسة ، وعلى وجه الخصوص بيت المقدس ، وكانت الحال التى عليها المسلمون ، وقت مجىء هذه الحملة ، تملأ النفس ألماً ، والقلب مرارة ، فأمراء المسلمين فى مصر والشام فى خلاف محتدم .

فالملك الكامل الأيوبى فى مصر ، والملك المعظم فى الشام صاحب دمشق وبيت المقدس ، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط ، قد دبت بين الجميع ، نار العداوة ، وخطر الفرقة ، هذا من جهة .

ومن جهه أخرى ، فإن الزحف التترى ، أخذ طريقة إلى بلاد المسلمين ، كالسيل الجارف ، فقد تدفق المغول بقيادة جانكيزخان ، كأنهم الفراش المبثوث ، أو الجراد المنتشر ، يوجهون الضربات إلى الممالك الاسلامية ، كما يصفهم المؤرخ الأوروبى توماس أونولد فى قوله :

« ولقد انساب التتار على أرض المسلمين ، كما تنساب الثلوج من قمم الجبال »

وسقطت أمام زحفهم مملكة خوارزم شاة ، واستمر زحفهم حتى وصلوا إلى شرق العراق ، فارجع البصر فى هذه الأحداث الجسام ، خلاف محتدم بين الأمراء ، وعدو جبار يزحف من أقصى الشرق وهم التتار ، وآخر يأتى من الغرب ، وهم الصليبيون ، والأرض التى تدور عليها المعركة ، أرض المسلمين ، ترى ماذا تكون النتيجة ؟

كانت نتيجة مؤسفة ومحزنة ، كان الامبراطور الألمانى « فردريك الثانى » هو الذى قاد الحملة الصليبية السادسة ، وساعدته العوامل السابقة ، خصوصا الخلاف المحتدم بين الأمراء ، على أن يسلم إليه بيت المقدس بشروط تجعله مشتركاً ، وهذه الشروط هى :

أ ـــ تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ، على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ، ولا يعاد تجديده وبناؤه ، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمرو) ويكون الحكم فى الرساتيق (القرى) إلى والى المسلمين .

---

(١) الحج آية : ٤٨

ب ـــ يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق ، من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية .

ج ـــ يتعهد فريدريك الثانى بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه ، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ، كما يتعهد الامبراطور بالحيلولة دون الامدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف ، وكان الاتفاق فى ربيع سنة ٦٢٦ هـ . ١٢٢٩م .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذا الصلح ، لم يكن مرضياً منه ، لا من المسلمين ولا من الصليبيين ، وقد استغل أعداء الملك الكامل ، هذا الصلح للتشهير به ، فعقدت المجالس العامة فى دمشق ، وبكى الناس لهذا الحادث واستغله أعداؤه ضده .

وبعد توقيع معاهدة الصلح ، ذهب فردريك إلى بيت المقدس ، وكان يوماً مشئوما وظرفاً عصيبا .

عودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين

لما مات الملك الكامل ، تولى ابنه الملك الصالح أيوب حكم مصر من بعده وكان ذلك سنة ٦٣٧ هـ ـــ ١٢٣٩م وكان حسن التدبير ، يعتبر آخر عظماء سلاطين بنى أيوب ، وكانت له عداوه مع بقية أمراء بنى أيوب ، خصوصاً عمه الملك الصالح اسماعيل ، الذى استولى على دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية .

وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة ، قادمة من فرنسا ، من أشهر رجالها كونت شمبانيا ، وكونت بريطانيا ، فلم يكن من الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية ، وجرت بينه وبين عمه اسماعيل والصليبيين معارك شديدة ، انتصر فيها الملك الصالح أيوب عليهم جميعا سنة ٦٤٢ هـ ـــ ١٢٤٤م ، واسترجع بيت المقدس إلى حظيرة السيادة الاسلامية ، فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار ، وفزعت أوروبا منه ، مما كان داعياً إلى إثارة حرب صليبية أخرى .

ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة :

وهكذا كان بيت المقدس ، قطب الرحى الذى تدور حوله الرحب ، وتستعر أوارها ، جاء الغرب لينزعه من أصحابه الحقيقين ، وهب المسلمون ، ليستعيدوا حقهم فيه ، وهكذا دواليك حتى هب ملك فرنسا لويس التاسع ومعه إخوته الثلاثة ، روبار دارتو الفونس ، وبواتييه ، شارل دانجو وكثير من الأمراء والأشراف ، وتحركت الحملة إلى قبرص ، حيث حطت الرحال بها ثمانية أشهر ، دارت فيها الاتصالات بين الملك والإمارات الصليبية ، واستقر رأيه أخيراً على أن يتحرك قاصدا مدينة دمياط ، التى سبق أن تحركت إليها الحملة الخامسة سنة ٦١٥ هـ ، وحاصرتها عاما ، ثم كان مصيرها الغرق فى ماء النيل .

وكان على ملك فرنسا أن ينظر فى عاقبة من سبق ، ولكن أعماه حقده الدفين على الاسلام والمسلمين ، فحجبه عن رؤية الحقيقة المجردة ، ونسجت أمام عينيه البغضاء ستارا كثيفا من الضباب ، فأصبح لا يرى وشاء الله له النهاية المخزية ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

العقاب .

فى سنة ٦٤٧ هـ أقلعت الحملة الصليبية من قبرص فى اتجاها إلى دمياط ، ولكن عاصفة بحرية ، فرقت سفن الأسطول ، وجعلتها تصل إلى سواحل مصر ، فى فترات متعاقبة ، وقد كانت مراكب لويس التاسع ، أول السفن التى وصلت إلى دمياط فى صفر ٦٤٧ هـ ، وفوجىء سكان دمياط وحاميتها ، بهذا النزول الصليبى ، فاضطربت أحوالهم ودخلهم الرعب ، فأخلوا المدينة ، وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع ، وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء .

ولقد ظل لويس التاسع بمدينة دمياط بعد احتلالها ستة أشهر ، استعدادا للزحف على القاهرة ، وفى هذه الأثناء استعد المسلمون لملاقاته ، وجهزوا جيوشهم لحربه ، يقودهم الملك الصالح ، وتحركوا إلى المنصورة ، حتى يصرفهم عن التوجه إلى القاهرة .

ولكن شاء الله أن توفى الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ . فى شهر شعبان ، وكان له جارية تدعى شجرة الدر ، أخفت موته إلا عن خاصته ، حتى لا يدب الفشل فى صفوف الجيش ، وأخذت تدبر معهم الأمر ، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح ، ريثما يصل ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه ، واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الاسلامي من الفوضى والاضطراب ، أما الفرنسيون فقد تحركوا إلى المنصورة ، واقتحمتها إحدى فرقهم ، ولكن أبيدت عن آخرها ، ودارت الحرب بين الفريقين بضراوة وعنف ، خصوصاً بعد ما قدم الملك تورانشاه بن الملك الصالح ، وشاء ربك أن يقع الفرنسيون فى موقع غاية فى الحرج ، اذا كانوا محصورين بين فرع النيل ، وبحيرة المنزلة ، والبحر الصغير ، ورأى الملك توران شاه بثاقب فكره ، أن يقطع الامدادات التى تأتى من الصليبيين من دمياط ، فنقل سفنا مفككة على ظهور الأبل وأنزلها بفرع النيل ، بين دمياط والعساكر الصليبية ، وبذلك سد عن الصليبيين منفذهم الوحيد ، وجرت بين الأسطول المصرى ، والأسطول الصليبى معارك كبيرة ، انتهت بانتصار الاسطول المصرى والفتك بثلاثين سفينة صليبية ، واشتد الضغط على الصليبيين ، فقل زادهم ، وانقطع مددهم ، فتفشت فيهم الأمراض ، ونالهم الجوع ، وآباد منهم المسلمون نحو ثلاثين ألفاً ، وضاقت الأرض على الصليبيين ، فأخذوا يخابرون فى المصالحة ، على أن يتخلوا عن دمياط ، مقابل استرجاعهم لبيت المقدس .

ولكن توران شاه أبى هذا ، وأيقن الصليبيون بصمود القوات الاسلامية ، فدخلهم الاضطراب ، وعمدوا إلى إخراج أخشابهم وخيامهم ، وتشتت جموعهم ، فذهب معظم الجيش تجاه دمياط ، أما لويس التاسع ، فانه التجأ إلى تل منيه عبد الله قرب المنصورة ، ولما احتوشته القوات الاسلامية ، وأيقن بالهلاك ، طلب

الأمان فأمنه الطواشى محسن الصالحى ، وكان مع لويس التاسع نحو خمسة آلاف جندى ، ثم اقتيد لويس التاسع إلى مدينة المنصورة ، حيث اعتقل فى دار القاضى إبراهيم لقمان ، ووكّل به الطواشى صبيح المعظمى فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

نهاية الحملة الصليبية السابعة .

لما اتجهت بقية الصليبيين إلى دمياط ، سارت إليهم القوات المصرية ، والتقت بهم بفارسكو وهزمتهم ، وانتهت بذلك المقاومة الصليبية ، ثم افتدى الملك لويس التاسع رقبته وبقيه من جيشه ، بغرامة مالية مقدارها خمسمائة ألف من العملة الفرنسية اذا ذاك ، وتسليم دمياط بلاِ قيد ولاً شرط ، واتجه لويس التاسع بعد ذلك إلى عكا ، حيث قضى بها أربع سنوات ، كانت له أثناءها اتصالات بقوات التتر ، الذين أخذوا يغيرون على الشرق الاسلامى ، ويكيلون له ضربات قاسمة ، ترى ماذا كان يفعل لويس التاسع أيام أسره ، لقد أخذ يجول ببصره فى أرجاء الشرق ويقلب الأحداث بين يديه ، وينحل مخزون فكره ، ويقدح زناد رأيه ؟ ما هو العامل البديل عن الحملات الصليبية العسكرية ، التى باءت بالفشل الذريع أمام جيوش المسلمين ؟ كلما فشلت حملة تبعتها حملة أخرى ، تتجرع نفس الكأس ، وتذوق نفس المصير ، وبعد أعمال فكر ، واستخلاص رأى ، وضع لويس التاسع دستورا ، لا يزال الاستعمار الغربى يسير على منهجه ، ويترسم خطاه إلى يومنا هذا واقتضت نصوص هذا الدستور ما يلى : —

١ — القيام بحملات مستمرة فى الدس والوقيعة ، وإذكاء نار الفتنة بين أمراء العرب .

٢ — العمل على السيطرة بشتى الطرق وتنشيط حركات التبشير .

٣ — إثارة الحرب الداخلية والغارات الطائفية .

٤ — إقامة قاعدة تمتد من غزة إلى لواء الاسكندرونة .

وهكذا استطاع ملك فرنسا ، قبل أن يغادر الديار المصرية ، أن يخرج بهذه الحصيلة ، التى يتبع خطاها الاستعمار الغربى فى حربه للإسلام والمسلمين ، فهل غير الاستعمار من هذه المخططات شيئا ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والأحداث تشهد ، أنه ما تغير من هذه المخططات شىء ، إذاً فأين المفر ؟ وكيف الوصول ؟ ومتى النجاة ؟ لا مفر إلا بالرجوع إلى الله ، والوصول أكيد ، اذا ما استيقظت العقيدة فى القلوب ، والنجاة قريبة ، يوم يفيق المسلمون من غفوتهم ، ويستيقظون من كبوتهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[1]

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[2]

---

(١) التوبة آية : ١١٩

(٢) الحج آية : ٤٠

لقد انتهت الحملة الصليبية السابعة ، مخلفة وراءها حملة أخرى ، وهى الثامنة ، ولقد كان من المواقف الجليلة للمماليك ، أن المملوك القائد الظاهر بيبرس ، كرس جهاده دائماً على محاربة الصليبيين ، وتطهير أرض المشرق الاسلامى منهم ، حتى لم يبق لهم بعد موته ، إلا إماراتان هما طرابلس وعكا .

ولقد كان الخطب جسيماً ، والخطر فادحاً ، عندما وقعت الأمة الإسلامية بين خطريين داهمين وطاحنين ، هما الخطر المغولى ، الذى كان يهدد فارس والعراق ، والخطر الصليبى الذى بقى فى طرابلس وعكا ، ولكن حكمة الله بالغة ، وعظمته مطلقة ، فهو منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إليه يرجع الأمر كله ، وله مقاليد السموات والأرض ، ففى الوقت الذى تحالف فيه الصليبيون مع المغول ضد الأمة الإسلامية ، التى لم تفق بعد من ضربات الصليبيين ، واتفق هؤلاء وأولئك عند هدف واحد ، هو القضاء على الاسلام ، نرى فى هذه الظلمات الحالكة ، وفى هذا البحر اللجى ، الذى يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحاب ظلمات ، بعضها فوق بعض ، نرى أن الإسلام العظيم بسره العجيب ، وقوته الذاتية ، يغزو قلوب جماعة من المغول ، عرفوا بتتر القفجاق بزعامة بركة خان ، وفى هذه الأثناء ، نرى الظاهر بيبرس ، يتعاون مع هذه الجماعة المسلمة من التتار ، فتتحد الكلمة كلمة الاسلام ضد التتار ، الذين لم يسلموا ، ويقع الصليبيون فى سوء مادبروا ، بعد ما خيب الله ما كانوا يأملون ، وبعد ما اتحدت الكلمة بين المماليك والتتار المسلمين ، كان فى هذه الوحدة قوة دافعة ، وطاقات كبرى ، جعلت الأحقاد الصليبية، تنقلب على أعقابها .

وفى عهد السلطان قلاوون فتحت طرابلس ، حتى اذا اعتلى ابنه الأشرف خليل عرش مصر ، سقطت مدينة عكا فى أيدى المسلمين سنة ٦٩٠ هـ ــ ١٢٩١م ، وكان سقوطها مسجلاً لنهاية استقرار الصليبية فى البلاد الشامية ، بعد مضى قرنين من الزمان على اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى من سنة ٤٩٠ هـ إلى سنة ٦٩٠ هـ .

وقبل أن ينتهى أمر الصليبيين بالمشرق ، خرجت حملة صليبية من فرنسا ، هى الحملة الثانية « لسان لويز » ملك فرنسا ، وهى الحملة الثامنة من الحملات الصليبية ، التى وجهت نحو البلاد الشامية ، ولكن هذه الحملة بدلاً من أن تتجه إلى المشرق ، حسب القصد الذى دعاها ، فإنها بتوجيهات ملك صقلية ، اتجهت إلى تونس ، ونزلت بمدينة قرطاجنة الأثرية ، وكان على تونس السلطان المنتصر بالله الحفصى ، و لم تجر بين الطرفين معارك ذات بال ، فقد بقى الصليبيون حول قرطاجنه واكتفى الحفصيون بمحاصرتهم ، وصادف أن مات « سان لويز » بإصابته بوباء ، فمال بعد ذلك كل من الصليبيين والحفصيين ، إلى الصلح وعقد اتفاق بين الطرفين ، وأقلع الصليبيون ، ورجعوا من حيث أتوا ... واكتفوا من هذه الحملة بما وقع لهم تحت خرائب مدينة قرطاجنة ، وكانت هذه الحملة الثامنة ، هى خاتمة الحملات الصليبية الغادرة الثمان ، العى اتخذت أرقاما عددية .

اللقاء بين الاستعمار والصهيونية :

ترتبط مصالح الاستعمار الغربى بوجود إسرائيل ، فوجود الاستعمار مرتبط بوجود إسرائيل ، ووجود اسرائيل مرتبط بالاستعمار العالمى ، فكلاهما تلتقى مصالحه ، رغم تفاوت درجات كل منهما .

والحديث فى هذا الموضوع وفى تلك الفترة الحاسمة ، حديث الصراع الدموى العنيف ، الذى يفرض نفسه على صوت الخطر ، الذى هبت ناره ، واندلع فى كل البقاع الاسلامية ، خصوصاً بعد الحرب الثالثة ، التى دارت رحاها بين القوى الصهيونية ، والقوى العربية ، وكان من نتائجها أن دخلت إسرائيل بيت المقدس ، واحتلت أجزاء شاسعة من أرض المسلمين والإسلام ، ولعل ذوى الألباب الهاجرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، يرجعون إلى الحملات الغربية التى تحركت صوب الشرق الاسلامى ، يقودها ملوك أوربا وأمراؤها ، ليستنقذوا بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وظل البيت فى حيرة يغتصبه الصليبيون مرة ، ويستعيدة المسلمون أخرى ، وهكذا قامت اسرائيل بنفس الدور الذى قام به أسلافها من جيوش أوروبا .

يحدثنا التاريخ أنه بعد أن وصل الاستعمار الغربى إلى قمته فى القرن التاسع عشر ، **بدأت تواجهه منذ** نهاية هذا القرن ظاهرة محاولة اليقظة ، لنفض هذا الكابوس الذى جثم على صدر الأمة ، ونخر فى عظامها ، وفت فى عضدها ، وفرق كلمتها ، وشتت شملها ، وأوقد نار الفتنة بين أبنائه ، ولا يخشى الغرب إلا يقظة أهل الشرق ، فدعا هذا الأمر أقطاب الاستعمار الغربى ، للنظر فى شأن الشرق ، واجتمع الأقطاب من بريطانيا وفرنسا والبرتغال — أسبانيا — أيطاليا — هولنده .

وقد كشفت توجيهات تتكون وتتسع ، وتقوى ، ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويداً ، ثم تزول ، والتاريخ ملىء بمثل هذه التطورات ، وهو يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين ، وقبلها بابل وأشور والفراعنة ، وغيرهم ، فهل لديكم أسباب أو وسائل ، يمكن أن تحول دون السقوط والإنهيار ، وتؤخر مصير الاستعمار الأوروبى ، وقد بلغ الآن الذروة ، وأصبحت أوروبا قارة قديمة ، استنفذت مواردها ، وشاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال فى شبابه ، يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ، هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤها وسيطرتنا .

اقتراحات لجنة باترمان : -

وعلى **ضوء هذه التوجيهات**، درست اللجنة ، كيفيه ووسائل المحافظة على الامبراطوريات الاستعمارية ، وانتهت فى تقريرها ، الذى صدر سنة ١٩٠٧م ، وعرف باسم تقرير باترمان إلى مايلى : —

أولاً : استبعاد أى خطر على الاستعمار من المستعمرات الحرة ، مثل كندا ، واستراليا ، وجنوب أفريقيا ، والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو ، والهند الصينية ، لأن المشاكل الدينية والعنصرية والطائفية ، ستشغل هذه البلدان فترة طويلة ، بعد الاستقلال ، والتقليل كذلك من خطر المستعمرات فى إفريقيا والمحيطين الأطلسى والهادى ، بسبب انعزالها .

ثانيا : (وهذا هو الجزء المهم فى التقرير) أن اللجنة ترى أن الخطر على الاستعمار ، يكمن فى منطقة الشرق الأوسط ، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ، ويسكنها شعب ، تتوافر له من وحدة تاريخية ، ووحدة لغته وآماله ، كل مقومات التجمع والترابط ، علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر .

ولذلك ولمواجهة هذا الخطر ، اقترحت اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يلى :

١ ــ السيطرة على البحر المتوسط ، لأنه الشريان الحيوى للاستعمار والجسر الذى يربط بين الشرق والغرب .

٢ ــ استمرار وضع هذه المنطقة المجزأ ، وبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك ، ومحاربة اتحاد هذا الشعب وارتباطه ، بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى .

٣ ــ فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى ، بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب ، فى منطقة الجسر البرى ، الذى يربط آسيا وأفريقيا ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعداوة لسكان المنطقة ،

ونتيجة لهذا المخطط الاستعمارى ، كان طبيعياً أن يحدث اللقاء بين الحركة الصهيونية ، وبين الاستعمار ، فقد وجد الاستعمار أهداف هذه الحركة الصهيونية الحاجز البشرى ، الذى يؤمن له مطامعه ومستقبله فى المنطقة ، ووجدت الصهيونية فى الاستعمار ممثلاً فى بريطانيا السند الذى يمكن أن تعتمد عليه ، لتحقيق مخططاتها .

ولم يجد الاستعمار صعوبة فى التفكير فى اختيار هذا الحاجز البشرى الغريب ، فقد كانت الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت ، تبحث لليهود عن وطن ، يقيمون فيه ، ومن هنا كان اللقاء بين الاستعمار والصهيونية ، وخاصة بعد مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا سنة ١٨٩٧ م . فما هى الصهيونية ؟

من الناحية اللغوية ، فإن كلمة الصهيونية مشتقة من كلمة صهيون ، وهو جبل يشرف على مدينة القدس فى فلسطين ، قدسه اليهود بعد أن بنى الملك سليمان هيكله هناك ، وقد ظلت هذه الكلمة تطلق على حنين اليهود ، وتطلعهم إلى العودة إلى هذا المكان ، بعد تشردهم منه منذ الأسر البابلى ٥٨٦ ق . م ، كما ظلت ترمز إلى تطلع اليهود إلى هذه البقعة ، من أرض فلسطين ، هذا التطلع ، الذى كان يتخذ صورة البكاء على ماضى اليهود ، ومملكتهم القديمة وهيكلهم ، ظلت كذلك كلمة الصهيونية حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث :

١ ــ دعى موريش هتيس ١٨٦٢ إلى اعتبار أورشليم مركزاً لليهود فى كتابه (روما وبيت المقدس) .

٢ ــ وانشئت جمعيات عشاق صهيون فى بروسيا ١٨٨٠ ، ثم توحدت هذه الجمعيات سنة ١٨٨٤ .

٣ ــ ودعا ليوبنسكر ١٨٨٢ إلى ضرورة ايجاد وطن قومى لليهود .

٤ ــ ثم جاء تيودور هرتزل فأصدر سنة ١٨٨٥ كتاب (الدولة اليهودية) الذى طالب فيه بضرورة قيام دولة يهودية .

ولم يكتف هرتزل بذلك ، بل لقد خطا خطوة أخرى عملية ، لتحقيق هدفه ، وذلك بدعوته إلى مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا فى أغسطس ١٨١٧ م .

مؤتمر بال :

يعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر صهيونى عالمى ، وقد اشترك فيه أكثر من ٢٠٠ مندوب ، يمثلون اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وفى هذا المؤتمر صدر تعريف للصهيونية ، بأنها حركة ترمى إلى انشاء وطن للشعب اليهودى شرعى ومعترف به فى أرض فلسطين ، كما حددت أيضا وسائل تحقيق هذا الهدف على النحو التالى :

١ ــ العمل بكل الوسائل على استيطان فلسطين ، بواسطة عمال زراعين وصناعين من اليهود .

٢ ــ تنظيم الشعب اليهودى بواسطة منظمات محلية ودولية ، تلائم الغرض ، وتتفق مع قوانين البلاد ، التى يعيش فيها اليهود .

٣ ــ تقوية الوعى اليهودى القومى .

٤ ــ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضرورى من الدول العظمى .

الصهيونية حركة سياسية عنصرية :

وقبل ان نستطرد فى شرح خطوات تنفيذ قرارات مؤتمر « بال » وتوضيح كيفية التنسيق بين مخططات كل من الصهيونية والاستعمار فى المنطقة ، فلابد من وقفة سريعة لتحديد ماهية الحركة الصهيونية ، وذلك لتجريد هذه الحركة من كل الشعارات الزائفة ، التى حاول قادة الصهيونية إلصاقها بها .

قالوا : إن الصهيونية تحقيق لحق اليهود التاريخى فى فلسطين ، وهذا الحق تكذبه وقائع التاريخ نفسها .

فحكم داود وسليمان الذى بنى عليه الصهيونيون ادعاءهم بحقهم فى فلسطين ، لم يدم أكثر من ٧٣ سنة فقط **(من ٩٢٧ - ١٠٠٠ ق . م)** وحكم اليهود فى فلسطين لم يستمر سوى ٤١٤ عاماً فقط ، ولم يكن هذا الحكم مستقلاً كاملاً ..

هذا بيانها :

١ ــ حكم الرومان هذه البلاد نحو ٦٧٧ سنة .

٢ ــ حكمتها مصر نحو ٦١٥ سنة .

٣ ــ ثم حكمها العرب نحو ٤٤٧ سنة ، وحكمها المسلمون من سلجوقيين ومماليك وعثمانين حوالى ٦٩٨ عاماً ، تضاف إلى حكم العرب فيكون المجموع ١١٤٥ عاماً .

وقالوا : ان الصهيونية رد فعل لاضطهاد اليهود :

وهذا الزعم ترفضه أيضا ، لمبررات كثيرة ، أبرزها أن انبثاق هذه الحركة ، وتبلورها قد جاء فى أعقاب

رياح التحرر والمساواة ، التى كان يمكنها أن تساعد على إذابة اليهود واندماجهم فى المجتمعات ، التى يقيمون فيها ، لو كانت لديهم النية الصادقة لهذا الاندماج ، ولو استطاعوا أن يتخلصوا من خرافة تميزهم عن بقية الشعوب ، وما عرف عنهم من خيانة ، وصفات ذميمة ، ساعدت على نبذهم وعلى تخوف كل الشعوب منهم .

وقالوا أيضا : إن الصهيونية تحقيق لنبوءات اليهودية القديمة فى العودة إلى فلسطين .

والأدلة كثيرة لكشف مدى التضليل فى هذا الزعم ، ولكن يكفى فقط أن الزعماء الصهيونيين وعلى رأسهم هرتزل نفسه ، كانوا مستعدين لإقامة الوطن **القومى** فى أى مكان آخر غير فلسطين .. فى الأرجنتين .. أوغنده ــ قبرص ــ استراليا ــ الإكوادور ــ بيرو .

ونتيجة لما تقدم ، تظهر لنا حقيقة الصهيونية كحركة سياسية عنصرية رجعية ، قامت لخدمة الاحتكارات الاستعمارية ، واستثارت النعرة العنصرية فى **اليهود**، لتضمن ولاءهم الأعمى لها .

وإذا كانت هذه الحركة ، قد فضلت أن يكون الوطن **القومى** لليهود فى فلسطين ، فإن ذلك يرجع إلى دافعين رئيسين :

الدافع الأول :

استغلال الشحنة العاطفية والدينية عند اليهود المرتبطة بالأرض المقدسة ، لتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، وتنفيذ مخططات الصهيونية .

الدافع الثانى :

إدراك الزعماء الصهيونيين منذ الوهلة الأولى ، أن اختيار فلسطين بما لها من موقع استراتيجى ، وأهمية تجارية لوقوعها فى الطريق المؤدى إلى الهند ، والذى كان يعد أهم الطرق التجارية فى العالم القديم ، سيلقى تأييد وتشجيع الدول الاستعمارية ، التى كانت تتحكم فى هذه المنطقة ، والتى كان من مصلحتها أن تساهم فى تنفيذ المخطط الصهيونى لحماية مصالحها ، وهذا ما أوضحه ناحوم جولدمان بقوله فى خطاب ألقاه فى مدينة مونتريال بكندا عام ١٩٤٧ :

(كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا ، أو مدغشقر ، أو غيرها ، ليقيموا فى أى منها وطناً يهودياً ، ولكن اليهود لا يريدون سوى فلسطين ، لا لاعتبارات دينية ، أو بسبب إشارة التوارة إلى فلسطين ، بل لأن فلسطين ، هى ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وافريقيا ، وأنها هى المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية ، ولأنها المركز العسكرى الاستراتيجى للسيطرة على العالم) .

وهذا التفسير يوضح لنا السبب فى تلاق الصهيونية مع مخططات الاستعمار ، التى وضحت فى قرارات لجنة باترمان .

خطوات تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى :

وبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى المشترك ، لإقامة هذا الحاجز البشرى الغريب فى المنطقة ،

وقد تم تنفيذ هذا المخطط على مرحلتين رئيسيتين ، تولت قيادة الأولى منها بريطانيا ، أما المرحلة الثانية فقد تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية .

دور بريطانيا :

بدأت معالم هذا الدور ، تتضح خلال الحرب العالمية الأولى ، ففى الوقت الذى كانت وسائل مكماهون إلى الشريف حسين ، تعد العرب بمنحهم الاستقلال بعد انتهاء الحرب ، كانت بريطانيا تتقاسم مع فرنسا باتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ م السيطرة على بلاد المنطقة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد كان هناك مقابلا قدمته بريطانيا للدور الذى قامت به الحركة الصهيونية ، لمساندة قضية الحلفاء ، والمساهمة فى تمويل الحرب والضغط على الولايات المتحدة ، لدخولها إلى جانب الحلفاء ، هذا الضغط الذى تزعمه اليهودى لويس انديز رئيس المحكمة الأمريكية العليا ، والذى كان الرئيس الأمريكى ويلسون يقتنع بكل ما يشير به عليه .

وكان هذا المقابل ، هو وعد بلفور ، الذى صدر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ والذى أعطت به بريطانيا أرضاً لا تملكها لمن لا يستحقها .

ثم استطاع الاثنان بالقوة والخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحق .

وتناست بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعودها للعرب ، وبدأت تركز كل اهتمامها فى أن تضع وعد بلفور موضع التنفيذ .

ولم يكن غريبا إذاً ، أن تحول بريطانيا مهمة الانتداب على فلسطين ، من تأهيل سكان فلسطين للحكم الذاتى ، إلى التمهيد لقيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

ولم يكن غريباً أيضاً ، أن يكون أول مندوب لها فى فلسطين ، هو الصهيونى هربرت صموئيل ، ولم تجد بريطانيا من الشذوذ أن تكون حصيلة انتدابها على فلسطين هى :

بالنسبة لعدد اليهود :

ارتفع من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٩١٨ م إلى ٦٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٤٧ .

بالنسبة لملكية اليهود للأراضى

ارتفعت من ٢,٥ ٪ سنة ١٩١٨ إلى ٦ ٪ سنة ١٩٤٦ بالاضافة إلى ٤٦ ٪ من أراضى الدولة منحتها بريطانيا للوكالة اليهودية ، بعضها بدون مقابل ، وبعضها بثمن رمزى .

بالنسبة لتمكين اليهود فى فلسطين :

- جعلت بريطانيا اللغة العبرية فى مقدمة اللغات الرسمية فى فلسطين .
- عينت كثيرا منهم فى دوائر الحكومة .
- اشتركت الوكالة اليهودية فى حكم البلاد .

ـــ منحت اليهود كثيرا من الامتيازات للاستيلاء على المراكز الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني .

بالنسبة لتنظيم اليهود عسكريا :

١ ـــ ساعدت بريطانيا اليهود ، على تهريب الأسلحة ، وتخزينها فى المستعمرات .

٢ ـــ كما تولى بعض الاخصائين البريطانيين ، تدريبهم على حرب العصابات .

٣ ـــ وفى ١٩٤٦ بلغ قوات اليهود .

٦٢,٠٠٠ فى جيش الهجاناة لديهم ١٤,٤٥٠ قطعة سلاح .

٦,٠٠٠ فى عصابة الأرجون .

٠,٣٠٠ فى عصابة شتريد .

٢,٠٠٠ فى قوة البوليس .

دور الولايات المتحدة :

أظهرت الولايات المتحدة تأييدها ، لفكرة الوطن القومى لليهود ، منذ صدور وعد بلفور ، وقد استغلت الحركة الصهيونية ، التنافس بين بريطانيا وواشنطن ، فى محاولة كسب ود هذه الحركة ، والتقرب إليها لكى تصل بسهولة إلى تحقيق مطامعها .

وبعد أن استنفدت الصهيونية ، معظم ما كانت تأمل فيه من بريطانيا بدأت تركز نشاطها فى الولايات المتحدة ، بعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وساعدها على ذلك أن الولايات المتحدة ، كانت فى ذلك الوقت ، قد أخذت تتزعم العالم الرأسمالى ، وتبدى اهتمامها بمنطقة الشرق الأوسط ، كما أخذت احتكاراتها ، تتطلع إلى هذه المنطقة ، وخاصة للمشاركة فى عملية نهب البترول العربى ، وقد برز دور الولايات المتحدة واضحاً فيما يلى :

١ ـــ المناورات والضغوط التى تمت فى الأمم المتحدة ، لإقرار مشروع التقسيم ففى الأمم المتحدة وبين جنبات هذه الهيئة الدولية ، بدأت مرحلة جديدة من المناورات ، لخدمة المخططات الاستعمارية ، فقد كان من المقرر ان يطرح مشروع التقسيم على الأمم المتحدة ، للاقتراع فى ٢٦ نوفمبر ، ولكن أجل هذا الاقتراح إلى يوم ٢٩ نوفمبر للخوف من عدم إمكان حصول المشروع على الأغلبية المطلوبة .

وخلال هذه الأيام الثلاثة ، بذلت الصهيونية العالمية كل أساليب الضغط والمناورات ، وركزت كل ثقلها ، لكى تكسب هذه الجولة ، فى هذا المجال الدولى ، وكرست الولايات المتحدة كل جهودها ونفوذها ، للهدف نفسه ، وكانت نتيجة ذلك صدور قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بتقسيم فلسطين بأغلبية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً ، وامتناع دول عن التصويت ، وقد كانت المناورات والضغوط الأمريكية ، محل انتقاد وهجوم ، حتى من بعض الشخصيات الأمريكية ، ويكفى ما قاله الكاتب الأمريكى ميلر بوروز : من أن اقرار التقسيم فى الولايات المتحدة ، يقع على عاتق حكومتنا ، فهى التى فرضت هذه

النتيجة فرضاً ، بعد أن لجأت دون حياء أو خجل إلى اصطناع سياسات القوة ، التى انقضى عهدها ، وكان القرار قاضياً على كل ما للعالم من ثقة بالولايات المتحدة ، والأمم المتحدة نفسها .

٢ ـــ الاسراع فى الاعتراف باسرائيل :

كان طبيعياً أن يثور العرب على قرار التقسيم ، الذى قابله اليهود ، وخاصة بعد أن منحهم النقب ، فأعطى لدولتهم مخرجاً على البحر الأحمر ، كما ضمن لهم امكانيات توسيع رقعة دولتهم ، واستيعاب مزيد من المهاجرين ، وقد كانت نتيجة هذه الثورة ، أن ثار النقاش فى الأمم المتحدة ، حول كيفية تنفيذ قرار التقسيم ، بل لقد ظهر اقتراح جديد بوضع فلسطين تحت الوصاية ، وأحست الصهيونية بخطورة الموقف ، الذى كان محتملا أن يهدد بعض مكاسبها ، التى حصلت عليها من قرار التقسيم ، ولذلك تحركت الحركة الصهيونية بسرعة ، وأجبرت بريطانيا على تقديم موعد انسحاب قواتها من أغسطس ١٩٤٨ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

ـــ وفى منتصف ليلة ١٥ مايو ، أعلن انتهاء الانتداب البريطانى ، وبعدها أعلن قيام إسرائيل ، وكانت الولايات المتحدة أولى الدول التى اعترفت بهذا الطغيان ، والكيان البشرى الغريب ، ومن المفارقات أن يصدر هذا الاعتراف فى الوقت الذى كانت الأمم المتحدة ، تناقش فيه الاقتراح بفرض الوصاية على فلسطين .

٣ ـــ الاشتراك مع بقية القوى الكبرى فى مساندة اسرائيل :

وهذه المساندة ، هى التى مكنت اسرائيل من أن تستأنف الحرب بعد الهدنة الأولى التى (كانت العامل الرئيسى فى انقاذ اليهود والحيلولة دون سحقهم على أيدى الجيوش العربية) كما ذكر الكاتب البريطانى « كينيت بيلبى » رغم كل المعوقات ، التى كانت تحد من حرية هذه الجيوش فى الحركة ، ورغم تآمر الرجعية الحاكمة فى العالم العربى ، ضد قضية فلسطين ، وكانت هذه المساندة أيضا ، هى السبب فى الضغط على العرب ، لعقد اتفاقيات الهدنة الثانية ، ثم كانت السبب فى قبول اسرائيل فى الأمم المتحدة فى ١١ /٥ / ١٩٤٩م وفى هذا التاريخ تحقق ما نادت به لجنة كامبل باترمان ، وانضم إلى المجتمع الدولى كيان غريب ، اشتركت فى إقامة مخططات صهيونية عنصرية ، ومخططات استعمارية رجعية ، وكان ضحية هذه المخططات شعب فلسطين ، الذى شرد أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ ألف من أبنائه ، واغتصب أرضه وممتلكاتهم ، وحرم من وطنه ، ورغم مضى من ٤٠ عاماً على هذه الجريمة ، فما زالت الأمم المتحدة عاجزة عن أن تعيد للفلسطنين حقوقهم ، وأن تجبر اسرائيل على احترام وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة فى هذا الشأن .

وقد استمرت الولايات المساندة إلى تدعيم اقتصاديات اسرائيل ...

فهل تغير الغرب عن الخطوط العريضة ، التى رسمها لويس التاسع ، وهل كف عن اطماعه وعدوانه للشرق ، الواقع أنه لم يتغير ، واذا كان الأمر كذلك ، فواجبنا نحن أن نغير ما بأنفسنا ، حتى يغير الله ما حل بنا حيث يقول :

﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[١]

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[٢] ... أ هـ

تفسير قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين فى سبيل الله أعقبه بجزاء الكافرين فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ قال ابن عباس أى بعداً لهم ، وقال ابن زيد شقاء لهم ، وقيل إن التعس : الانحطاط والعثار ، قال ابن السِّكيت التعس : أى يخر على وجهه ، والنكس أن يخر على رأسه . قال والتعس أيضا الهلاك ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **تعس** عبد الدينار ، والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى » أخرجه البخارى . وفى رواية أخرى « تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » اخرجه ابن ماجه[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأضل أعمالهم** ﴾ أى أبطلها ، لأنها كانت فى طاعة الشيطان كقولة تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾[٤] وكقوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾[٥] ثم يبين سبحانه سبب ذلك الاضلال فقال :

﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ **فأحبط أعمالهم** ﴾ التى عملوها فى الدنيا وأصلاهم سعيراً ، فكل ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال ، فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

---

(١) الرعد آية : ١١١

(٢) محمد آية : ٧

(٣) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ١١٥ كتاب الرقاق ط الشعب وابن ماجه حـ ٢ صـ ١٣٨٥ برقم ٤١٣٥ كتاب الزهد

(٤) الفرقان آية : ٢٣

(٥) محمد آية : ٣٢

دروس وعبر

قال تعالى :

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ
أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ
كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ
أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ
لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)

معانى المفردات

﴿ **كأين من قرية** ﴾ كثير من القرى ، ﴿ **مثل الجنة** ﴾ أى حنقها ، ﴿ **آسن** ﴾ أى متغير الطعم والريح ، لطول مكثه ، ﴿ **مصفى** ﴾ أى لم يخالطه الشمع ، ولا فضلات النحل ، ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، ﴿ **حميماً** ﴾ أى حاراً ، ﴿ **أمعاءهم** ﴾ الأمعاء : واحدها معى ﴿ **بالفتح والكسر** ﴾ وهو ما فى البطون من الحوايا . ﴿ **آنفاً** ﴾ أى : قبيل هذا الوقت ، ﴿ **آتاهم** ﴾ أى ألهمهم ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة ، ﴿ **الإشراط** ﴾ العلاقات ﴿ **فأنى لهم** ﴾ أى كيف لهم ، ﴿ **ذكراهم** ﴾ أى تذكرهم ﴿ **متقلبكم** ﴾ أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ﴿ **ومثواكم** ﴾ أى مأواكم فى الجنة أو النار .

يستهزئون ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهمْ وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ [2] .

ثم يبين سبحانه السبب فى حلول أمثال هذه العاقبة بقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أى هذا الذى فعلنا بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم ، بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته ، فى قوله تعالى : ﴿ **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ لأن المراد به هناك المالك لأمورهم ، المتصرف فى شئونهم . قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد والنبى ﷺ فى الشعب إذ صاح أبو سفيان صخر بن حرب ، رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبى ﷺ ، وعن أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما فلم يجب ، وقال أما هؤلاء فقد هلكوا ، فأجابه عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقال : كذبت ياعدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مُثله لم آمر بها ، و لم تسؤنى ذهب **يرتجـز ويقـول** : اعل هبل اعل هبل . فقال رسول الله قولوا « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ « ألا تجيبوه ؟ » قالوا وما نقول يارسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين أمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد** ﴾[3] وكقوله سبحانه ﴿ **إن الله يدخل الذين أمنوا وعملو الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ أى والذين جحدوا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ، وتمتعوا فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ولا معتبرين بنعم الله فمثلهم مثل البهائم ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غيرهم . وثبت فى الصحيح ﴿ **المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء** ﴾

(١) الروم الآيتان : ٩ ، ١٠
(٢) غافر الآية : ٨٢
(٣) سورة الحج آية : ١٤
(٤) سورة الحج الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم ــ أردف هذا أمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارهم ، لما للمشاهدات الحسية من آثار فى النفوس ، ونتائج لدى ذووى العقول اذا تدبروها واعتبروا بها . ثم يبين سبحانه الفارق بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، فى الاهتداء والضلال فى الدنيا وفى الآخرة ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، وبعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم ــ أردف هذا بيان أحوال المنافقين ، الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ، فيسمعون كلامه ولا يعونه ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه ، واقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال الذين اهتدوا ، ثم عنف أولئك المكذبين ، وذكر أن عليهم أن يرعووا قبل أن تجىء الساعة ، التى بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ ، والذكرى لا تنفع حينئذ ، ثم أمر الرسول بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله ، والاستغفار والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله بكل شىء عليم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾

أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ ، والمنكرون ما أنزلنا من الكتاب ــ فى الأرض فيروا نقمة الله التى أحلها الله بالأمم الغابرة والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ **دمر الله عليهم** ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أى أمثال هذه الفعلة يعنى التدمير ، والهاء فى (أمثالها) تعود على العاقبة ، أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة الأمم السالفة ، إن لم يؤمنوا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها**

---

(١) الأنعام آية : ١١

(٢) الحج آية : ٤٦

ثم قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أى يوم جزائهم ونحو الآية قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، من أهل مكة الذين أخرجوك - أهلكناهم ماذاع العذاب ولم يجدوا ناصراً ولامعينا يدفع عنهم بأسنا وعذابنا فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل فالله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم ان لم ينيبوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم .

أخرج ابن ابى حاتم وابن مردون عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب البلاد الىّ ولولا أن المشركين أخرجونى لم أخرج منك » . فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى على نبيه ﷺ (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم وبما جبله الله عليه من الفطرة السليمة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ ﴾ أى ليس هذا كهذا كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ ﴾[2] وكقوله تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾[3] .

قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب الماء الحار الذى يقطع الأمعاء فقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ أى صفة الجنة التى وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما ستسمونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح ، لطول مكثهاوركودها ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

(١) سورة غافر الآيات : ٦٩ - ٧٦ (٢) سورة الرعد آية : ١٩ (٣) سورة فاطر الآيات : ١٩ - ٢٢

﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أى **وفيها** أنهار من خمر لذيذة لهم ، اذا لم تدنسها الأرجل ، ولم تكدرها الأيدى كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا ، فلا يتكرّهها الشاربون . كما قال سبحانه ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ ﴿ **بيضاء لذة للشاربين** ﴾ . ﴿ **وأنهار من عسل مصفى** ﴾ أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها . قال ابن كثير وفى حديث مرفوع « **ولم** يخرج من بطون النحل » وقال الأمام أحمد عن حكيم بم معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشتقق الأنهار منها بعد » . رواه الترمذى فى صفة الجنة وقال حسن صحيح . وفى الصحيح « اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقوله تعالى : ﴿ **ولهم فيها من كل الثمرات** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ . وكقوله تبارك اسمه ﴿ **فيها من كل فاكهة زوجان** ﴾

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ أى مع ذلك كله ، المغفرة والرضوان كقوله تعالى ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ أى أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء كقوله تعالى : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ فليس من هو فى الدرجات العلى كمن هو فى الدرجات السفلى .

وقوله تعالى ﴿ **وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم** ﴾ أى حاراً شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم فإذا شربوه قطع امعاءهم وأخرجها من دبورهم .

قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ .

روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفا ؟ قال ابن عباس وقد سُئلت فيمن سئل .

ثم يبين سبحانه سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم اليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

وقوله تعالى ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ كقوله تعالى . ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم .. الآية** ﴾ قال القرطبى وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علماً والثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقاً

لنبيهم ، والرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . بقوله ﴿ **واتاهم تقواهم** ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم على تقواه .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعة ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » متفق عليه .

قال الأمام الخطابى رحمه الله : فالنبى ﷺ جعل مثل العالم كمثل المطر ، ومثل قلوب الناس فيه ، كمثل الأرض فى قبول الماء فشبه من تحمَّل العلم والحديث ، وتفقه فيه الأرض الطيبة ، أصابها المطر فتنبت ، وانتفع بها الناس ، وشبه من تحمَّله ولم يتفقه بالأرض الصُلبة التى لا تنبت ، ولكنها تمسك الماء ، فيأخذه الناس ، وينتفعون به ، وشبه من لم يفهم ، ولم يحمل بالقيعان التى لا تنبت ولا تمسك الماء ، فهو الذى لا خير فيه أ هـ .

قوله تعالى ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها** ﴾ أى أنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوة رسوله وأن البعث حق ، وأن الله يهلك من كذب رسله كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التى أهلكها الله لتكذيبها رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يغوهم كل ذلك شيئا ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة اذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

وقوله تعالى ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أى أمارات اقترابها كقوله تبارك اسمه ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة** ﴾ وكقوله جلت عظمته ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ **فبعثة** رسول الله ﷺ من أشراط الساعة . لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله . وقال الحسن البصرى **بعثة** محمد ﷺ من أشراط الساعة وقال البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

ثم قال تعالى ﴿ **فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم ؟** ﴾ أى فكيف للكافرين بالتذكر اذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ .

وقوله عز وجل ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ قال الماوردى وفيه ـــ وإن كان رسول الله ﷺ عالماً بالله ـــ ثلاثة أوجه : يعنى أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . والثانى : ـــ ما علمته استدلالا فاعلمه خبراً يقيناً . الثالث ـــ يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه . أ هـ .

وعن سفيان بن عينيه أنه سُئل عن فضل العلم فقال « ألم تسمع قوله تعالى بدأ به ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال ﴿ **اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ـــ إلى قولة ـــ سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ وقال ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ثم قال بعد : ﴿ **فاحذروهم** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **واستغفر لذنبك** ﴾ قال القرطبى يحتمل وجهين أحدهما ـــ يعنى استغفرا الله أن يقع منك ذنب . الثانى ـــ استغفر الله لعصمك من الذنوب . وقيل الخطاب له والمراد الأمة ، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل أمر بالاستغفار لتفتدى به الأمة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (رواه البخارى)

وفى رواية لمسلم « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

وعن أبن عمر رضى الله عنهما قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة « رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم »[٢] (رواه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح .) .

وعن عائشة رضى الله عنهما قالت « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته « سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب إليه »[٣] .

وفى الصحيح إنه كان يقول ﷺ فى سجوده « اللهم اغفر لى ذنبى كلة دقه وجله وأوله وآخره وعلانيته وسره » رواه مسلم وقال النووى رحمه الله : قوله ﷺ : (اللهم اغفر لى ذنبى كله) مع أنه مغفور له ، فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار لله تعالى .

ـــ وقوله تعالى : ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ أى ولذنوبهم ، وهذا أمر بالشفاعة روى مسلم عن عبد الله بن سرجس المخزومى قال : أتيت النبى ﷺ وأكلت من طعامه فقلت يارسول الله : غفر الله لك ، فقال له صاحبى : هل استغفر لك النبى ﷺ ؟ قال : نعم ، ولك ثم تلا هذه الآية : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه جُمعاً[٤] (وجمع الكف ، وهو أن يجمع الأصابع ويصنمها) .

---

(١) أخرجه الترمذى كتاب الدعوات حـ ٥ صـ ١٥٨ برقم ٣٤٩٥ ط دار الفكر وأبو داود حـ ٢ صـ ١٧٨ برقم ١٥١٦ باب الوتر ط دار الحديث

(٢) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥١ برقم ٢٢٠ / ٤٨٤ كتاب الصلاة وأحمد حـ ٦ صـ ١٨٤

(٣) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ **والله يعلم متقلبكم ومثواكم** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما يعلم متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى الآخرة .

وقال ابن جريج : يعلم تصرفكم فى نهاركم ، ومستقركم فى ليلكم ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾[1] واختار هذا القول ابن جرير ورجح ابن كثير .

من أحوال المنافقين

قال تعالى :

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

معانى المفردات

﴿ **لولا** ﴾ كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، ﴿ **محكمة** ﴾ أى بينة واضحة لا أحتمال فيها لشيء آخر . ﴿ **مرضى** ﴾ أى ضعف ونفاق ﴿ **نظر المغشى عليه من الموت** ﴾ أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره جبناً منه وهلعاً ، ﴿ **أولى لهم** ﴾ أى فويل لهم ،

---

(١) الأنعام آية : ٦٠

﴿ **عزم الأمر** ﴾ أى جد أولو الأمر ، ﴿ **عسى** ﴾ كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، ﴿ **توليم** ﴾ أى توليتم أمور الناس وتآمرتم عليهم . ﴿ **يتدبرون القرآن** ﴾ أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر . ﴿ **ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، ﴿ **سول لهم** ﴾ أى سهل لهم وزين ، ﴿ **وأملى لهم** ﴾ أى مد لهم فى الأمانى والآمال . ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أى يتوفونهم وهم على أفظع الأحوال . ﴿ **أضغانهم** ﴾ أحقادهم ، وتضاغن ا لقوم إذا أبطنوا الأحقاد ﴿ **لأريناكهم** ﴾ أى لعرفناكهم ، ﴿ **سيماهم** ﴾ السيمى : العلامة . ﴿ **لحن القول** ﴾ أسلوبه بإمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ﴿ **ولنبلونكم** ﴾ أى لنختبرنكم .

المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين ، حين استمع آيات التوحيد والحشر والبعث ، وغيرها فيما سلف ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ وقوله : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أردف هذا ، فذكر حالهم فى الآيات العملية ، كآيات القتال والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ، ويرجون نزولها ، واذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشىء من تلك التكاليف ، شق عليهم الأمر ، ثم يبين سبحانه نتيجة لما سلف ، بأنه طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصمهم ، فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم ، فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، ثم يبين سبحانه أن قلوبهم مقفلة ، فلا يتدبرون ما يتلى عليهم ، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر ، بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك ، وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم يبين سبب ارتدادهم ، وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم ، والله يعلم ما يصدر عنهم منكل قبيح ، ثم أردف هذا ذكر ما يصادفونه من الأهوال ، اذا جارتهم الملائكة ، لقبض أرواحهم الخبيثة ، ثم ذكر سبحانه أنه سيوضح لنبيه أمرهم ، وسيكشف أستارهم ، ويبرز أحقادهم ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال ، سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة .

ثم ذكر سبحانه ، أنه يبتلى عباده بالجهاد وغيره ، ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاق التكاليف ﴿ **وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾[1] .

---

(١) العنكبوت آية : ١١

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المخلصين : أنهم تمنوا نزول آيات الجهاد ، حرصاً على ثوابه ورضاه ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة** ﴾ قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾ أى فرض فيها القتال والجهاد فى سبيل الله ﴿ **رأيت الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك ونفاق ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت** ﴾ أى من فزعهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ولعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب ، كانت تفشى المنافقين ، فكان الأمر بالقتال ، يقع على أسماعهم وقع الصواعق ، حتى وصفوا فى القرآن ، بأنهم كانوا ينظرون إلى النبى ﷺ ، كأنهم فى غشية الموت ، ثم يحاولون التملص من القتال ، باختلاق الأعذار ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾[١] وقال تعالى :

﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن**

(١) الأحزاب الآيتان : ١٨ ، ١٩
(٢) التوبة آية : ٨١
(٣) التوبة آية : ٩٤

انفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ فأولى لهم ﴾ قال قتادة : لأنه قال العقاب أولى لهم . وقال الأصمعى : معناه قاربه ما يهلكه ؟ أى نزل .

وقوله تعالى : ﴿ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكانَ خيراً لهم ﴾ أى طاعة لله ، وقول معروف أمثل لهم ، وأحسن مما هم فيه ، من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا ، متاع قليل ، والآخرة خير لمن اتقى . ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ أى فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه ، خوفاً وفرقاً ، ولو صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا النية فى القتال ، لكان خيراً لهم عند ربهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله ، أن تفسدوا فى الأرض ، بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . قال القرطبى وقيل : ﴿ فهل عسيتم ﴾ أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن ، وفارقتم أحكامه ، أن تفسدوا فى الأرض ، فتعودوا إلى جاهليتكم ، لذا حذر الرسول

---

(١) آل عمران الآيات : ١٦٦ ــ ١٦٨
(٢) الفتح الآيتان : ١١ ، ١٢
(٣) النساء الآيات : ٦٦ ــ ٧٠

ﷺ ، أمته من ذلك ، فى حجة الوداع فقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1].

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ أى فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة ، مما شاهدوا من الآيات ﴿ **ينقضون عهد الله** من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[2] .

قال ابن كثير : وفى هذه الآية نهى عن **الإفساد** فى الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك ، عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة قال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم أخذت بعرش الرحمن عز وجل فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فهو لك ، قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾[3] وقال الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب **أحرى** أن يعجل الله تعالى عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم »[4] . ورواه الترمذى وقال حديث صحيح وقال أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لى ذوى أرحام : أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال صلى الله ﷺ : لا ، إذن تتركون جميعا ولكن جد بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك[5] .

وقال أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها »[6] رواه البخارى .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان حـ ١ صـ ٨٢ برقم ١٢٠ / ٦٦

(٢) الرعد آية : ٢٥

(٣) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٦ ، صـ ٧ ط الشعب

(٤) أخرجه أحمد حـ ٥ صـ ٣٦ ، صـ ٣٨

والترمذى حـ ٤ صـ ٧٤ برقم ٢٦٢٩ أبواب صفقة القيامة

(٥) أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٨١ ، صـ ٢٠٨

(٦) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٧ ط الشعب كتاب الأدب .

أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٦٣ ، صـ ١٩٣

وقال الأمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يبلغ به النبى ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »(١) وقد رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبسط له فى رزقه ، أو ينُسأ له فى أثره فليصل رحمه »(٢) رواه البخارى . والأحاديث فى هذا كثيرة . ولا عجب فى أن تكون صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، أو طول العمر ، لأنها صدقة والله تعالى يربى الصدقات ، كما أنها تورث الذكر الجميل بين الناس ، وتورث المنزلة أيضا عند الله لأنها بر ، وما عند الله خير للأبرار .

قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ .

أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله ، التى وعظ بها فى آى كتابه ويتفكرون فى حججه ، التى بينها فى تنزيله ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم ، فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه ، من الصبر والمواعظ . وقال القرطبى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الاسلام ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ أى بل على قلوب أقفال ، أقفلها الله عز وجل عليهم ، فهم لا يعقلون ، قال ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال تلا رسول الله ﷺ يوماً : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها ، حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فمازال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى فاستعان به(٣) .

ولما أخبر سبحانه بإقفال القلوب بين فنشأ ذلك فقال تعالى :

﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم** ﴾ أى أن الذين رجعوا القهقرى ، على أعقابهم كفاراً ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لامر الله — الشيطان زين لهم ذلك ، وخدعهم ، وحسَّن لهم ما فى الدنيا من لذة ، يتمتعون بها إلى حين ، ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه ، التى لا تدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العد ،

---

(١) أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٦٠ ، صـ ٢٩٥
وابو داود حـ ٥ صـ ٢٣١ رقم ٤٩٤١ كتاب الأدب
والترمذى حـ ٣ صـ ٢١١ برقم ١٩٧٢

(٢) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٦ ط الشعب باب من بسط له فى الرزق بصلته .

(٣) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٨٢ ط الدار للبنانية المصرية

قال تعالى : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً** ﴾(١)

ثم ذكر سبحانه كيف أنهم ضلوا فقال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم** ﴾ أى ذلك الضلال من قبل أنهم ما لؤا اليهود من بنى قريظة والنضير ، وناصحوهم سراً على المؤمنين ، كما هو شأن المنافقين فى كل زمان ، والله يعلم ما يسرون وما يخفون . ﴿ **والله يكتب ما يبيتون** ﴾(٢).

ثم ذكر سبحانه أن هذه الحيل إن أجدت فى حياتهم ، فماذا هم فاعلون حين وفاتهم ، فقال تعالى : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أى كيف حالهم اذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح فى أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال تعالى : ﴿ **ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾(٣) الآية وكقوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ــ أى بالضرب ــ** ﴿ **أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾(٤) قال القرطبى قال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه .

ثم يبين سبحانه سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ أى ذلك الهول الذى يرونه ، من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى ، وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا ما يرضى الله من الإيمان به ، والعمل على طاعته ، والاخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ما عملوه من البر والخير ، إذ هم فعلوه وهم مشركون ، فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين ، وإظهار خفاياهم ، وإعلان نواياهم فقال : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرضى أن لن يخرج أضغانهم** ﴾ أى أيعتقد المنافقون ، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذووا البصائر ، وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة ، فيبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره ، قال ابن القيم : أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء ، لا يخفون بها على

---

(١) النساء آية : ١٢٠

(٢) النساء آية : ٨١

(٣) الأنفال آية : ٥٠

(٤) الانعام آية : ٩٣

أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم اذا كتموا كفرهم ، وأظهروا إيمانهم ، راجوا على الصيارف والنقاد . كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرضى أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد ، لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين ، ستراً منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ أى فيما يبدو من كلامهم ، الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين . هو بمعانى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة ، إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلقات لسانه .

قال القرطبى . قال ابن عباس : وقد عرفه إياهم فى سورة « براءة » وقال أنس : ما خفى على النبى ﷺ ، بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؟ كان يعرفهم بسيماهم . ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ أى لا يخفى عليه شيء منها سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ . أى لنختبرنكم بالأوامر والنواهى ﴿ **حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم ، فتعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب ، كقوله تعالى : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين.وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾[2] .

أحكام قاطعة الثبوت

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى

(١) العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣
(٢) العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١

ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ
﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ
ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

معانى المفردات

﴿ **شاقوا الرسول** ﴾ أى عادوه وخالفوه ، وأهله صاروا فى شق غير شقه . ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفاً وإظهاراً للعجز ، ﴿ **الأعلون** ﴾ أى الغالبون ﴿ **والله معكم** ﴾ أى ناصركم ، ﴿ **لن يتركم أعمالكم** ﴾ أى لن ينقصمكوها ، ﴿ **لعب ولهو** ﴾ كل ما اشتغلت به ، مما ليس فيه ضرر فى الحال ، ولا منفعة فى المآل ، ولم يمنعك عن مهام أمورك ، فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهى ، لأنها مشغلة عن غيرها . ﴿ **فيحفكم** ﴾ أى فيجهدكم بطلبها جميعاً ، والإلحاف والإحفاء ، بلوغ الغاية فى كل شيء ﴿ **أضغانكم** ﴾ أى أحقادكم .

المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ، أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال ، حين وفاتهم — أردف ذلك ذكر حال جماعة من أهل الكتاب ، وهم بنو قريظة والنضير ، كفروا بالله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته فى التوارة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضروا الله شيئاً بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم ، وسيحبط الله مكايدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ ، ثم نهى المؤمنين عن إبطال أعمالهم بالمعاصى ، أو الرياء ، أو العجب ، ثم أعقب هذا ببيان أن العادين عن سبيل الله ، إذا ماتوا على كفرهم ، فلن يغفر الله لهم ، وبعدئذ أردف هذا أن الله خاذلهم فى الدنيا ، فإنها ظل زائل ، وعرض غير باق ، وهى مشغلة عن صالح الأعمال ، فلا يليق أن تعضوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم ، يؤتكم أجوركم ، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النذر ، الذى فيه صلاح المجتمع ، وهو عليم بأن البعض يبخل ، ومن يبخل ، فإنما يبخل عن نفسه ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى ، يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه ، الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول ، وحاربوه ، وآذوه ، من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، أنه مرسل من عند ربه — ﴿ **لن يضروا الله شيئاً** ﴾ لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكايدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقه رسوله ، ولا يصلون إلى ما كانوا يبغون له من الغوائل ، وستكون تمزقها إما قتلهم ، أو جلاءهم عن أوطانهم ، والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياها عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعم متابعة الرسول ﷺ والانضواء تحت لوائه قال تعالى : ﴿ **إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال الأمام أحمد بسنده عن أبى العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد . **فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم** . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ ، نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها ، قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[3] فلما نزلت ، كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له[4] .

ولقد نهى سبحانه المؤمنين ، عن إبطال أعمالهم بالربا والعجب والمنّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم**

---

(١) الأنفال آية : ٣٦

(٢) التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

(٣) النساء آية : ٤٨ ، ١١٦

(٤) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٩٤ طبع النهضة الحديثة .

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[١]

وكما فى قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٢] وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[٣] قال هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا** ﴾[٥] قال ابن القيم : وهى الأعمال التى كانت على غير السنة ، أو أريد بها غير وجه الله .

ولقد أخبر ﷺ ، عن أول ثلاثة تُسعر بهم النار : قارىء القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارىء ، فلان شجاع ، فلان متصدق ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، ثم ماتوا وهم على كفرهم ، فلن يعفو الله سبحانه عما صنعوا : بل يعاقبهم ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار ، فى حال قوتكم وكثرة عددكم ، وعنادكم ، ولهذا قال : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة ، بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الأمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل ﷺ ، حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم الله عليه وسلم إلى ذلك ،

---

(١) البقرة آية : ٢٦٤
(٢) الكهف آية : ١١٠
(٣) الملك آية : ٢
(٤) الكهف آية : ١١٠
(٥) الفرقان آية : ٢٣
(٦) البقرة الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢

وقوله تعالى : ﴿ **والله معكم** ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً ، قاله ابن كثير ، وقال صاحب روائع البيان فى هذه الآيات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾

ما نصه :

التحليل اللفظى :

تبطلوا : تضيعوا أثوابها من بطل الشيء يبطل بطلاً وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً ، صدوا : أعرضوا من الصد : وهو الإعراض والصدوف ، قال تعالى : ﴿ **رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾(١) فلا تهنوا : أى لا تفتروا ، ولا تضعفوا ، ولا تجبنوا عن قتال العدو ، من الوهنى أى الضعف فى النفس والعمل ، قال تعالى : ﴿ **فما هنوا لما أصابهم فى سبيل الله** ﴾(٢) .

لن يتركم . أى لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً ، ولن يظلمكم من وتره حقه وماله نقصه إياه وفى حديث النبى ﷺ « من فاتته صلاة العصر فكإنما وتُر أهله وماله »

المعنى الاجمالى

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، مخاطبا إياهم بوصف الإيمان ، تذكيراً لهم بأن هذا الوصف ، يدعوهم إلى طاعة أوامر الله تعالى ، الآية بعد هذا النداء ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، فطاعته هى السبيل إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى سبحانه وتعالى ، فعلى المؤمن أن يتبعه فى كل سنة منها .

ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله ، فقد يقدم أعمالاً كثيرة من الطاعة ، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصى ، والرياء ، والعجب ، إلى غير ما هنا لك ، فنهاه الله عن ذلك ، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات ، ثم يبين الله تعالى ، أنه لا يغفر الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصى ، فقد هلك ، بل فضل الله باق يغفر له بفضله ؟ وإن لم يغفر له بعمله . وإذا كان أمر الكفار فى الآخرة هذا ، فأمرهم فى الدنيا كذلك من الزلة والحقارة ، فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى ملاقاتهم ، ولا تجبنوا عن قتالهم ، فالنصر لكم آجلاً أو عاجلا ، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خورا ، وإظهاراً للعجز ، فإن الله معكم يؤيدكم بنصره ، ويؤيدكم بقوته ، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يعطيكم ثوابها كاملاً غير منقوص .

---

(١) النساء آية : ٦١

(٢) آل عمران آية : ١٤٦

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : قال الفخر الرازى : قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ العطف هنا ، من باب عطف المسبب على السبب ، يقال اجلس واسترح ، وقم وامشى ، لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول » وقال الألوسى : « وإعادة الفعل فى قوله : ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ الآية :

قال الفخر الرازى : يحتمل وجوهاً : أحدها داوموا على ما أنتم عليه ، ولا تشركوا ، فتبطل أعمالكم ، قال تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك** ﴾[١] .

الوجه الثانى : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول ، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم ، بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾[٢]

الثالث : لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾[٣] .

وقد اختلف فيما يبطل الأعمال على أقوال :

قال الحسن : المعاصى والكبائر ، وقال عطاء : الشك والنفاق ، ونقل عن ابن عباس ، وقال ابن عباس : الرياء والسمعة ، ونقل عن ابن جريج ، وقال مقاتل : المنّ ، وقيل : العُجب ، فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب .

وقيل المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى قال القرطبى : وكله يتقارب ، وقول الحسن يجمعه .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ استعمال العلو فى رفعة المنزلة مجاز مشهور ، أى أنتم أعز منهم ، لأنكم مؤمنون ، والحجة لكم ، وإن غلبوكم فى بعض الأوقات ، وذلك كقوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[٤] .

---

(١) الزمر آية : ٦٥

(٢) الحجرات آية : ٢

(٣) الحجرات آية : ١٧

(٤) المنافقون آية : ٨

وقيل وأنتم الأعلون : أى أنتم أعلم بالله منهم .

وقال الحصاص : أى وأنتم أعلم بالله منهم .

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم .

اللطيفة الرابعة : قال الفخر الرازى قوله : ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ وعد لأن الله تعالى لما قال ﴿ **والله معكم** ﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر منى عمل له اعتبار ، فلا استحق تعظيماً ، فقال هو ينصركم ، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ، ومنكم ، فكأنكم مستقلون فى ذلك ، ويعطيكم أجر المستبد .

الطيفة الخامسة : فى الآية الكريمة دعوة إلى العزة والكرامة ، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنضال ، لمجابهة أعدائهم ، دون وهن أو خور ، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان ، وقد أحسن من قال :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : قوله تعالى ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ يدل على أن كل من دخل فى قربة أو نافلة لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها .

واختلف العلماء فى هذا الحكم على مذهبين :

فذهب (الشافعى وأحمد) الى أن للمرء يترك النافلة إذا شرع فيها ، ولا شيء عليه ، ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام . وأما فى الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب .

وذهب (أبو حنيفه ومالك) إلى أنه ليس له ذلك . فإذا أبطله وجب عليه القضاء .

أدلة المذهب الأول :

قالوا : هو تطوع ، والمتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه فخرج عن وصف التطوع قال تعالى ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ .

وقالوا فى جواب الاستدلال بالآية : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأما ما كان نفلاً فلا ، لأنه ليس واجبا عليه .

واللفظ فى الآية وإن كان عاماً ، فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن الفعل تطوع والتطوع يقتضى تخييراً .

أدلة المذهب الثانى :

قوله تعالى ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كنت أنا وحفصه صائمتين ، فأهدى لنا طعام ، فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصه وبدرتنى ، وكانت بنت أبيها : يا رسول الله ، إنى أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا طعام فأفطرنا عليه فقال :

وقال ﷺ « أقضيا مكانه يوماً »[1] رواه مالك والترمذى وأبو داود .

وقالوا فى جواب دليل المذهب الأول : المتطوع أمير نفسه . ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل فوجب أن يؤدى ماالتزم ، وأن يوفى بما عقد ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[2] .

ثم اللفظ عام فى الآية يشمل التطوع وغيره .

الحكم الثانى : قوله تعالى ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم** ﴾ .

فيه دلاله على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين ، فأما إذا كان فى الكفار قوه ، وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين . ورأى الإمام المسلم فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك . كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه الى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك .

فائدة : دل قوله تعالى : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ على أن النبى ﷺ لم يدخل مكة صلحاً . وإنما فتحها عنوة لأن الله تعالى قد نهاه عن الصلح فى هذه الآية . ا .هـ .

قوله تعالى ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ .

يقول سبحانه حاضّا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله ، وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة الدنيا إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبهم فى العمل للآخرة فقال تعالى :

﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أى : وإن تؤمنوا بربكم وتتقوه حق تقاه ، فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه ــ يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعا فى الزكاه ، وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاه مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

---

(١) انظر سنن الترمذى ح ٢ ص ١١٩ أبواب الصوم . باب ما جاء فى ايجاب القضاء عليه . رقم ٧٣١ .
ــ انظر سنن أبى داود ح ٢ ص ٨٢٦ كتاب الصوم . باب من رأى عليه القضاء برقم ٢٤٥٧
ــ انظر موطأ مالك . كتاب الصوم قضاء التطوع . ص ٣٠٦
(٢) سورة المائدة آية ١

ثم يبين سبحانه شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال تعالى :

﴿ **إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾ أى : إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتمنعوها أياه ضناً منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان .

ثم أكد سبحانه ما سلف وقرره بقوله تعالى :

﴿ **هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** ﴾ أى : ها أنتم أيها المؤمنون تدعون الى النفقة فى جهاد أعداء الله ونصره دينه ﴿ **فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ أى : فمنكم من يبخل عن النفقة فى هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائدا إلى نفسه ، كما قال سبحانه فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ قال الأمام النووى دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن فى ذاته عن كل شيء ، وأنه تعالى لا يتأثر بشيء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم يبين أنه مستغن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شيء فقد استغنى عن كل موجود . ثم يبين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾[1] ثم يبين سبحانه أنه مستغنى عن المعين والظهير فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾[2] فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعته المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه و لم يخالفوه لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم عصوه كلهم كمعصية أفجر رجل — إبليس — وخالفوا أمره ونهيه و لم يضره غيرهم ، فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية .

---

(١) الحديث فى الصحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٩٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ .
(٢) سورة الإسـراء الآية ١١١ .

وقوله تعالى ﴿ **وأن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ أى تعرضوا عن طاعة الله وإتباع شرائعه ، ونصرة دينه ، وترتدوا راجعين عنها ، يهلككم الله ثم يجيء بقوم آخرين غيركم وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل لله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾(١) وصفهم المولى سبحانه وتعالى بصفات خمس : الأتباع ــ الذلة للمؤمنين ــ العزة على الكافرين ــ الجهاد فى سبيل الله ــ عدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى . تلك هى شروط العضوية للإلتحاق بالجماعة المؤمنة إنها لشروط مبنية على الحب المتبادل بين الرحمن وعباده ، يحبهم ويحبونه ، كما أن الرضا متبادل بينه تعالى وبينهم ، قال تعالى فى حزب الله : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾(٢)

كما أن الله تعالى رزقهم التواضع فى غير ذل إلا لإخوانهم المؤمنين كما **وصفهم** بالترفع فى غير كبر فهم أعزة على الكافرين ، كما أنه جعل الجهاد خلقهم ، والشجاعة الأدبية ديدنهم وعادتهم منهم لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولأنهم اعتقدوا أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ، وكأنهم يقولون بألسنة الحال والمقال نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ، إن هذه الجماعة المؤمنة كانت ولايتها كما كان ولاؤها لله ورسوله والمؤمنين ، لقد عرفناهم فى المساجد ركعاً وسجودا ، أدوا ما عليهم من واجبات فكانوا جديرين أن ينالوا مالهم من حقوق ، ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾(٣) لقد عرفوا لمن يكن الولاء وممن يكون البراء ، فتابوا وأخلصوا دينهم لله وأصلحوا كل زمان ومكان فكانوا كالبحر الطهور أنساب فى أرجاء الأرض ليغسل أرجاسها وأنجاسها وأدناسها رفعوا راية الإسلام عاليه باذخة الذرى **تناطح** الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء فأخرجوا البشرية من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ومن فلول الدجى وغياهب الظلمات الى نور القرآن وواسع الرحمات ، ابتعثهم الله تعالى ليخرج بهم من شاء من عبادة الأوثان الى توحيد الملك الديان ، ومن جور الإنسان الى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، فكانوا كما قال مولانا ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات**

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .
(٣) سورة المائدة الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾(١)

وكانوا أهلاً للجزاء الكريم ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾**(٢)

فأين أنتم يا أمة الإسلام ، يا من تفرقت كلمتكم وتمزقت وحدتكم فسهل على العدو أن يلتهمكم إننى وان اكتب هذه السطور يحضرنى الآن تلك القصيدة التى اصاغها الشاعر المسلم محمود غنيم وتقول أبياتها :

أنى تذكرت والذكرى مؤرفة ... مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
إنى اتجهت الى الإسلام فى بلد ... تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
وريح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن ... شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقة عين الله تكلؤها ... فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة ... يكيفيه شعب من الأحداث أحياه
من وحّد العرب حتى كان واترهم ... إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة ... من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاه الابل مملكة ... ماساسها قيصر من قبل أوشاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة ... وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لاعرب ولاعجم ... ما لامرىء شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم ... فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا ... أن السلام وأن العدل مغزاه
يا من رأى عمراً تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كسريه فرقا ... من بأسه وملوك الأرض تخشاه
سل المعالى عنا إننا عرب ... شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به ... فالشرق والعناد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده ... ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من ... ضيائه فأصابتنا شظاياه

(١) سورة التوبة آية ٧١
(٢) سورة التوبة آية ٧٢

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهو
أين الرشيد وقد طاف الغمام به فحين جاوز بغداداً تحداه
ملك كملك بنى التاميز ما غربت شمس عليه ولا برق تخطاه
ماض تعيش على أنقاضه أمما وتستمد القوى من وحى ذكراه
إلى لأعتبر الإسلام جامحة للشرق لا بحض دين سنه ا لله
أرواحنا نتلاق فيه خافقة كالنحل إذ يتلاق فى خلاياه
دستوره الوحى والمختار عاهله والمسلمون وإن شتوا رعاياه
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامتلك علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد الى الإسلام سيرته يرعى بينه وعين الله ترعاه

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، فاهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك ، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، أنت الغني ونحن الفقراء إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تخزنا يوم العرض عليك ، وعاملنا بالإحسان إذ الفضل منك وإليك ، نسألك علما نافعا ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .

تفسير سورة الفتح

مقـدمـة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية إجماعاً ..

آياتها : تسع وعشرون .

وكلماتها : خمسمائة وستون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وثمان وثلاثون .

ونواصل آياتها على الألف .

وسميت سورة الفتح ، لقوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : وعد الرسول ﷺ بالفتح والغفران ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد ، وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذى الطغيان ، وصدق رؤيا سيد المرسلين على حقيقة الرسالة ، وشهادة الملك الديان ، وتمثيل حال النبى ﷺ بالزرع والزراع فى البهجة والنضارة وحسن الشأن .

المتشابهات :

قوله ﴿ **ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيماً** ﴾[١] وبعد : ﴿ **عزيزاً حكيماً** ﴾ لأن الأول متصل بإنزال السكينة ، وإزدياد إيمان المؤمنين ، فكان الموضع موضع علم وحكمة ، وقد تقدم ما أقتضاه الفتح عند قوله ﴿ **وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ وأما الثانى والثالث الذى بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم ، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة .

قوله ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً** ﴾[٢] وفى سورة المائدة ﴿ **فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح** ﴾[٣] زاد فى هذه السورة (لكم) لأن ما فى السورة نزلت فى قوم بأعيانهم وهم المخلفون وما فى المائدة عام لقوله ﴿ **أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً** ﴾[٤] .

قوله ﴿ **كذلك قال الله** ﴾ بلفظ الجميع ، وليس له نظير وهو خطاب للمضمرين فى قوله ﴿ **لن تتبعونا** ﴾ .

فضل السورة :

عن ابن عباس : لما نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ « لقد أنزل علىّ سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها » .

[وراه مسلم عن أنس ، كما فى كنز العمال] .

---

(١) سورة الفتح آية ٤
(٢) سورة الفتح آية ١١
(٣) سورة المائدة آية ١٧
(٤) سورة المائدة آية ١٧

مناسبتها لما قبلها :

(١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .

(٢) إن فى كل منهما ذكراً للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين .

(٣) إن فى السورة السالفة أمراً بالأستغفار ، وفى هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

معانى المفردات

(الفتح) المراد هنا صلح الحديبية وسمى هذا فتحاً ، لأن كان سبباً لفتح مكة قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا الى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

(أنزل السكينة) أى : خلقها وأوجدها . والسكينة : الطمأنينة من السكون ، (إيماناً مع إيمانهم) أى : يقيناً مع يقينهم ، (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى : يغطيها ولا يظهرها (السوء) (بالضم والفتح) . المساءة : (وظن السوء) أى : ظن الأمر السوء . (عليهم دائرة السوء) الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، (والسوء) العذاب والهزيمة والشر . (وهو بالضم والفتح لغتان)

وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، (لعنهم) أى : طردهم طرداً نزلوا به الى الحضيض ، (عزيزا) أى : (يتغلب) ولا يُغلب .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصرا عزيزاً** ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة حين منصرفه ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة — وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فلما نحر هديه ﷺ حيث أحصر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ، فقد روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى « أن رسول الله — ﷺ — كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه . فقال : لقد أنزلت علىّ سورة لهى أحب الىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا)»(١) .

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال :« لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) — الى قوله (فوزا **عظيما**) مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحروا الهدى بالحديبية ، قال النبى ﷺ لقد أنزلت علىّ آية هى أحب الىّ من الدنيا جميعا »(٢)

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال أنزل على النبى ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من **ذنبك** وما تأخر) مرجعة من الحديبية قال النبى ﷺ « لقد أنزلت علىّ **الليلة** آية أحب إلىّ مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبى الله يبين الله عز وجل ما يفعل بك

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٦ ص ١٦٨ ، ١٦٩ كتاب التفسير (سورة الفتح) وكذلك ح ٥ ص ١٦١ . ١٦١ كتاب المغازى — صلح الحديبية . ط / الشعب .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١٣ كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية رقم ٩٧ / ١٧٨٦ .

فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار — حتى بلغ — فوزاً عظيما) أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به .(١)

وقوله تعالى ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ قال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التى لا يشاركه فيها غيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا الأخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الاطلاق وسيدهم فى الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها »(٢) فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب الى الصلح قال الله تعالى له ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أى : بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى : بسبب خضوعك لأمر الله تعالى يرفعك الله وينصرك على أعدائك . كقوله تعالى ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ يقول تعالى ﴿ **هو الذى أنزل السكينة** ﴾ أى : جعل الطمائنينة فى قلوب المؤمنين وهم الصحابة — رضوان الله عليهم — يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ يقيناً مع يقينهم . قال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . ثم ذكر سبحانه أنه لو شاء لا نتصر من الكافرين فقال تعالى ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ أى لو أرسل عليكم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لماله فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدافعة ولهذا قال جلت عظمته ﴿ **وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً** ﴾

وفى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس بن مالك : لما قرأ النبى ﷺ على أصحابه ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات .. الآية** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى : خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر برحمته سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين قال تعالى ﴿ **الذى يصلى**

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٦٠ كتاب المغازى — صلح الحديبية — مع حذف فى بعض ألفاظه . ط / الشعب . — انظر مسند الامام أحمد ح ٣ ص ١٩٧ عن قتادة عن أنس . واللفظ له .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بحاشية السندى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾[1]وقوله تعالى ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزا عظيماً** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾[2]الآية وقوله تعالى ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرا ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ .

أى : وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال **الهم والغم** إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وربما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين وبتسليط النبى ﷺ عليهم قتلا وأسراً واسترقاقاً ، وفى الاخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى ﷺ سيُغلب ، وأن كلمة الكفر **ستعلو** كلمة الإسلام ، ومما ظنوا ما حكاه الله بقوله ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ . وقدم ذكر المنافقين على المشركين ، لأنهم كانو أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار المجاهرين لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ، وقوله تعالى ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ أى : عليهم تدور الدوائر ، وسيحيق بهم ما كانوا يتربصون بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم . وقوله تعالى ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً** ﴾ أى : وناهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقوله تعالى ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ قال ابن عباس : جنود السموات : الملائكة وجنود الأرض : المؤمنون . ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ أى : وكان الله غالباً لا يرد بأسه ، حكيما فيما دبره لخلقه .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبى ﷺ :

(١) مغفرة الذنوب . (٢) إجتماع الملك والنبوة .
(٣) الهداية الى الصراط المستقيم . (٤) العزة والمنعة .

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء :

(١) الطمأنينة والوقار . (٢) ازدياد الإيمان .
(٣) دخول الجنات . (٤) تكفير السيئات .

---

(١) الأحزاب الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٢) آل عمران آية : ١٨٥

وجازى الكفار والمنافقين بأربعة أشياء :

(١) العذاب . (٢) الغضب .

(٣) اللعنة . (٤) دخول جهنم .

بيعة الرضوان

قال تعالى :

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا
يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

معانى المفردات

﴿ **شاهداً** ﴾ أى : على أمتلك ، ﴿ **ومبشرا** ﴾ أى : بالثواب على الطاعة ، ﴿ **نذيراً** ﴾ أى : بالعذاب على المعصية ﴿ **تعزروه** ﴾ تنصروه ، ﴿ **توقروه** ﴾ **أى : تعظموه** ، ﴿ **بكرة** ﴾ أول النهار ، ﴿ **أصيلا** ﴾ أى : آخر النهار . والمراد جميع النهار . إذ من عادة العرب أن يذكروا طرف الشيء ويريدوا جميعه . كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا .

﴿ **يبايعونك** ﴾ أى : يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والجهاد فى سبيل الله . ﴿ **إنما يبايعون الله** ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم . ﴿ **نكث** ﴾ أى : نقض ﴿ **أوفى** ﴾ يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبى ﷺ والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه — بما يعمهما معاً ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهدا على أمته ، ومبشراً لها بالثواب ومنذر إياها بالعقاب ، ثم أبان فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه ، غدوة وعشيا ، ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائدا إليه ولا يضرن إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه** ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **إنا أرسلناك شاهداً** ﴾ أى : على الخلق ﴿ **ومبشراً** ﴾ أى : للمؤمنين ﴿ **ونذيراً** ﴾ أى : للكافرين كقوله تعالى ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً** ﴾[1] وكقوله تعالى ﴿ **الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه** ﴾ قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وغير واحد . تعظموه . ﴿ **وتوقروه** ﴾ من التوفير وهو الإحترام والإجلال والإعظام .

قال القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه « الشفا » : فى الباب الثالث :

(فى تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره)

قال الله تعالى ﴿ **إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه** ﴾ وقال ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾[3] وقال ﴿ **يا أيها الذين أمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ الثلاث الآيات وقال تعالى ﴿ **لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** ﴾[4] فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره وألزم إكرامه وتعظيمه ، قال ابن عباس : تعزروه ! تُجلوه وقال المبرء : تعزروه ، تبالغوا فى تعظيمه ، وقال الاخفش تنصروه ، وقال الطبرى تعينونه ، وقرىء تعززوه بزاءيين من العز ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس وغيره وهو اختيار ثعلب ، قال سهل بن عبد الله لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه وأن يفتاتوا بشىء فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمر ولا يسبقوه به ، والى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدى والنووى ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال ﴿ **واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾ قال الماوردى اتقوه يعنى فى التقدم ، وقال

---

(١) سورة الاحزاب الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة هود الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الحجرات آية ١ .

(٤) سورة النور آية ٦٣ .

السلمى اتقوا الله فى أهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ، وقيل كما ينادى بعضهم بعضاً باسمه . قال ابو محمد مكى أى : لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا به بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشراف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبى الله ، وهذا كقوله فى الآية الأخرى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ .

(عادة الصحابة فى تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله)

قال القاضى عياض نسبه عن عمرو بن العاص قال : وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجلّ فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه . وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما(١) ، وروى أسامة بن شريك قال أتيت النبى ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤسهم الطير ، (وقال عروة بن مسعود حين وجَّهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بُصاقاً ولا يتنخم نخامه إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما رجع إلى قريش قال يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه)(٢) وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً .. وقال البراء ابن عازب لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأوخر سنين من هيبته .

واعلم أن حرمة النبى ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم ، كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه ، وسنته وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعزته ، وتعظيم أهل بيته وصاحبته . قال أبو إبراهيم التجيبىُّ واحب على كل مؤمن متي ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ فى هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به . وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر عنده حديث النبى ﷺ خشع ، وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمرهم بالسكون وقال ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ ويتأول أنه يجب من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله ﷺ :ـــ

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٢٧٤ أبواب مناقب رسول الله رقم ٣٧٥٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب / ط الحلبى .
ـــ وانظر مستند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

أغر عليه للنبوة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى الى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى ﴿ **وتسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ أى : تسبحون الله ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى : أول النهار وآخره كما قال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾

أصل البيعة العقد الذى يفقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد والذى التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وسبب هذه البيعة العظيمة أن النبى ﷺ أعلن فى المسلمين أنه يتوجه الى مكة معتمراً — وكان هذا فى شهر ذى القعدة ، آخر سنة ست للهجرة — فتبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربعمائة تقريباً . وأحرم ﷺ فى الطريق وسافر معه الهدى ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائر للبيت ومعظما له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذى الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشير بن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة وسار النبى ﷺ حتى وصل الى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذى كان قد أرسله ، فقال له : إن قريشا جمعت لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت وما نعوك ، فقال اشيروا أيها الناس . فقال له أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه قال : امضوا على اسم الله[٢] .

ثم قال : من رحل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال له رجل من بنى أسلم : أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقا وعراً بين الشعاب وسار النبى ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا فى ثنيه المرار (وهى طريق فى الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس : حل ، حل (اسم صوت كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ما خلأت ، وما ذاك لها بخلق — ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على صغيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش فإنتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صاروا عنه[٣] ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب — رضى

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٤١ ، ٤٢
(٢) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٣ ص ٤٥ . باب عزة الحديبية .
(٣) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ . باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

الله عنه ــ لبعثه إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله أنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بنى كعب من يمنعنى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان تبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فخرج عثمان ــ رضى الله عنه ــ إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاصى حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان ــ رضى الله عنه ــ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان ــ رضى الله عنه ــ حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين إن عثمان ــ رضى الله عنه ــ قد قتل فقال ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم »[1] ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت[1] فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين الى الموادعة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح ومشى **بعضهم** إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ فى العام القابل ويدخل مكة .. فقوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ أى : إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ، إنما يبايعون الله بيعتهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك قال تعالى ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ وقال ﷺ فى الحديث الصحيح « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ، قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »[2] .

وقوله تعالى ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ **إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[3] .

وقوله تعالى ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضر إلا نفسه .

وقوله تعالى ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ أى : ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، سيدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ح ٣ ص ٧٨٠ باب بيعة الرضوان

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٩ ص ١١٤ كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب الإقتدار بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١

مواقف لبعض الأعراب

قال تعالى :

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

معانى المفردات

(المخلفون) واحد مخلف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه ، (ضراً) المراد : ما يضر من هلال الأهل والمال وضياعهما ، (نفعاً) المراد به : ما ينفع من حفظ المال والأهل . (ينقلب) أن : يرجع . (إلى أهليهم) أى : عشائرهم وذوى قرباهم (بوراً) أى : هالكين (سعيراً) أى ناراً مسعورة موقدة ملتهبة . (الى مغانم) المراد بالمغانم هنا مغانم خيبر ، فإنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة . (يريدون أن يبدلوا كلام الله) المراد بتبديل كلام الله الشركة فى المغانم دون أن ينصروا دين الله ويعلوا كلمته ، (يفقهون) أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فمنهم لأمور الدنيا دون أمور الدين . (البأس) النجدة وشدة المراس فى القتال ، (الحرج) الإثم والذنب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم وأعد لهم سعيرا ـــ أردف ذلك قبائل من العرب تخلفوا عن رسول الله ﷺ لما استنزفهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حربا ، وأعتلوا بأن أموالهم وأهلهم قد شغلتهم ففضحهم الله فى هذه الآيات وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة تطلع على الأفئدة . ثم أخبر سبحانه أنهم سيقولون دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم ولو كانت التعلة السالفة حقاً ما طلبوا السير معه بحال فبين سبحانه كذبهم فى هذه المعذرة وأنهم لا يخرجون إلا للدنيا فقط . ثم أردف ذلك بيان أن باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم ، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء فى ميدان القتال فاستعدوا فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس شديد ، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم ، فإن اجبتم داعى الله أنابكم ما فعلتم جزيل الأجر ، وأن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون العذاب الأليم . ثم ذكر سبحانه الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد . ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يطرأ ويزول كالمرض رغم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ونار موقدة فى الأخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا وترك ما يقربه من ربه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا رسوله ﷺ مما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين أختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لاعلى سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ وهذا هو النفاق المحض ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاًإن أراد بكم ضراً** ﴾وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع ، ويبين سبحانه أنه العليم بسرائرهم وضمائرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيراً** ﴾ فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ أى لم يكن تخلفكم تخلف معذورا ولا عاص بل تخلف نفاق فاعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته ، وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين

على أعدائهم ، ﴿ **وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ وقد صرتم بما قلتم قوما هلكى لا تصلحون لشيء من الخير ، مستوجين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعده للكافرين به فقال : ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيرا** ﴾ أى : ومن لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر .

ثم يبين تعالى أنه الحاكم المتصرف فى أهل السموات والأرض فقال تعالى ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيماً** ﴾ أى : وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين منهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله ـــ ﷺ ـــ وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

قوله تعالى : ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾ .

هذا أخبار من الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ إلى خيبر يفتحونها ـــ أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم **فأمر الله تعالى رسوله ﷺ** أن لا يأذن لهم فى ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرا ولهذا قال تعالى ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ قال مجاهد وقتادة وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية . وقال ابن جريج (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعنى بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد . (قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم (فسيقولون بل تحسدوننا) أى : أن نشرككم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً** ﴾ .

أى : قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية (الذى تقدم ذكرهم إنكم يتفدون الى قتال قوم أولى بأس شديد) قال ابن عباس : ومجاهد : هم فارس وقال كعب والحسن : الروم وقال ابن جبير : هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنين أهل اليمامة أصحاب مسليمة والمراد قل لهؤلاء المحلفين الذين تقدم ذكرهم ـ إنكم ستفدون الى قتال قوم من اول البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : أما السيف وإما الاسلام ، وهذا حكم عام فى مشركي العرب والمرتدين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله تعالى ﴿ **فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً** ﴾ أى : فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه ـــ يؤتكم ربكم الأجر الحسن ، والثواب الجزيل ، فتنالوا المغانم فى الدنيا ، وتدخلوا الجنة فى الآخرة . ثم أوعد سبحانه من نكص على عقبة بقوله ﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما** ﴾ أى : أن تعصوا ربكم وتخالفوا أمره ، فتتركوا قتال أولئك القوم إذا دعيتم إلى قتالهم كما عصيتموه فى أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالذلة فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .

ثم ذكر سبحانه الأعذار فى ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذى يطرأ أياماً ثم يزول فهو فى حال مرضه يلحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ فقال تعالى :

﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليما** ﴾ .

قال ابن عباس : لما نزلت (وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) قال أهل الزمالة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى : لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد .

ثم قال تعالى : مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وقوله ﴿ **ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً** ﴾ أى : ومن ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش (يعذبه عذاباً أليما) فى الدنيا بالمذلة وفى الآخرة بالنار كما قال تعالى ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير** ﴾[1] .

وأخرج الامام أحمد فى سنده عن ابن عمر ـــ رضى الله عنه ـــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا حتى ترجعوا إلى دينكم »[2] .

(١) سورة التوبة آية ٣٩

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ح ٣ ص ٧٤٠ ، ٧٤١ كتاب البيوع باب فى النهى عن العينة رقم ٣٤٦٢ . واللفظ له .
ـــ انظر مسند أحمد ح ٢ ص ٤٢ ، ٨٤ عن ابن عمر مع اختلاف فى اللفظ وتقديم وتأخير .

بيعة الرضوان وصلح الحديبية

قال تعالى

* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

معاني المفردات

(السكينة) : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، (فتحاً قريبا) : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية ، (مغانم كثيرة) : هي مغانم خيبر (عزيزاً) أي : غالباً (حكيما) أي : يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه . (فعجل لكم هذه) أي : مغانم خيبر (أيدى **الناس**) أي : أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها الى الحديبية (آية) أي : أمارة للمؤمنين يعرفون بها[1] صدق الرسول ﷺ[2] حياطة الله لرسوله وللمؤمنين[3] معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستعمهم أيضا ماداموا على الصراط المستقيم . (وأخرى) المراد مغانم فارس والروم ، (أحاط الله بها) أي : أعدها لكم وهى تحت قبضته يظهر عليها من أراد (لولوا الأدبار) أي : لا نهزموا ، (سنة الله) أي : سن سبحانه

غلبة أنبيائه كقوله ﴿ **لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ ، ﴿ **أيديهم عنكم** ﴾ أى : أيدى كفار مكة ، ﴿ **وأيديكم عنهم ببطن مكة** ﴾ يعنى بالحديبية ﴿ أظفركم عليهم ﴾ أى : أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم (الهدى) قرباناً لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ﴿ معكوفاً ﴾ أى : محبوساً ، (محله) أى : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى . (الوطء) المراد به الإهلاك ، (والمعرة) المكروه والمشقة ﴿ **التنزيل** ﴾ التفرق والتميز ، ﴿ الحمية ﴾ الأنفة ﴿ **حمية الجاهلية** ﴾ حمية فى غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان (كلمة التقوى) هى لا إله إلا الله ﴿ **وأهلها** ﴾ أى : المستأهلين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال المخلفين فيما سلف ــ عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ فأبان رضاه عنهم لأجل تلك البيعة لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم أخرج البخارى عن سلمة قال : « بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل على أى شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت »[1] وعن جابر أن النبى ﷺ قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »[2] أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

ثم وعدهم سبحانه بمغانم كثيرة من خيبر بعد عودتهم من الحديبية **وسيؤتيهم** سبحانه مغانم أخرى من فارس والروم وغيرهما ما كانوا يقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر سبحانه أنه لو قاتلهم أهل مكة ولم يصالحوهم لانهزموا ولم يجدوا ولياً ولا نصيرا يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة الكافرين وخذلان الكافرين . ثم أمتن على عباده المؤمنين بأنه كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والأخرة . ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والأثم ــ لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب لأهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل **دخولها** ، وليمنعَّ الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذب الذين كفروا منهم عذاباً أليما بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٣ ص ٤٤ باب غزوة الحديبية . ط / الحلبى .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة رقم ١٦٣ / ٢٤٩٦ .

ــ انظر مسند احمد ح ٣ ص ٣٥٠ مسند جابر .

ــ انظر سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٥٠ ابواب المناقب باب فضل من بايع تحت الشجرة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم كلمة التقوى وكانو أحق بذلك من غيرهم **إذ** اختارهم الله لدينه وصحبة نبيه ﷺ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة .

قال ابن الى حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس : قال فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ قال فبايع رسول الله ﷺ لعثمان - رضى الله عنه - بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف بالبيت حتى أطوف »[1]

وقوله تعالى : ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ أى : من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ وهى الطمائنينة . ﴿ **وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمر خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

قوله تعالى : ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً** ﴾ .

قال ابن كثير : قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ هى جميع المغانم إلى اليوم ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى فتح خيبر ، وروى العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (**فعجل لكم هذه**) يعنى صلح الحديبية (وكف أيدى الناس عنكم) أى : ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدى الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم ، من عيالكم وحريمكم (ولتكون آية للمؤمنين) أى يتعبرون بذلك فإن الله تعالى حافظهم ، وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم ، أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين ،

---

(١) انظر كنز العمال ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٣٠١٥٢ .

وإن كرهوه فى الظاهر ، كما قال تعالى ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم** ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ **ويهديكم صراطا مستقيما** ﴾ أى بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله — ﷺ — .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحاً آخر ومعينا لم تكونوا قادرون عليها قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة **فما** المراد بها فقال العوفى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى خيبر ، وقال قتادة هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى هى فارس والروم ، وقال مجاهد هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيمامة .

قوله تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ يقول عز وجل مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبرا لا يجدون ولياً ولا نصيراً وهذه سنة الله وعادته فى خلقه كقوله تعالى ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(٢) وكقوله تعالى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾(٣) .

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ .

هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيره للمؤمنين وعافية فى الدنيا والآخرة .

وروى الترمذى عن ثابت بن أنس « أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ **وهو الذى كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ قال الترمذى هذه حرف حسن صحيح(١) .

وقول تعالى ﴿ **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٢) سورة غافر آية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة آية ٢١ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٥٢ إبواب التفسير سورة الفتح رقم ٣٣١٧ وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالاهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ **هم الذين كفروا** ﴾ أى هم الكفار دون غيرهم ﴿ **وصدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر . ﴿ **والهدى معكوفا أن يبلغ محله** ﴾ وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدى سبعين بدنه . روى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله ﷺ بدنه وحلق رأسه قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خراش بن أميه الخزاعى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلّوا ، ففعلوا بعد توقف كان معهم أغضب رسول الله ﷺ فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحرو ، فنحر رسول الله ﷺ هديه ونحروا بنحره وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة[1] وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة[2] .

قوله تعالى ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما** ﴾ أى : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفه على أنفسهم من قومهم لكنا سلّطْناكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لاتعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى ﴿ **لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة** ﴾ أى : إثم وغرامة (بغير علم) قال القرطبى فى قوله تعالى ﴿ **بغير علم** ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدى ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد .

وقوله تعالى ﴿ **ليدخل الله فى رحمته من يشاء** ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ، أى : لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ويجوز أن تتعلق بالإيمان وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ، أى : جنته .

وقوله تعالى ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذى يكفروا منهم عذاباً أليما** ﴾ أى : لو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

---

(١) انظر صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٢ كتاب الشروط فى الجهاد والصحيح والصلح مع أهل الحرب
ــ وانظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .
ــ وانظر سنن ابن ماجة ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك رقم ٣٠٤٤
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الحج باب الاستدراك فى الهدى ح ٢ ص ٩٥٥ حديث ٣٥٠ / ١٣١٨ من رواية عن جابر والحديث بلفظه .
ــ وانظر سنن الترمذى « كتاب الحج » باب الاستدراك فى البدنه والبقرة ح ٢ ص ١٩٤ حديث رقم ٩٠٦ عن رواية لجابر والحديث بلفظه .

وقوله تعالى ﴿ **إذا جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾ .

قال الزهرى حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة ، فحدث الزهرى أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا ائت محمداً فصالحه ، ولا تلن فى صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٢ فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ... ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ « اكتب باسمك اللهم » هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو[1] وقوله تعالى ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهى قول لا إله إلا الله .

قال ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة — رضى الله عنه — أخبره أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل »[2] ، وأنزل الله عز وجل فى كتابه وذكر قوماً فقال ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ وقال جل ثناؤه ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ **وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة . . .**

(قال ابن كثير هذه الزيادات الظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى والله أعلم) .

وقوله تعالى ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى : كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ **وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾ أى : هو سبحانه عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ج ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط والصلح مع أهل الحرب . ط الحلبى .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأ بقتال الناس حتى يقول لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ ، ٣٣ / ٢١ .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى ﷺ فقلت ألست بنبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطى **الدنية** فى ديننا إذن ؟ قال إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى ؛ قلت فلم نعطى **الدنية** فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى : أفأخبرك أنه آتيه العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتيه وتطوف به »(١) ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان ثم أردف هذا بيان حال الرسول وأصحابه الغر الميامين ، فوصفهم كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم ، وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ .

يقول ابن كثير : كان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع فى نفس بعض الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ من ذلك شيء . حتى سأل عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال لا ، قال النبى ﷺ « فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق ــ رضى الله عنه ــ أيضا خذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله** ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء فى شيء .

وقوله عز وجل ﴿ **آمنين** ﴾ أى : فى حال دخولكم . وقوله ﴿ **محلقين رؤسكم ومقصرين** ﴾ حال مقدرة لأنهم فى حال دخوهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا فى ثانى الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ « والمقصرين » فى الثالثة أو الرابعة(١) .

---

(١) أنظر صحيح البخارى بهاشية السندى ح ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبى .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج . باب تفصيل الحلق على التقصير رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .
ــ أنظر سنن ابن ماجة ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك . باب الحلق رقم ٣٠٤٤ .

الرسول وصحبه

قال تعالى

لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

معانى المفردات

(محلقين رءوسكم ومقصرين) أى : يحلق بعضكم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، (ليظهره على الدين كله) أى : ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها (أشداء) واحدهم شديد (رحماء) رحيم (فضلاً) ثواباً (سيماهم) السيماء من السومة (بالضم) وهى العلامة . (مثلهم) وصفهم (الشطء) فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أى : جانبيه وجمعه أشطاء وشطأ الزرع : إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، (آزره) أعانه وقواه وأصله من المؤازره وهى المعاونه ، (استوى على سوقه) أى : استقام على قصبه وأصوله والسوق واحدها ساق .

المناسبة وإجمال المعنى

قال قتاده :

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ، فاخبر بذلك ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا لم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : إين رؤياه التي رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

وقوله تعالى ﴿ **لا تخافون** ﴾ حال مؤكدة فى المعنى فأثبت لهم الأ من حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع الى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبى طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعرى وأصحابه — رضى الله عنهم — ولم يغب منهم أحد **قال** ابن زيد إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه ، ثم رجع إلى المدينة . فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية فأحرم من ذى الحليفة وساق معه الهدى ، قيل كان ستين بدنه ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديدا وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين فذهبوا فأخبروا أهل مكة فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم بعث السلاح من القسى والنبل والرماح الى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها كما شارطهم عليه فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن صفحى فقال يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ؟ فقال ﷺ « وماذاك ؟ » قال دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح ، فقال ﷺ « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال بهذا عرفناك بالبر والوفاء وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظرون إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه — رضى الله عنهم — غيظاً وحنقاً وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبون والهدى قد بعثه إلى ذى طوى وهو راكب ناقته **القصواء** التى كان راكبها يوم الحديبية وعبد الله بن رواحه آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه ... باسم الذى محمد رسولـه
خلوا بنى الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويلـه
كما ضربنـاكم على تنزيلـه ... ضرباً يزيل الهام عن مقيلـه
ويذهل الخليل عن خليلـه ... قد أنزل الرحمن فى تنزيلـه
فى صحف تتلى على رسولـه ... بأن خير القتل فى سبيلـه

يارب إنى مؤمن بقيله

وقال ابن إسحاق : وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه فى عسرة وجهد وشدة : . قال : فصف له المشركون عند دار الندوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمين ثم قال : « رحم الله أمرا أراهم اليوم

من نفسه قوة »[١] ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه ، حتى هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها قال . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم (أى ليست سنة عامة) وذلك أن الرسول إنما صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها .

وقوله تعالى ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ أى : فعلم الله عز وجل من الخيره والمصلحه فى **صرفكم** عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ **فجعل من دون ذلك** ﴾ أى : قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ فتحاً قريباً وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تبارك اسمه مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** ﴾ أى : هو سبحانه الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليعليه على كل الأديان ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لا محالة .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[٢]

المستقبل للإسلام

كتب الشيخ نصر الدين الألبانى تحت هذا العنوان ما نصه :

قال الله عز وجل ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها ، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق فى عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين ، وليس كذلك ، فالذى تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق ، كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ بقوله « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنت لا أظن حين أنزل الله ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون** ﴾ أن ذلك تماماً ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ح ٣ ص ٨٢٧ عمرة القضاء .
(٢) سورة الصف آية ٩ .

قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله .. »[1] الحديث رواه مسلم وغيره .

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالا للشك فى أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه ، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببا لشحذ همم العاملين للإسلام ، وحجة على اليائسين المتواكلين .

الحديث الأول : قال ﷺ « إن الله ذوى (أي جمع وضم) لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ... »[2] الحديث رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

والحديث الثانى : قوله ﷺ « ليبلغنى هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به دين الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر[3] رواه الجماعة .

الثالث : « عن أبى قبيل قال كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص وسئل أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ (مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى قسطنطينية)[4] رواه أحمد والدرامى وصحح الحاكم ووافقه الذهبى وهو كما قال : (ورومية) هى روما كما فى (معجم البلدان) وهى عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على محمد الفاتح العثمانى ، كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من أخبار النبى ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولا بد ، (ولتعلمن نبأه بعد حين) .

ولا شك أيضا أن تحقيق الفتح الثانى يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة وهذا مما يبشرنا بقوله ﷺ فى الحديث الرابع :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها ما شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ملكاً جبرياً فتكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[5] ذكره حذيفة مرفوعاً ، رواه الحافظ العراقى من طريق أحمد وقال هذا حديث صحيح .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٣٠ كتاب الفتن . باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخصلة برقم ٥٢ / ٢٩٠٧ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن وأشراط الساعة . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . رقم ١٩ / ٢٨٨٩

ــ انظر سنن أبى داود ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الفتن والملاحم . باب ذكر الفتن ودلائلها . رقم ٤٢٥٢ .

ــ انظر سنن الترمذى ح ٣ ص ٣١٩ كتاب الفتن باب سؤال النبى ﷺ ثلاث فى أمته . رقم ٢٢٦٧ . وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٠٣ ابن عامر عن تميم الوارى .

(٤) الحديث فى مسند أحمد ح ٢ ص ١٧٦ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص .

ــ انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . ح ٤ ص ٥٥٥ كتاب الفتن والملاحم .

(٥) الحديث فى مسند أحمد ح ٤ ص ٢٧٣ مسند حذيفة .

هذا وإن من المبشرات بعودة القوة إلى المسلمين واستثمارهم الأرض استثماراً يساعد على تحقيق الغرض وتنبىء عن أن لهم مستقبلاً باهراً حتى من الناحيتين الإقتصادية والزراعية قوله ﷺ :

« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »(١) رواه مسلم .

وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق فى بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء ، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة ، كنا قرأناها فى بعض الجرائد العلمية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود ، وإن غداً لناظره قريب .

هذا ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ « لا يأتى عليك زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم »(٢) رواه البخارى فى باب الفتن .

فهذا الحديث ينبغى أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث الهدى ونزول عيسى بن مريم ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه فيقعوا فى اليأس الذى لا يصح أن يتصف به المؤمن (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أ .هـ .

قوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ « محمد » مبتدأ « ورسول » خبره وقيل « محمد » ابتداء « ورسول الله » نعته ﴿ **والذين معه** ﴾ أصحابه الكرام الغر الميامين ﴿ **أشداء على الكفار** ﴾ أى : غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ أى : يرحم بعضهم بعضاً فهم متعاطفون متوادون .

وقوله تعالى ﴿ **تراهم ركعاً سجداً** ﴾ أخبار عن كثرة صلاتهم وإرضائهم لربهم ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضوانا** ﴾ وهذا إخبار عن إخلاصهم منهم يطلبون بأعمالهم الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ السيما : العلامة ، أى لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر . وقد روى « من كثرث صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »(١) قال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة وفيه « ... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته ممن أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة « باب الترغيب فى الصدقة » ج ١ ص ٧٠١ حديث رقم ٦٠ / ١٥٧ فقد ورد الحديث فى حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب القيم باب لا يأتى زمان إلا الذى بعده شر منه » ج ٩ ص ٦١ ؛ ٦٢ فقط ورد الحديث فى حديث طويل لأنس .

النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ، فيعرفونهم من النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود »[٢] .

وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السمت الحين وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع .

قال منصور : سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿ **سيماهم فى وجوههم** ﴾ أهو أثر يكون بين عينى الرجل ؟ قال : لا ربما يكون بين عينى الرجل مثل رُكبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع .

وقوله تعالى ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل ؟ فيوقف على هذا ، على « التوراة » ويكون تمام الكلام ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ ثم ابتدأ فقال ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ وقال مجاهد : هو مثل واحد ، يعنى ، أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ويبتدىء ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ على معنى وهم كزرع .

وقوله تعالى ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

قال القرطبى : هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبى ﷺ يعنى أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبى ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره ، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالاً بعد الحال حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فكان هذا من أصلح مثل وأقوى بيان . وقال قتاده : مثل أصحاب محمد ﷺ فى الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

(فآزره) أى : قواه وأعانه وشده ، أى : قوىّ الشطء الزرع وقيل بالعكس ، أى : قوىّ الزرعُ الشطء .

وقوله ﴿ **فاستغلظ فاستوى على سوقه** ﴾ أى : على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقا له .

وقوله تعالى ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى : يعجب هذا الزرع زرّاعه وهو مثل كما بينا ، فالزرع محمد ﷺ والشطء أصحابه ، كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقووا ، قاله الضحاك وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ، أى : فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

وقوله تعالى ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم** ﴾ أى : وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة ﴿ **مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ أى : ثوابا لا ينقطع وهو الجنة .

وليست « من » فى قوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسّة ، مثل قوله تعالى ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾[1] لايقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى ، والربا ، وشرب الخمر والكذب . فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » أى : هذا الجنس ، يعني جنس الصحابة .

مكانة الصحابة فى الإسلام

روى أبو عروة الزبيرى عن ابن الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك بن أنس هذه الآية ﴿ **محمد رسول الله والذين معه** ﴾ حتى بلغ ﴿ **يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .

قال القرطبى : لقد أحسن مالك فى مقالته **وأصاب** فى تأويله . فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه فى روايته فقد ردَّ على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار** ﴾ الآية .

وقال ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[2] وقال ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا** ﴾ إلى قوله ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾[3] ثم قال تعالى ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾[4] وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله ﷺ « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم »[5] وقال « لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » أخرجها البخارى[6] .

---

(١) سورة الحج آية ٣٠

(٢) الاحزاب آية : ٢٣

(٣) سورة الحشر آية ٨

(٤) سورة الحشر آية ٩

(٥) الحديث فى صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١٠٢ كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور . ط / الحلبى .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٠ كتاب الفضائل باب أبى بكر ط / الشعب

قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ، فالنصف هو النصف هنا .

وفى البزار عن جابر مرفوعا صحيحا : « إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبين والمرسلين وأختار لى من أصحابى أربعة ــ يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ــ فجعلهم أصحابى »[1] .

وقال « فى أصحابى كلهم خير » .

وروى عويم بن ساعدة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل اختارنى واختار لى اصحابى فجعل لى منهم وزراء **وأختانا** وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة **صرفا** ولا عدلا »[2] والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، فحذار من الوقوع فى أحد منهم . ولقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه ، فالمكذب لأصغرهم ــ ولا صغير منهم ــ داخل فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه .

قال القرطبى : فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى **وأصفيائه** ، وخيرته من خلقه بعد **أنبيائه** ورسله . هذا مذهب أهل السنة والذى عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاه بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم ، ومنهم من فرق بين حالهم فى بداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ، ثم تغيرت بهم الأحوال ، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ، فلابد من البحث . وهذا مردود ، فإن خيار الصحابة وفضلاؤهم كعلى وطلحة والزبير وغيرهم ــ رضى الله عنهم ــ ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى الله عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى ﴿ **مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة باقرار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم **بإخباره** لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الإجتهاد ، وكل مجتهد مصيب .

فائدة

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب الفوائد « قول النبى ﷺ لعمر وما يدريك أن الله أطلع على أهل بدر فقال آعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[3] أشكل على كثير من الناس معناه فإن ظاهرة إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة ، منهم ابن الجوزى : ليس المراد من قوله (اعملوا) الإستقبال وإنما هو للماضى وتقديره ، أى : عمل كان لكم فقد غفرته . قال ويدل على ذلك شيئان : (أحدهما) أنه كان يكون إطلاقاً فى الذنوب ولا وجه لذلك .

---

(١) الحديث فى كشف الأستاذ عن زوائد البزار . ح ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ رقم ٢٧٦٣ . باب مناقب أصحاب رسول الله .

(٢) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . كتاب معرفة الصحابة باب لعنة الله على من سب أصحاب النبى . ح ٣ ص ٦٣٢ .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٨٥ باب غزوة الفتح . ط / الشعب .

وحقيقة هذا الجواب إنى قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، ولكنه ضعيف من وجهين (أحدهما) أن لفظ « آعملوا » بأباه ، فإنه للإستقبال دون الماضى .

وقوله ﴿ **قد غفرت لكم** ﴾ لا يوجب أن يكون أعملوا مثله ، فإن قوله « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل . كقوله ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ ﴿ **وجاء ربك** ﴾ ونظائره . (الثانى) أن نفس الحديث يرده ، فإن سببه قصة حاطب وتجسسه على النبى ﷺ وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها ، وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعاً ، فالذى نظن فى ذلك ــ والله أعلم ــ أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام . وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكنه لا يتركهم سبحانه وتعالى مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح ، واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة ، فلو كانت قد حصلت بدون الإستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ، وصيام ، وحج ، ولا زكاة ، ولا جهاد ، وهذا محال ، ومن أوجب الواجبات التوبة بعد ذلك . فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر « أذنب عبد ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فأغفره لى فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب آخر ، فقال أى رب أصبت ذنباً فاغفره لى فغفره له . ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال رب أصبت ذنباً فاغفره لى فقال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء »[1] فليس فى هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب . حكم يعم كل من كانت حاله حاله ، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له ، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصى له ، ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وطوقاً بعد البشارة منهم قبلها ، كالعشرة المشهود لهم بالجنة . وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة . وكذلك عمر فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء ، و لم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق : الاذن فيما شاءوا من الأعمال .

---

(١) صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قوله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله » ج ٩ ص ١٧٨ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف فى بعض الفاظ وعباراته واتحاد فى المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » « باب قبول التوبة من الذنوب وان تكررت الذنوب » ج ٤ ص ٢١١٢ حديث رقم ٢٩ ، ٣٠ / ٢٧٥٨ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى الألفاظ والعبارات واتحاد فى المعنى .

كانــوا رجـالاً

حسبك أن تعلم أن هؤلاء الصفوة كانوا رجالاً ، والرجال قليل ، فالرجولة عملة نادرة فى عصر يقول فيه القائل يخاطب شباب النيل :

شباب النيل يا زين الشباب ويا أبنــــــاء آساد غضاب
أرى منكم فريقاً حين يمشي يحك بأنفه طرف السحـاب
يحاكى الليث فى حلف وتيه وليس لدى الخطوب بليث غاب
وأرسل شعره المضغوط يحكى وميض البرق أو لمع السراب
ولا يخشى على شيء ويخشى إذا ثار التراب على الثيـاب
برئت من الفتى يبدو فتبرو عليه نعومته البيض الكعـاب
إذا الذئب استحال بمصر ظبياً فمن يحمى البلاد من الذئاب

فاعجب معى بعصر اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصارت التفرقة بين الجنسين عسيره ، إذ صار هناك جنس ثالث لا إلا هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن هنا نعلم أن الرجولة كلمة رفيعة المستوى ، طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، لقد وصف الله تعالى أصحاب رسوله ، صلوات ربى وسلامه عليه ، بأنهم رجال ، وقد كانوا كذلك ، كانوا رجالاً فى المساجد ﴿ لمسجد أسس على التقوى **من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**﴾(١)

وكانوا رجالاً ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٢)

وكانوا رجالاً فى ميادين القتال وساحات الوغى ، وعندما تصمت **الأسنة** ، وتنطلق الألسنة ، وتخطب السيوف على منابر الرقاب ، وتقدم النفوس على الخيط الصعاب ، فلا ترى إلا نفوساً تنثر ودماء تهدر ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾ (٣) .

كانوا شبابا مكتهلين فى ثيابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم فى جوف الليل فإذا أصلابهم محنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ،

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٨

(٢) سورة النور الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٢٢ ، ٢٣

فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهيقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، جعلوا من البحر الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى أرض الإسلام ، كيف تراهم ؟ إلا خاشعين قانتين إنهم الذين قال الله فيهم **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾**[1] .

قد يكون من السهل تشييد المصانع وإقامة ناطحات السحاب وبناء البوارج التى تمخر عباب الماء وتغوص فى **لجج** البحار ، وقد يكون من السهل بناء الأساطيل التى تركب متن الهواء ، وقد يكون من السهل بناء الجوارى فى البحر كالأعلام والمصفحات التى تقطع كبد الصحراء ، ولكن ليس من السهل بناء النفوس فهو رسالة تقطع دونها الأنفاس ، عندما تولى الرئيس الأمريكى (ريتشارد نيكسون) **حاكم** الويات المتحدة الأمريكية قال فى خطاب له ، إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ولكننا فقراء فى الروح ، **نصل** فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض .

نعم :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... **أتطلب** الربح بما فيه **خسران**
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس **لا** الجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما ... فإن الركن إن خانتك أركان
دع الفؤاد من الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

يرحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، وقد دار بينه وبين الصحابة هذا الحوار . قال عمر : ما الذى يتمناه كل واحد منكم ويسأل الله أن يحققه له ؟ قال أحدهم : أتمنى مثل أحد ذهباً أنفقه فى سبيل الله ، وقال آخر وأنا أتمنى ملء الأرض خيلاً أغزو به فى سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعتقهم لوجه الله ، ثم قالوا لأمير المؤمنين فما تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال فاروق هذه الأمة ؟ وقد ضرب الله الحق على قلبه ولسانه قال كلمته الفاضلة : أتمنى ملء هذا المسجد ، يعنى به المسجد النبوى رجالاً أمثال أبى بكر الصديق .

لقد كان قائدهم محمداً ، فنعم القائد ، إذ القيادة قدوة ، فأسد يقود ألف نعامة يغلب ألف أسد تقودهم نعامة ، فما بالك إذا كان قائدهم أسداً وهم أسود ، وعمل رجل فى ألف رجل أقوى تأثيراً وأشد تثبيتاً من قول ألف رجل فى رجل (كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم) ما أمارتهم ؟ (سيماهم فى وجوههم

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١١ ، ١١٢

من أثر السجود) أين مثلهم هذا فى التوراه ؟ فما مثلهم فى الإنجيل (كزرع أخرج شطأه) بأبى بكر (فآزره) بعمر (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلى أين تخرجوا ؟ لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا فى جامعة فيها الحبيب المصطفى ، لا يلحق كانوا مسجديين فى جامعة كان سقفها الجريد وأرضها الحصباء ، كان إمامها خير خلق الله وكان مؤذنها بلالاً ، هذا المسجد تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر والحيى الكريم كعثمان والعبقرى الفذ كعلى ، والزاهد الكريم كأبى ذر ، والفقيه العظيم كأبى عباس ، والمفتى الخبير كأبن عمر ، والمحدث الجليل كأبى هريرة ، والقائد الجبار كخالد بن الوليد ، والفيلسوف البارع كأبى ذر ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ .

الحمـــد للـــه

فالحمد لله الذى أبان للعباد منهج التربية القويمة فى قرآنه المجيد ، ووضح للعالمين مبادىء الخير والهدى والإصلاح فى أحكام شرعه الحنيف والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله للإنسانية مؤدياً ، وأنزل عليه تشريعاً يحقق للبشرية أسمى آيات عزها ومجدها وأعظم غايات شؤنها ومكانتها ، ورفعتها واستقرارها . وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار ، الذين أعطوا الأجيال المتعاقبة نماذج فريدة فى تربية الأبناء ، وتكوين الأمم وعلى من نهج نهجهم ، وأقتفى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فمن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل قويم فى تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات ، وإرساء قواعد المجد والمدنية ... وماذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلال والفوضى إلى نور التوحيد والعلم والهدى والإستقرار وصدق الله العظيم فى محكم تنزيله ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (١)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتصف بالربانية ، وتتسم بالشمول ، وتختص بالتجدد والإستمرار ، فهل مبادئها الشاملة ومعطياتها المتجددة .. فكرة مجردة فى الأذهان ، ونظريات مدونة فى الكتب ، أم هى متحققة فى أمة تلمسها الأيدى وتراها العيون ؟ فَلْنُحِلْ الجواب إلى شهيد الإسلام سيد قطب ــ رحمه الله ــ ولنسمع منه ما يقوله « وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه ــ عليهم رضوان الله ــ صوراً حية من إيمانه ،

تأكل الطعام ، وتمشى فى الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآنا حياً يدب على الأرض ، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الإسلام » .

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً ، وأن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً ، وأن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقى مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطباً ، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدى ، وتراهم العيون .

ولقد انتصر محمد ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصاً ، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفا ، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، إنما طبعها بالتبر على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله .

ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تربية الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم بإحسان ، فليستقرىء التاريخ ليسمع الكثير عن جليل مآثرهم وكريم فضائلهم فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم أو أرأف ، أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرق أو أعلم ؟!

ويكفيهم شرفاً وفخرا وخلوداً أن يقول القرآن العظيم فى حقهم ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾

ويقول ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾(١)

ويقول ﴿ **والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾(٢)

ويقول ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** ﴾(٣)

ويقول ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾(٤)

---

(١) سورة الذاريات الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة الحشر آية ٩ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢ .
(٤) سورة التوبة آية : ١٠٠

هذا غيض من فيض مما نزل فى كريم مآثرهم ، وجميل مجاملهم وقد تحقق بهم فعلاً إقامة المجتمع الفاضل الذى كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم .. وكيف لا والقاضى يجلس بينهم سنتين ولا يتخاصم إليه أثنان ؟ ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن ؟ ولماذا يختلفون وهم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالمحبة والإخاء ، ويحضهم على التعاطف والإيثار ؟

واليكم ما قاله الصحابى الجليل (عبد الله بن مسعود) ـــ رضى الله عنه ـــ فى تعداد مجاملهم وفضائلهم ، ووجوب التأسى بأفعلهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة ...:

« من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبَرَّ هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، واختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

(من كتاب تربية الأولاد فى الإسلام)

وقد صدق فيهم ـــ رضى الله عنه ـــ ما قاله العلامة ابن القيم فى تلك القصيدة العصماء :

يا باغى الإحسان يطلب ربه ... ليفوز منه بغاية الآمال
أنظر إلى هدى الصحابة والذى ... كانوا عليه فى الزمان الخالى
واسلك طريق القوم أين تيمموا ... خذ تيمنه ما الدرب ذات الشمال
تالله ما اختاروا لأنفسهم سوى ... سبل الهدى فى القول والأفعال
درجوا على نهج الرسول وهديه ... وبه اقتدوا فى سائر الأحوال
نعم الرفيق لطالب يبغى الهدى ... فمآله فى الحشر خير مآل
القانتين المخبتين لربهم ... الناطقين بأصدق الأقوال
التاركين لكل فعل سيىء ... والعاملين بأحسن الأعمال
أهواؤهم تبع لدين نبيهم ... وسواهم بالضد فى ذى الحالى
ما شابهم فى دينهم نقص ولا ... فى قولهم شطح الجهول الغالى
وسواهم بالضد فى الأمرين قد ... تركوا الهدى ودعوا إلى الاضلال
فهم الادلة للحيارى ، من يسر ... بهداهم لم يخشى من إضلال
وهم النجوم هداية وإضاءة ... وعلو منزلة ، وبعد منال
يمشون بين الناس هوناً ، نطقهم ... بالحق ، لا بجهالة والجهال
حلماً ، وعلماً ، مع تقى وتواضع ... ونصيحة ، مع مرتبة الإفضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة ، وتضرع ، وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال

وإذا بدا علم الرّهان رأيتهم يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود صفاتهم فى سورة الفتح المبين العالى
وبرابع السبع الطوال صفاتهم قوم يحبهم ذووا إدلال
وبراءة ، والحشر فيها وصفهم وبهل أتى ، وبسورة الأنفال

صور من السيرة العاطرة التى اشتملت عليها سورة الفتح

اشتملت هذه السورة الكريمة على تلك الصور الرائعة من حياة الرسول ﷺ وجهاده وسوف نتحدث عنها على الوجه التالى :

أولاً : قصة صلح الحديبية .
ثانياً : غزوة خيبر
ثالثاً : عمرة القضاء
رابعاً : فتح مكة
خامساً : غزوة حنين
سادساً : غزوة الطائف

أولاً : قصة صلح الحديبية

قال الإمام ابن القيم فى الزاد

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة ، وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتاده ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وكان معه ألف وأربعمائة ، وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار وسلمو بن الأكوع فى أصح الروايتين ، قال شعبه : عن قتاده ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

فلما كانوا بذى الحليفة ، قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لُؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وما نعوك ، واستشار النبى ﷺ وقال : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيئوا تكن عنقاً قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنماجئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، **قاتلناه** ، فقال النبى ﷺ : « فروحوا إذاً » فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبى ﷺ : « **إن** خالد بن

الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقتره الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثَّنيَّة التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ ـــ كلمة تقال للناقة إذا تركت السير ـــ فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبى ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله ، إلا أعطيتهم إياها »(١) ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرحنه الناس تبرحاً ـــ أى يأخذونه قليلاً قليلاً ـــ فلم يُلبثه الناس أن ترحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فأنتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، قال فوالله مازال يجيش لهم بالرِّيِّ ، حتى صدروا عنه)(٢) .

وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله ﷺ أي يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم فقال : يا رسول الله : ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وأدعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان ، فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : إين تريد ؟ فقال بعثنى رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمَّارا ، فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاصى ، فرحّب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء بمكة ، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان ؟ خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ؟ فقال رسول الله ﷺ « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟ قال : « ذاك ظنى به . ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال « هذه عن عثمان » ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون : أشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ، فقال بئس ما ظنتم بى ، والذى نفسى بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ،

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة ط / الحلبى .

ـــ أنظر القصة من قوله « فلما كانوا بذى الخليفة ... إلى حتى صدورا عنه فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ . عن المسور بن مخزمه ومروان بن الحكم .

ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت ، فأبيت ، فقال المسلمون : رسول الله ﷺ : رسول الله كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً[1] وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعه تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجدَّ بن قيس .

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدى .

وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول **الناس** ، وأوسطهم وآخرهم .

« فبينما هم كذلك ، إذا جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة **وكانوا** عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، قال رسول الله ﷺ «**إنا** لم نجىء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا مادتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جمُّوا ، وإن هم أبو إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو ليُنفذِنَّ الله أمره » قال بُديل : سأبلغهم ما تقول ، فأنطلق حتى أتى قريشا ، فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وقد سمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : هات ما سمعته ، قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بماقال النبى ﷺ فقال : عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعونى آته ، فقالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرأيت لو أستأصلت قومك . هل سمعت بأحد من العرب احتاج أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشا من الناس خليقاً أن **يفروا** ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امصُص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه . قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر قال أما والذى نفسى بيده ، لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك ، وجعل يكلم النبى ﷺ **وكلما** كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبه عند رأس النبى ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنصل السيف ، وقال : أخِّر **يدك** عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه وقال من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبه . فقال : أى غدر أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبى ﷺ « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء »[2]

---

(١) أنظر كنز العمال « مراسل عروه » ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٥٢ / ٣٠ فقد ورد الحديث من قوله : ففزعت قريش ... إلى وأحسننا ظنا » .

ـــ وأنظر مسند بن أبى شيبه ح ١٤ ص ٤٢٩ . غزوة الحديبية .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه فوالله ما تنخم النبى ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ، ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم أخفقوا أصواتهم عنده ، وما يُجدُون إليه النظر تعظيماًله ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما عظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخْم نُخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه . قال رسول الله ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن ـــ فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال :« سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت » فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قُلّدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقام مكرز بن حنص فقال : دعونى آته ، فقالوا آته ، فلما أشرف عليهم ، قال النبى ﷺ « هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم رسول الله ﷺ فبينما هو يكلمه ، إذا جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبى ﷺ : « قد سُهّل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا الكاتب ، فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل . أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب باسم اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبى ﷺ « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ إنى لرسول الله وإن كذ بتمونى ، أكتب : محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به فقال سهيل ، والله لا تتحدث العرب أنا اخذنا ضغطه ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون سبحان الله ، كيف يرد الى المشركين ، وقد جاء مسلماً ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرصف فى قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، فقال النبى ﷺ « إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله إذاً لا أصالحك على شىء أبداً ، فقال النبى ﷺ « فاجزه لى » قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » قال : « ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أردُ إلى المشركين وقد جئت مسلما ، ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب فى الله عذاباً شديداً ، قال عمر بن الخطاب : (والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ) فأتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : ألست نبى ا لله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . فقلت : علام نعطى المدَّنيَّة فى ديننا

إذاً ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إنى رسول الله ، وهو ناصرى ، ولست أعصيه » قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتيه وتطوف به . قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ وردْ على أبو بكر كما ردْ على رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . قال عمر : فعملت لذلك أعمالاً وفى رواية ابن اسحاق وكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة الذى تكلمت به .

فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ « قوموا فانحروا ، ثم احلقوا » فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة يا رسول الله . أتحب ذلك أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بذلك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، قاموا فنحروا ، جعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين أمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ حتى بلغ (بعصيم الكوافر) (الممتحنة ١٠) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا فى الشرك فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة وفى مرجعه أنزل الله تعالى ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ .

فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال نعم ، فقال الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله ، فمالنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾

ولما رجع إلى المدينة ، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا فى الحليفه ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه به حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعراً » فلما أنتهى إلى النبى ﷺ قال : قتل والله صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو يصير ، فقال : يا بنى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد ردتنى إليهم ، فأنجانى الله منهم ، فقال النبى ﷺ « ويل أمه مسعرحرب ، لو كان له أحد » ، فلما سمع ذلك ، عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم ، فهو آمن فأنزل الله عز وجل ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ حتى بلغ (حمّية الجاهلية) .

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبى الله ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت[1] .

وفى صحيح البخارى عن جابر ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوه يتوضأ منها ، إذ جهش الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله : ما عندنا ماء نشرب ، ولا نتوضأ إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون ، فشربوا ، وتوضؤوا ، وكانوا خمس عشرة مائة[1] .

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة **مطر** ، فلما صلى النبى ﷺ الصبح قال : « أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا نبوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكواكب » (رواه البخارى)

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وإن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن ما أتانا من أصحابك لم نرده عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة (أى صدوراً سليمة فى المحافظة على العهد) وإنه لا إسلال ولا إغلال ، فقالوا : يا رسول الله أنعطيهم هذا ؟ فقال « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً »[3] (أخرجه أحمد ورجاله ثقات) .

ما تضمنته هذه القصة من الفوائد الفقهية

وفى قصة الحديبية ، أنزل الله ــ عز وجل فديه الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك فى شأن كعب بن عُجرة . وفيها : دعا رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً ، وللمقصرين مرة .

وفيها : نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة وفيها : أهدى رسول الله ﷺ فى جملة هدية جملاً كانم لأبى جهل كان فى أنفه بُدة من فضة ليغيظ به المشركين .

وفيها : أنزلت سورة الفتح ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، وكان فى الشرط أن من شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل .

---

(١) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبى .
ــ وكذلك أنظر القصة بأكملها من قوله فبينما هم كذلك . إذ جاء بديل ... إلى قوله . « وحالوا بينهم وبين البيت » فى مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ كتاب المغازى باب غزوة الحديبية ط / الشعب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٥ كتاب المغازى باب غزوة الحديبية . ط / الشعب .
أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١١ كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية رقم ٩٣ / ١٧٨٤ .
ــ وأنظر مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٥ .

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات ، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذى كان بينهم ، فلم يرجعها إليهم ، ونهاه الله عز وجل عن ذلك ، فقيل هذا نسخ للشرط فى النساء ، وقيل : تخصيص للسنة بالقرآن ، وهو عزيز جداً . وقيل لم يقع الشرط الإعلى الرجال خاصة ، وأراد المشركون أن يعموه فى الصنفين ، فأبى الله ذلك .

ومنها : إعتمار النبى ﷺ فى أشهر الحج ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة .

ومنها : إن الإحرام بالعمرة من **الميقات** أفضل ، كما أن الإحرام بالحج كذلك ، فإنه أحرم بهما من ذى الحليفة ، وبينها وبين المدينة ميل أو نحوه .

ومنها : أن سوق الهدى مسنون فى العمرة المفردة ، كما هو مسنون فى القرآن .

ومنها : أن إشعار الهدى سنة لا مُثلة منهى عنها .

ومنها : استحباب مغايظة أعداء الله ، فإن النبى ﷺ أهدى فى جملة هدية جملاً لأبى جهل فى أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين ، وقد قال تعالى فى صفة النبى ﷺ وأصحابه ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[(١)]

ومنها : أن أمير الجيش ينبغى له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو ومنها : أن الإستعانة بالمشرك المأمون فى الجهاد جائزة عند الحاجة ، لأن عينه الخزاعة كان كافراً إذ ذاك ، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم .

ومنها : **استحباب** مشورة الإمام رعيته وجيشه ، إستخراجاً لوجة الرأى ، وإستطابة لنفوسهم ، وأمنا لعتبهم ، وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، وأمتثالا لأمر الرب فى قوله تعالى ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وقد مدح سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[(٢)] .

ومنها : جواز سبى ذرارى المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال .

ومنها : رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواء ، يعنى حرنت وألحت ، فلم تسر ، والخلاء فى الإبل (بكسر الخاء والمد) ، نظير الحران فى الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها ، رده عليهم ، وقال : « ما خلأت **وماكان** لها بخلق » ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذى حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها ، وما جرى بعده .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

ومنها : جواز الحلف ، بل استحبابة على الخير الديني الذى يريد تأكيده ، وقد حفظ عن النبى ﷺ الحلف فى أكثر من ثمانين موضعا وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبره به فى ثلاثة مواضع : فى (سورة يونس) ، (وسبأ) (والتغابن) .

ومنها : أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبغاه والظلمة ، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى ، أجيبوا إليه وأعطوه ، **واعينوا** عليه ، وإن منعوا غيره ، فيعاونوا على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له ، وأجيب إلى ذلك كائناً من كان ، ما لم يترتب على إعانته ، على ذلك المحبوب ، مبغوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها ، وأشقها على النفوس ، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق ، وقال عمر ما قال حتى عمل له أعمالاً بعده ، والصديق تلقاه بالرضى والتسليم ، حتى كان قلبه فيه على قلبي رسول الله ﷺ وأجاب عمر عما سأل عن من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ وذلك يدل على أن الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ أفضل الصحابة وأكملهم ، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ وأعلمهم بدينه ، **وأقومهم** بمحابة ، وأشدهم موافقة خاصة دون سائر أصحابه .

ومنها : أن النبى ﷺ عدل ذات اليمين إلى الحديبية ، قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم وروى الإمام أحمد فى هذه القصة أن النبى ﷺ كان يصلى فى الحرم وهو مضطرب فى الحل ، وفى هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذى هو مكان الطواف وأن قوله « صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى »(١) كقوله تعالى ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحوام** ﴾(٢) وقوله تعالى ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾(٣) وكان الإسراء من بيت أم هانيء .

ومنها : أن من نزل قريباً من مكة ، فإنه ينبغى له أن ينزل فى الحِلّ ، ويصلى فى الحرم ، وكذلك كان ابن عمر يصنع .

---

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ح ٣ ص ٧١ ، ٧٢ رقم ١٦١٨ . بلفظ صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، وصلاة فى ذاك أفضل ممن مائة صلاة فى هذا ـــ يعنى فى مسجد المدينة .

(٢) سورة التوبة آية ٢٨

(٣) سورة الإسراء آية ١

ومنها : جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم وفى قيام المغيرة بن شعبه على رأس رسول الله ﷺ بالسيف ، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه ، وهو قاعد ، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنفوس ، وهذه هى العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من هذا النوع الذى ذمَّه النبى ﷺ بقوله « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »[1] (أخرجه أبو داود واسناده صحيح) .

كما أن الفخر والخيلاء فى الحرب ليسا من هذا النوع المذموم فى غيره ، وفى بعث البدن فى وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار .

وفى قول النبى ﷺ للمغيرة : « أمَّا الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه فى شيء »[2] دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم ، وأنه لا يملك ، بل يرد عليه ، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان ، ثم غدر بهم ، وأخذ أموالهم ، فلم يتعرض النبى ﷺ لأموالهم ، ولا ذبّ عنها ، ولا ضمنها لهم ، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة .

وفى قول الصديق لعروة : امصص بظر اللات ، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا اكان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال ، كما أذن النبى ـــ ﷺ ـــ أن يُصرِّحَ لمن ادعى دعوى الجاهلية بهَنِ أبيه ، ويقال له : اعضضن أير أبيك ، ولا يكنى له ، فلكل مقام مقال .

ومنها : إحتمال قلة أدب رسول الكفار ، وجهلة وجفوته ، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة **العامة**، ولم يقابل النبى ﷺ عروة على أخذ بلحيته وقت خطابه ، وإن كانت تلك عادة العرب ، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٩٨ كتاب الأدب رقم ٥٢٢٩ .
ـــ أنظر سنن الترمذى ح ٤ ص ١٨٤ بلفظ من سره ... الخ أبواب الإستئذان والأداب . باب ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل رقم ٢٩٠٣ .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٤ كتاب الشروط فى الإسلام . ط / الشعب .

وكذلك لم يقاتل رسول الله ﷺ رسولى مسليمة الكذاب حين قالا : نشهد انك رسول الله وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما »[1] .

ومنها : طهارة النخامة ، سواء كانت من رأس أو صدر .

ومنها : طهارة الماء المستعمل .

ومنها : استحباب التفاؤل ، وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل : « سَهُلَ أمركم » .

ومنها : أن **المشهور** عليه إذا عرف باسمه واسم أبيه ، أغنى ذلك عن ذكر الجد ؛ لأن النبى ــ ﷺ ــ لم يزد على محمد بن عبد الله ، وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة واشتراط ذكر الجد لا أصل له ، ولما اشترى العدَّاء بن خالد منه ــ ﷺ ــ الغلام فكتب له : « هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة » فذكر جده ، فهو زيادة بيان تدل على أنه جائز لا بأس به ، ولا تدل على اشتراطه ، ولما لم يكن فى الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم الأب ، وعند عدم الاشتراك اكتفى بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم .

ومنها : أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه **ضيم** على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة ، ودفع ما هو شر منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما .

ومنها : أن من حلف على فعل شيء ، أو نذره ، أو وعد غيره به و لم يعين وقتاً ، لا بلفظه ، ولا بنيته ، لم يكن على الفور ، بل على التراخى .

ومنها : أن **الحلاقة** نسك ، وأنه أفضل من التقصير ، وأنه نسك فى العمرة ، كما هو نسك فى الحج ، وأنه نسك فى عمرة المحصور ، كما هو نسك فى عمرة غيره .

ومنها : أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم ، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره فى الحرام إذا لم يصل إليه ، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله ، بدليل قوله تعالى . ﴿ **والهدى معكوفا أن يبلغ محله** ﴾ .

ومنها : أن المحصر لا يجب عليه القضاء ، لأنه ــ ﷺ ــ أمرهم بالحلق والنحر ، و لم يأمر أحداً منهم بالقضاء ، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة ، ولا قضاء عن عمرة الإحصار فإنهم كانوا فى عمرة الإحصار ألفاً وأربعمائة ، وكانوا فى عمرة القضية دون ذلك ، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء ، لأنها العمرة التى قاضاهم عليها ، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله .

ومنها : أن الأمر المطلق على الفور وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر ، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بإنهم كانوا يرجون النسخ ، فأخرروا متأولين لذلك ، وهذا الاعتذار أولى أن يُعتذر عنه ، وهو باطل ، فإنه ــ ﷺ ــ لو فهم منهم ذلك ، لم يشتد غضبه لتأخير أمره ، ويقول « مالى لا أغضب ،

---

١ ــ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٦٧٢ من رواية أحمد والطبرانى فى الكبير عن نعيم ابن مسعود الأشجعى وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ٤٨٨

وأنا آمر بالأمر فلا أتبع » وإنما كان تأخيرهم من السعى المغفور لا المشكور ، وقد رضى الله عنهم ، وغفر لهم وأوجب لهم الجنة .

ومنها : أن الأصل مشاركة أمته له فى الأحكام إلا ما خصّه الدليل ولذلك قالت أم سلمة : « أخرج ولا تكلم أحداً حتى تحلق رأسك وتنحر هديك » وعلمت أن الناس سيتابعونه .

فإن قيل : فكيف فعلوا ذلك اقتداء بفعله ، ولم يمتثلوه حين أمرهم به ؟ قيل : هذا هو السبب الذى لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعا فى النسخ ، فلما فعل النبى — ﷺ — ذلك علموا حينئذ أنه حكم مستقر غير منسوخ ، وقد تقدم فساد هذا الظن ، ولكن لما تغيظ عليهم ، وخرج ولم يكلمهم وأزاهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به ، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم ، وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره .

ومنها : جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلحين وألا يرد من ذهب من المسلحين إليهم ، هذا فى غير النساء وأما النساء ، فلا يجوز اشتراط ردهن ، إلى الكفار ، وهذا موضوع النسخ خاصة فى هذا العقد بنص القرآن ، ولا سبيل إلى دعوى النسخ فى غيره بغير موجب .

ومنها : أن خروج البُضع من ملك الزوج متقوم ، ولذلك أوجب الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته ، **وحيل** بينه وبينها ، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم ردَّ مهور من هاجر إليهم من أزواجهم ، وأخبر أن ذلك حُكمه الذى حكم به بينهم ، ثم لم ينسخه شىء ، وفى إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على ما تقوُّمه بالمسمى ، لا بمهر المثل .

ومنها : أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام ، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب فإن النبى — ﷺ — لم يرد أبابصير حين جاءه ، ولا أكرهه على الرجوع ، ولكن لما جاؤوا فى طلبه ، مكنهم من أخذه ، ولم يكرهه على الرجوع .

ومنها : أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بدية ولا قود ، ولم يضمنه الإمام ، بل يكون حكمه فى ذلك حكم قتله لهم فى ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذى الحليفة ، وهى من حكم المدينة ، ولكن كان قد تسلموه وفصل عن يد الإمام وحكمه .

ومنها : أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام ، فخرجت منهم طائفة فحاربتهم ، وغنمت أموالهم ، ولم يتحيزوا إلى الإمام ، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم ، ومنعهم منهم ، وسواء دخلوا فى عقد الإمام وعهده ودينه ، أو لم يدخلوا ، والعهد الذى كان بين النبى — ﷺ — وبين المشركين لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم ، وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد جاز الملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم ، ويغنم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد ، كما أفتى به شيخ الإسلام فى نصارى ملطية وسبيهم ، مستدلا بقصة أبى بصير مع المشركين .

فصل

فى الإشارة إلى بعض الحكم التى تضمنتها هذه الهدنة

يقول ابن القيم ــ رحمه الله ــ : وهى أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذى أحكم أسبابها فوقعت الغاية على الوجه الذى اقتضته حكمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجاً ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه فى الأمور العظام ، التى يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطىء لها بين يديها مقدمات وتوطئات ، تؤذن بها ، وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضا ، وأختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيما ، وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية وحقيقة الأمر : أن الفتح ــ فى اللغة ــ فتح المغلق ، والصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودا مغلقا حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه عن البيت ، وكان فى الصورة الظاهرة خيماً وهضماً للمسلمين ، وفى الباطن عزاً وفتحا ونصرا ، وكان رسول الله ــ ﷺ ــ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز ، والنصر من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، التى لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم وهو ــ ﷺ ــ يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾[1] فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند الذى أقامة المشترطون ، ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون فذلوا من حيث طلبوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة ، وعز رسول الله ــ ﷺ ــ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله ، واحتملوا الضيم له وفيه ، فدار الدّاور ، وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التى لا اقتراح للعقول وراءها .

ومنها : ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله ، وتصديق عليهم بالسكينة التى أنزلها فى قلوبهم ، أحوج

١ ــ الآية : ٢١٦ من سورة البقرة

ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولإتمام نعمته عليه ، ولهدايته الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ، ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراح صدره به مع ما فيه من الغيم ، وإعطاء ما سألوه ، كان من الأسباب التى نال بها الرسول وأصحابه ذلك ، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية ، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى ، وفتحه . وتأمل كيف وصف ــ سبحانه ــ النصر بأنه عزيز فى هذا الموطن ، ثم ذكر إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين فى هذا الموطن ، الذى اضطربت فيه القلوب ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم ، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله ــ ﷺ ــ كذلك وهو رسوله ونبيه ، فالعقد معه عقد مع مرسله ، وبيعته بيعته فمن بايعه ، فكأنما بايع الله ، ويد الله فوق يده ثم أخبر سبحانه أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه ، وأن للموفى بها أجراً عظيما فكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه ، فناكث وموفٍ .

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب ، وظنهم أسوأ الظن بالله : أنه يخذل رسوله وأولياءه ، وجنده ، ويظفر بهم عدوهم ، فلن ينقلبوا إلى أهليهم ، وذلك من جهلهم بالله واسمائه وصفاته ، وما يليق به وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه مولاه .

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله ، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء ، وكمال الانقياد ، والطاعة ، وإيثار الله ورسوله على ما سواه ، فأنزل الله السكينة والطمأنينة ، والرضى فى قلوبهم ، وأثابهم على الرضى بحكمه ، والصبر لأمره فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ، ومغانمها ، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر .

ووعدهم الله سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها ، وأخذهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة ، وفيها قولان . أحدهما : أنه الصلح الذى جرى بينهم وبين عدوهم ، والثانى : أنها فتح خيبر وغنائمها ، ثم قال ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ فقيل : أيدى أهل مكة أن يقاتلوهم ، وقيل : أيدى اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ــ ﷺ ــ بمن معه من الصحابة منها ، وقيل : هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان والصحيح تناول الآية للجميع .

وقوله ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ قيل : الفعلة التى فعلها بكم ، وهى كف أيدى أعدائكم عنكم مع كثرتهم ، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها ، وأهل خيبر ومن حولها ، وأسد وغطفان ، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم ، وهم بينهم كالشامة ، فلم يصلوا إليهم بسوء ، فمن آيات الله سبحانه كف أيدى

أعدائهم عنهم ، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم ، وشدة عداوتهم ، وتولى حراستهم ، وحفظهم فى مشهدهم ومغيبهم .

وقيل : هى فتح خيبر ، جعلها الله آية لعباده المؤمنين ، وعلامة على ما بعدها من الفتوح ، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة وفتوحا عظيمة ، فعجل لهم فتح خيبر ، وجعلها آية لما بعدها ، وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكرانا ، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية . ثم قال ﴿ **ويهديكم صراطاً مستقيماً** ﴾ فجمع لهم إلى النصر والظفر والغنائم الهداية ، فجعلهم مهديين منصورين غانمين ، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحاً أخرى ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها ، فقيل : هى مكة وقيل : فارس والروم ، وقيل : الفتوح التى بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها . ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه ، لولى الكفار الأدبار غير منصورين ، وأن هذه سنته فى عباده قبلهم ، ولا تبديل لسنته . فإن قيل : فقد قاتلوهم يوم أحد ، وانتصروا عليهم ، ولم يولوا الأدبار ؟ قيل : هذا وعد معلق بشرط مذكور فى غير هذا الموضوع ، وهو الصبر والتقوى ، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافى للصبر ، وتنازعهم ، وعصيانهم المنافى للتقوى ، فصرفهم عن عدوهم ، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ أنه هو الذى كف أيدى بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم ، لماله فى ذلك من الحكم البالغة التى منها : أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا ، وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون ، فلو سلطكم عليهم ، لأصبتم أولئك بمعرة الجيش ، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به ، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم ، لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم ، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم ، لعذب أعداءه عذابا أليما فى الدنيا ، إما بالقتل والأسر ، وإما بغيره ، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم ، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ، ورسوله بين أظهرهم .

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار ، فى قلوبهم من حمية الجاهلية التى مصدرها الجهل والظلم ، التى لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه ، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التى شاهدوها وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة ، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره ، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التى هى بقدرتهم وإرادتهم .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أنه أنزل فى قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه من حمية الجاهلية ، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه ، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم ، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى ، وهى جنس يعم كل كلمة يتقى الله بها ، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص ، وقد فسرن بسم الله الرحمن الرحيم ، وهى الكلمة التى أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أولياءه وحزبه ، وإنما حرمها أعداءه صيانه لها من غير كفئها ، وألزمها من هو أحق بها وأهلها ، فوضعها فى موضعها ، ولم يضيعها بوضعها فى غير أهلها وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أنه صدق رسوله رؤياه فى دخولهم المسجد آمنين وأنه سيكون ولابد ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك فى هذا العام ، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم ، فأنتم أحببتم استعجال ذلك ، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه ، فقدم بين يدى ذلك فتحا قريبا ، توطئه له وتمهيدا .

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففى هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبيت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لابد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ، ولا تخليا عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعده أن يظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ رسوله وحزبه الذين اختارهم له ، ومدحهم بأحسن المدح ، وذكر صفاتهم فى التوارة والإنجيل ، فكأن فى هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوارة والإنجيل والقرآن وأن هؤلاء هم المذكورون فى الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم : إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا ، ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم ، وعدلهم وعلمهم ، ورحمتهم وزهدهم فى الدنيا ورغبتهم فى الآخرة ، قالوا : ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وكان هؤلاء النصارى بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم والرافضة تصفهم بغير ما وصفهم الله به فى هذه الآية وغيرها و ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾[1] .

ثانيا :

غزوة خيبر

قال الإمام ابن الغيم فى الزاد :

« قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة أو قريباً منها ، ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله ــ عز وجل ــ **وعده** إياها ، وهو بالحديبية .

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن عروة ، عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ، أنهما حدثاه جميعا ، قالا : انصرف رسول الله ــ ﷺ ــ عام الحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله ــ عز وجل ــ فيها خيبر ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه** ﴾ خيبر ، فقدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة فى ذى الحجة : فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى المحرم ، فنزل

١ ــ الآية : ١٧ من سورة الكهف

رسول الله ــ ﷺ ــ بالرجيع : واد بين خيبر وغطفان ، فتخوف أن تمدهم غطفان فبات به حتى أصبح ، فغدا إليهم .

واستخلف ــ ﷺ ــ على المدينة سباع بن عرفطة ، وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة ، فوافق سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح ، فسمعه يقرأ فى الركعة الأولى (كهيعص) ، وفى الثانية (ويل للمطففين) فقال فى نفسه : ويل لأبى فلان ، له مكيلان ، إذا اكتال اكتال بالوافى ، وإذا كال كال بالناقص ، فلما فرغ من صلاته ، أتى سباعاً ، فزوده حتى قدم على رسول الله ــ ﷺ ــ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم .

ولما قدم رسول الله ــ ﷺ ــ خيبر ، صلى بها الصبح ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش ، قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم ، فقال النبى ــ ﷺ ــ « الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين »[1]

ولما دنا النبى ــ ﷺ ــ وأشرف عليها قال « قفوا » فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله »[2]

ولما كانت ليلة الدخول ، قال : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله ــ ﷺ ــ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال « أين على بن أبى طالب ؟ » فقالوا : يارسول الله : هو يشتكى عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتى به ، فبصق رسول الله ــ ﷺ ــ فى عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال : يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم »[3] .

فخرج مَرحَبٌ وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى مرحب   شاكى السلاح بطل مُجرب

إذا الحروبُ أقبلتْ تلهب

---

١ ــ الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ــ باب غزوة خيبر ــ حـ ٥ صـ ١٦٧ ط الشعب

٢ ــ الحديث فى مجمع الزوائد ــ كتاب الأدعية ــ حـ ١٠ صـ ١٣٥

٣ ــ الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ــ باب غزوة خيبر ــ حـ ٥ صـ ١٧١ ط الشعب

فبرز على بن أبى طالب وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره   كليث غابات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ، ففلق هامته ، وكان الفتح .

قال موسى بن عقبة : ثم دخل اليهود حصناً لهم منيعاً يقال له : القموص ، فحاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ قريبا من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وخمة شديدة الحر ، فجُهد المسلمون جهداً شديدا ، فذبحوا الحمر فنهاهم رسول الله ـ ﷺ ـ عن أكلها ، وجاء عبد أسود حبشى من أهل خيبر ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبى ، فوقع فى نفسه ذكر النبى ـ ﷺ ـ فأقبل بغنمه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : ماذا تقول وما تدعوا إليه ، قال : « أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا له إلا الله ، وأنى رسول الله ، وألا تعبد إلا الله »[١] . قال العبد ، فما لى إن شهدت وآمنت بالله ـ عز وجل ـ ؟ قال : « لك الجنة إن مت على ذلك »[٢] ، فأسلم ، ثم قال : يانبى الله ! إن هذه الغنم عندى أمانة ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ « أخرجها من عندك وارمها بالحصباء ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فى الناس ، فوعظهم وحضهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل فيمن قتل العبد الأسود ، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل فى الفسطاط ، فزعموا أن رسول الله ـ ﷺ ـ أطلع فى الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه وقال « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط »[٣] .

وقال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبى ـ ﷺ ـ فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ـ ﷺ ـ شيئا ، فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ما قسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء ، دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمة لك رسول الله ـ ﷺ ـ فأخذه فجاء ه إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « قسْم قسمته لك » ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ، وأشار إلى حلْقِه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تصدق الله يصدقك » ثم نهض إلى قتال العدو ، فأتى به إلى النبى ـ ﷺ ـ وهو مقتول ، فقال : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم قال : « صدق الله فصدقه » فكفنه النبى ـ ﷺ ـ فى جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : « اللهم هذا عبدك خرج

---

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ـ أمر الأسود الراعى فى حديث خيبر ـ حـ ٣ صـ ٣٥٨

مهاجراً فى سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » (أخرجه النسائى والحاكم والبيهقى وإسناده صحيح)[١]

قال الواقدى : وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير : حصن منيع فى رأس قُلة ، فأقام رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً ، تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فسار رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مائهم ، فقطعه عليهم فلما قطع عليهم ، خرجوا ، فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين نفر ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم تحول رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أهل الكُتَيبه والوطيح والسلالم حصن ابن أبى الحُقيق ، فتحصن أهله أشد التحصن ، وجاءهم كل فَلّ كان انهزم من النطاة والشق ، فإن خيبر كانت جانبين . الأول الشق والنطاة ، وهو الذى افتتحه أولاً

والجانب الثانى : الكتيبة والوطيح والسلالم ، فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ الصلح ، وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنزل فأكلمك ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « نعم » فنزل ابن أبى الحقيق فصالح رسول الله ـ ﷺ ـ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً » فصالحوه على ذلك .

قال حماد بن سلمة : عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم ، فغلب على الزرع والنخل والأرض ، فصالحوه على أن يجْلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ـ ﷺ ـ الصفراء والبيضاء ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغُيبِّوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبِّوا مَسْكاً فيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لعم حيى بن أخطب : « ما فعل مَسْك حُيى الذى جاء به من النضير ؟ »[١] قال : أذهبته النفقات والحروب فقال : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك » ، فدفعه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الزبير ، فمسه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : « قد رأيت حُيياً ، يطوف فى خربة ها هنا ، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا **المسك** فى الخربة ، فقتل رسول الله ـ ﷺ ـ

١ ـ الحديث فى المستدرك للحاكم حـ ٣ صـ ٥٩٥ ، ٥٩٦ كتاب معرفة الصحابة ذكر شداد بن الهاد ـ رضى الله عنه ـ وفى سنن النسائى حـ ٤ صـ ٦٠ ، ٦١ ـ باب الصلاة على الشهداء

ابنى أبى الحقيق ، وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب ، وسبى رسول الله ـ ﷺ ـ نساءهم وذراريهم ، وقسم أموالهم بالنكث الذى نكثوا ، وأراد أن يجليهم منها ، فقالوا : يا محمد ! دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ـ ﷺ ـ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يقرهم ولم يقتل رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الصلح إلا ابنى أبى الحقيق للنكث الذى نكثوا ، فإنهم شرطوا إن غيبوا ، أو كتموا ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، فغيبوا ، فقال لهم : « أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم »[١] قالوا : ذهب ، فحلفوا على ذلك ، فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الزبير يعذبه ، فدفع رسول الله ـ ﷺ ـ صفية بنت حيى بن أخطب وابنة عمتها وكانت صفية تحت كنانة بن أبى الحقيق ، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول ، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله ، فمر بها بلال وسط القتلى ، فكره ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : « أذهبت الرحمة منك يابلال »[٢] .

وعرض عليها رسول الله ـ ﷺ ـ الإسلام ، فأسلمت ، فاصطفاها لنفسه ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها فى الطريق ، وأولم عليها ، ورأى بوجهها خضرة ، فقال « ما هذا ؟ »[٣] قالت : يارسول الله ! رأيت قبل قدومك علينا ، كأن القمر زال من مكانه فسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى وقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة . (رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح)[٤] .

وشك الصحابة : هل اتخذها سُرِّية أو زوجة ؟ فقالوا : انظروا إن حجبها ، فهى إحدى نسائه ، وإلا فهى مما ملكت يمينه ، فلما ركب ، جعل ثوبه الذى ارتدى به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته ، فتأخروا عنه فى السير ، وعلموا أنها إحدى نسائه ، ولما قدم ليحملها على الرحل أجلَّته أن تضع قدمها على فخذه ، فوضعت ركبتها على فخذه ثم ركبت (أخرجه البخارى)[٥]

ولما بنى بها ، بات أبو أيوب ليلته قائما قريبا من قُبته ، آخذ بقائم السيف حتى أصبح ، فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك ، كبّر أبو أيوب حين رآه قد خرج ، فسأله رسول الله ـ ﷺ ـ مالك يا أبا أيوب ؟ فقال له : أرقت ليلتى هذه يارسول الله لما دخلت بهذه المرأة ، ذكرت أنك قتلت أباها وأخاها ، وزوجها وعامة عشيرتها ، فخفت أن تغتالك ، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال له معروفاً .

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى حـ ٣ صـ ٣٥١ بقية أمر خيبر
(٢) الحديث فى الاصابة فى تمييز الصحابة حـ ١٣ صـ ١٤
(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى حـ ٢٤ صـ ٦٦ ـ ٧٠
(٤) الحديث رواه الطبرانى حـ ٢٤ صـ ٦٦ ـ ٧٠
(٥) الحديث أخرجه البخارى ـ باب غزوة خيبر ـ حـ ٥ صـ ١٧١ ، ١٧٢

وقسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ خيبر على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم فكان لرسول الله ـــ ﷺ ـــ وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ؟ ولرسول الله ـــ ﷺ ـــ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين[1]

وقال ابن القيم : وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ، ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ـــ ﷺ ـــ كسهم من حضرها .

قال موسى بن عقبة وغيره : وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى خيبر تراهن عظيم وتبايع ، فمنهم من يقول : يظهر محمد وأصحابه، ومنهم يقول : يظهر الحليفان ويهود خيبر ، وكان الحجاج بن علاط السُلمى قد أسلم وشهد فتح خيبر ، وكانت تحته أم شيبة أخت بنى عبد الدار بن قصى ، وكان الحجاج مكثراً من المال ، كانت له معادن بأرض بنى سليم ، فلما ظهر النبى ـــ ﷺ ـــ على خيبر ، قال الحجاج ابن علاط : إن لى ذهبا عند امرأتى ، وإن تعلم هى وأهلها بإسلامى ، فلا مالى لى ، فأذن لى ، فلأسرع السير وأسبق الخبر ، ولأخبرن أخباراً إذا قدمت أدرأ بها عن مالى ونفسى ، فأذن له رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، فلما قدم مكة ، قال لامرأته : أخفى علّى واجمعى ما كان لى عندك من مال ، فإنى أريد أن اشترى من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا ، وأصيبت أموالهم ، وإن محمداً قد أسر ، وتفرق عنه أصحابه ، وإن اليهود قد أقسموا : لتبعثن به إلى مكة ثم لتقتلنه بقتلاهم بالمدينة ، ونشأ عن ذلك بمكة ، واشتد على المسلمين وبلغ منهم ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، فبلغ العباس عم رسول الله ـــ ﷺ ـــ زجلة الناس وجلبتهم وإظهارهم السرور ، فأراد أن يقوم ويخرج ، فانخزل ظهره فلم يقدر على القيام ، فدعا ابناً له يقال له : قثم ، وكان يشبه رسـ ل الله ـــ ﷺ ـــ فجعل العباس يرتجز ، ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله :

حبيى قثم صبـى قثم شيبة ذى الأنف الأشم
نبى ربى ذى النعـم برغم أنف من رغـم

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين منهم المظهر للفرح والسرور ، ومنهم الشامت المعزى ، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء ، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده ، طابت نفوسهم ، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم ، ثم أرسل العباس غلاماً له إلى الحجاج ، وقال له : اخْل به ، وقل له : ويلك ما جئت به ، وما تقول ، فالذى وعد الله خير مما جئت به ؟ فلما كلمه

١ ـــ الحديث فى سنن أبى داود حـ ٣ صـ ٤١٢

الغلام قال له : اقرأ على أبى الفضل السلام ، وقل له : فليخل بى فى بعض بيوته حتى آتيه ، فإن الخبر على ما يسره ، فلما بلغ العبد باب الدار ، قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحا كأنه لم يصبه بلاء قط ، حتى جاءه وقبل ما بين عينيه ، فأخبره بقول الحجاج ، أُخل به فى بعض بيوتك حتى يأتيك ظهراً ، فلما جاءه الحجاج ، وخلا به ، أخذ عليه لتكتمن خبرى ، فوافقه عباس على ذلك ، فقال له الحجاج : جئت وقد افتتح رسول الله ــ ﷺ ــ خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت فيهم سهام الله ، وإن رسول الله ــ ﷺ ــ قد اصطفى صفية بنت حيى لنفسه ، وأعرس بها ، ولكن جئت لمالى ، أردت أن أجمعه وأذهب به ، وإنى استأذنت رسول الله ــ ﷺ ــ أن أقول ، فأذن لى ، أن أقول ما شئت فاخف علىّ ثلاثاً ، ثم اذكر ما شئت ، قال : فجمعت له امرأته متاعه ، ثم انشمر راجعا ، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك ، قالت : ذهب ، وقالت : لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذى بلغك ، فقال : أجل ، لا يحزننى الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب ، فتح الله على رسوله خيبر ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ــ ﷺ ــ صفية لنفسه فإن كان لك فى زوجك حاجة ، فالحقى به . قالت : أظنك والله صادقا . قال : فإنى والله صادق ، والأمر على ما أقول لك ، قالت : فمن أخبرك بهذا ؟ قال : الذى أخبرك بما أخبرك ، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش ، فلما رأوه ، قالوا : هذا والله التجلّد يا أبا الفضل ، ولا يصيبك إلا خير ، قال : أجل لم يصبنى إلا خير ، والحمد لله ، أخبرنى الحجاج كذا وكذا . وقد سألنى أن اكتم عليه ثلاثاً لحاجة ، فرد الله ما كان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين ، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر ، فأشرقت وجوه المسلمين (أخرجه عبد الرزاق فى المصنف وعنه أحمد وسند صحيح)[1]

فصل

فيما كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية

قال العلامة ابن القيم :

فمنها : محاربة الكفار ومقاتلتهم فى الأشهر الحرم ، فإن رسول الله ــ ﷺ ــ رجع من الحديبية فى ذى الحجة ، فمكث بها أياماً ، ثم سار إلى خيبر فى المحرم ، كذلك قال الزهرى عن عروة ، عن مروان والمسور بن مخرمة ، وكذلك قال الواقدى : خرج فى أول سنة سبع من الهجرة ، ولكن فى الاستدلال بذلك نظر ، فإن خروجه كان فى أواخر المحرم لا فى أوله ، وفتحها إنما كان فى صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبى ــ ﷺ ــ عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال وألا يفروا ، وكانت فى ذى القعدة ،

١ ــ انظر سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى ــ حـ ٣ صـ ٣٥٩ ــ ٣٦١ ــ فى فتح خيبر

ولكن لا دليل فى ذلك ؛ لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحينئذ بايع الصحابة ، ولا خلاف فى جواز القتال فى الشهر الحرام إذا بدأ العدو ، إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء ، فالجمهور أجوزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله .

وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ ، وكان عطاء يحلف بالله : ما يحل القتال فى الشهر الحرام ، ولا نسخ تحريمه شىء . وأقوى من هذين الاستدلالين الاستدلال بحصار النبى — صلى الله عليه وسلم — للطائف ، فإنه خرج إليها فى أواخر شوال ، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، فبعضها كان فى ذى القعدة ، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة ، ففتح الله عليه هوازن ، وقسم غنائمها ، ثم ذهب إلى الطائف ، فحاصرها بضعا وعشرين ليلة ، وهذا يقتضى أن بعضها فى ذى القعدة بلا شك . فهذا الحصار وقع فى ذى القعدة بلا ريب ، ومع هذا فلا دليل فى القضية ؛ لأن غزو الطائف كان من تمام غزو هوازن ، وهم بدؤوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فكان غزوهم من تمام الغزوة التى شرع فيها ، والله أعلم . وقال الله تعالى فى (سورة المائدة) وهى من آخر القرآن نزولاً ، وليس فيها منسوخ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ولا القلائد** ﴾[1]

وقال فى سورة البقرة : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله** ﴾ (البقرة : ٢١٧) ، فهاتان آيتان مدنيتان ، بينهما فى النزول نحو ثمانية أعوام ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله فانسخ لحكمها ، ولا أجمعت الأمة على نسخه ، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ (التوبة : ٣٦) ونحوها من العمومات ، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه ، ومن استدل عليه بأن النبى — صلى الله عليه وسلم — بعث أبا عامر فى سرية إلى أوطاس فى ذى القعدة ، فقد استدل بغير دليل ، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التى بدأ فيها المشركون بالقتال ، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم فى الشهر الحرام .

ومنها : قسمة الغنائم ، للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم .

ومنها : أنه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمسه كما أخذ عبد الله بن المقفل جراب الشحم الذى دُلى يوم خيبر ، واختص به بمحضر النبى — صلى الله عليه وسلم —

ومنها : تحريم لحوم الحُمُر الإنسية ، صح عنه تحريمها يوم خيبر ، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس ، وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرمها ؛ لأنها كانت ظهر القوم وحمولتهم ، فلما قيل له : فنى الظهر وأكلت الحمر ، حّرمها ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها لم تُخمس ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها كانت حول القرية ، وكانت تأكل العذرة ، وكل هذا فى « الصحيح »

١ — الآية : ٢ من سورة المائدة

لكن قول رسول الله ــ ﷺ ــ « إنها رجس » مقدم على هذا كله ، لأنه من ظن الراوى ، وقوله بخلاف التعليل بكونها رجس. ولا تعارض بين هذا التحريم وبين قوله تعالى ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به** ﴾ (الأنعام : ١٤٥)

فإن لم يكن قد حرم نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة ، والتحريم كان يتجدد شيئاً فشيئاً ، فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكت عنه النص ، لا أنه رافع لما أباحه القرآن ، ولا مخصص لعمومه ، فضلاً عن أن يكون ناسخاً . والله أعلم .

ومنها : جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع ، كما عامل رسول الله ــ ﷺ ــ أهل خيبر على ذلك ، واستمر ذلك إلى حين وفاته لم ينسخ البتة ، واستمر عمل خلفائه الراشدين عليه ، وليس هذا من باب المؤاجرة فى شىء ، بل من باب المشاركة ، وهو نظير المضاربة سواء ، فمن أباح المضاربة ، وحرم ذلك ، فقد فرق بين متماثلين .

ومنها : فرض الثمار على رؤوس النخل ، وقسمها كذلك ، وأن القسمة ليست بيعاً . ومنها : الاكتفاء بخارص واحد ، وقاسم واحد .

ومنها : جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام نسخه متى شاء .

ومنها : جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط ، كما عقد لهم رسول الله ــ ﷺ ــ أن لا يغيِّبوا ولا يكتموا .

ومنها : جواز تقرير أرباب التهم بالعقوبة ، وأن ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة .

ومنها : الأخذ فى الأحكام بالقرائن والأمارات ، كما قال النبى ــ ﷺ ــ لكنانة : « المال كثير ، والعهد قريب »[1] فاستدل بهذا على كذبه فى قوله : أذهبته الحروب والنفقة .

ومنها : أن من كان القول قوله اذا قامت قرينة على كذبه .. لم يلتفت إلى قوله ، ونزل منزلة الخائن .

ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئا مما شُرط عليهم ، لم يبق لهم ذمة ، وحَلت دماؤهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله ــ ﷺ ــ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا ، فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم ، فلم لم يفوا بالشرط ، استباح دماءهم وأموالهم . وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الشروط التى اشتراطها على أهل الذمة ، فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئا منها ، فقد حلَّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والعداوة .

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه ، كما تفاءل النبى ــ ﷺ ــ برؤية المساحى والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر ، فإن ذلك فأل فى خرابها .

---

١ ــ الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ١٣٧

ومنها : أن الإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمتها وتركها ، وقسم بعضها ، وترك بعضها .

ومنها : جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم ، كما قال النبى — ﷺ — « نقركم ما أقركم الله »[1] وقال لكبيرهم : « كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً » ، وأجلاهم عمر بعد موته — ﷺ — وهذا مذهب محمد بن جرير الطبرى ، وهو قول قوى يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة .

ومنها : جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره ، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن ، فمفسدة يسيرة فى جنب المصلحة التى حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذى حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سببا فى حصول هذه المصلحة الراجحة .

ومنها : جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وحل طعامهم .

فصل

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — من خيبر إلى وادى القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمى ، وهم على غير تعبئة ، فقتل مِدعم عبدُ رسول الله ﷺ **فقال الناس هنيئا له الجنة فقال النبى ﷺ : « كلا والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا »[2] ، فلما سمع بذلك الناس ، جاء رجل الى النبى ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبى ﷺ « شراك من نار أو شركان من نار »[3]** .

فعبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه للقتال ، وحفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عباده ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام ، فقتله ، ثم برز آخر ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقتله ، حتى قتلوا منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل ، دعا من بقى إلى الإسلام ، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ،

---

(١) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ٢٠٧
وفى صحيح البخارى — باب ما يجوز من الشروط فى الاسلام — حـ ٣ صـ ٢٥٢

(٢) الحديث بمعناه فى صحيح البخارى — كتاب الشروط — باب إذا اشترط فى المزارعة إذا شئت أخرجتك — حـ ٣ صـ ٢٥٢ ط الشعب

(٣) الحديث فى سنن النسائى — كتاب الأيمان والنذور — باب هل تدخل الأرضون فى المال إذا نذر حـ ٧ صـ ٢٢

وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، وأقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء **ماواطأ** عليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ أهل خيبر وفدك ووادى القرى ، صالحوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأقاموا بأموالهم ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى ؛ لأنهما داخلتان فى أرض الشام ، ويرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام .

وانصرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ راجعاً إلى المدينة .

ثالثاً :

فى عمرة القضية

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

قال نافع : كانت فى ذى القعدة سنة سبع . وقال سليمان التيمى لما رجع رسول الله ـــ ﷺ ـــ من خيبر بعث السرايا ـــ وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة ، ثم نادى فى الناس بالخروج .

قال موسى بن عقبة : ثم خرج رسول الله ـــ ﷺ ـــ من العام المقبل من عام الحديبية معتمرا فى ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج (موضع قرب مكة على ثمانية أميال) وضع الأداة كلها الحجف والمجانّ ، والنبل ، والرماح ، ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزف العامرية ، فخطبها إليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها العباس رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلما قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أمر أصحابه فقال :

« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا فى الطواف »[1] ليرى المشركون جلدهم وقوتهم . وكان يكايدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأصحابه يطوفون بالبيت ، وعبد الله بن رواحه بين يدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يرتجز متوشحاً بالسيف يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله   قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله   يارب إنى مؤمن بقيله
إنى رأيت الحق فى قبوله   اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقله   ويذهل الخليل عن خليله .

---

١ ـــ الحديث فى مجمع الزوائد ـــ كتاب المغازى والسير ـــ باب الحديبية وعمرة القضاء حـ ٦ صـ ١٤٦

وتغيب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ حنقاً وغيظاً ، فأقام رسول الله ــ ﷺ ــ **بمكة** ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع ، أتاه سهيل بن عمرو ، **وحويطب** بن عبد العزى ، ورسول الله ــ ﷺ ــ فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباده ، فصاح **حويطب** الله والعقد لما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث ، فقال سعد بن عبادة كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا نخرج ثم نادى رسول الله ــ ﷺ ــ **حويطب** وسهيلاً ، فقال : « إنى قد نكحت منكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونضع الطعام فنأكل ، وتأكلون معنا »[(١)] فقالوا : أنناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا ، فأمر رسول الله ــ ﷺ ــ أبا رافع ، فأذن بالرحيل ، وركب رسول الله ــ ﷺ ــ حتى نزل بطن سرف ، فأقام بها وخلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين **يمسى** ، فأقام حتى قدمت ومن معها ، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم ، فبنى بها بسرف ، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها .

وأما قول ابن عباس : إن رسول الله ــ ﷺ ــ تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال « فما استدرك عليه ، وعُد من وهمه ، قال سعيد بن المسيب : ووهم ابن عباس وأن كانت خالته ما تزوجها رسول الله ــ ﷺ ــ إلا بعد ما حَل[٢]

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة : « تزوجنى رسول الله ــ ﷺ ــ ونحن حلالان بسرف »[(٣)] رواه مسلم .

وقال أبو رافع : « تزوج رسول الله ــ ﷺ ــ ميمونة ، وهو حلال ، وبنى بها وهو حلال ، وكنت الرسول بينهما » صح ذلك عنه (أخرجه أحمد)[(٤)] .

وقد قيل : **إنه** تزوجها قبل أن يحرم ، وفى هذا نظر إلا أن يكون وكل فى العقد عليها قبل إحرامه ، وأظن الشافعى ذكر ذلك قولاً ، فالأقوال ثلاثة :

أحدها : أنه تزوجها بعد حَله من العمرة ، وهو قول ميمونة نفسها**وقول** السفير بينهما وبين رسول الله ــ ﷺ ــ وهو أبو رافع ، وقول سعيد بن المسيب وجمهور أهل النقل .

الثانى : أنه تزوجها وهو محرم ، وهو قول ابن عباس ، وأهل الكوفة وجماعة .

الثالث : أنه تزوجها قبل أن يحرم

١ ــ انظر سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ــ حـ ٤ صـ ١٤ باب عمرة القضاء

٢ ــ الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى جـ ٧ صـ ٥٨ ــ باب ما أبيح له من النكاح فى الإحرام
وفى سنن أبى داود ــ حـ ٢ صـ ٤٢٢ ، ٤٢٣

٣ ــ الحديث فى سنن الترمذى ــ كتاب الحج حـ ٢ صـ ١٦٨ ، ١٦٩
وفى صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٩ صـ ١٩٦

٤ ــ الحديث فى سنن الترمذى ــ كتاب الحج ــ حـ ٢ صـ ١٦٧ ، ١٦٨
وفى مسند أحمد حـ ٦ صـ ٣٣٢

وقد يُحمل قول ابن عباس أنه تزوجها ، وهو محرم على أنه تزوجها فى الشهر الحرام ، لا فى حال **الإحرام** ، قالوا ، ويقال : أحرم الرجل : إذا عقد الإحرام ، وأحرم : إذا دخل فى الشهر الحرام وإن كان حلالا وقد روى مسلم فى « صحيحه » من حديث عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ قال سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول « لا ينكح المحرم ولا ينكح ، ولا يخطب »[1] ولو قدر تعارض القول والفعل ها هنا ، لوجب تقديم القول ؛ لأن الفعل موافق للبراءة الأصلية ، والقول ناقل عنها ، فيكون رافعاً لحكم البراءة الأصلية ، وهذا موافق لقاعدة الأحكام ، ولو قدم الفعل ، لكان رافعاً لموجبَ القول ، والقول رافع لموجب البراءة الأصلية ، فيلزم تغيير الحكم مرتين ، وهو خلاف قاعدة الأحكام والله أعلم .

ولما أراد النبى ــ ﷺ ــ الخروج من مكة ، تبعتهم ابنة حمزة تنادى ياعم ياعم ، فتناولها على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ فأخذ بيدها وقال لفاطمة : **دونك** ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال على : أنا أخذتها ، وهى ابنة عمى ، وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى ، وقال زيد : ابنة أخى (يريد الإخاء الذى عقده رسول الله ــ ﷺ ــ بينه وبين حمزة لما واخى بين المهاجرين) فقضى بها رسول الله ــ ﷺ ــ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم »[2] وقال لعلى . « أنت منى وأنا منك »[3] ، وقال لجعفر « أشبهت خَلْقى وخُلُقى »[4] وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »[5] متفق على صحته .

وفى هذه القصة من الفقه : أن الخالة مقدمة فى الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين ، وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها ، نفى أحمد فى رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها فى الجارية خاصة ، واحتج بقصة بنت حمزة هذه .

وقد اختلف فى سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال :

أحدها : تسقط به ذكراً كان أو أنثى ، وهو قول مالك ، والشافعى وأبى حنيفة ، وأحمد فى إحدى الروايات عنه .

والثانى : لا تسقط بحال ، وهو قول الحسن ، وابن حزم

والثالث : إن كان الطفل بنتاً ، لم تسقط الحضانة ، وإن كان ذكرا سقطت وهذه رواية عن أحمد ــ رحمه الله ــ

والرابع : أنها إذا تزوجت بنسيب من الطفل ، لم تسقط حضانتها ، وإن تزوجت بأجنبى ، سقطت ...

---

١ ــ الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب النكاح ــ حـ ٢ صـ ١٠٣١ ، ١٠٣١

٢ ــ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٤٠٩ من رواية البخارى ومسلم والدارمى وابن عوانة

٣ ــ الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٩٨ ، ١٦٢

٤ ــ الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٩٨ ، ١٠٨

٥ ــ الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ــ باب عمرة القضاء حـ ٥ صـ ١٧٩ ، ١٨٠

فصل

واختلف فى تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء ، هل هو لكونها قضاء للعمرة التى صدوا عنها ، أو من المقاضاة ؟ على قولين تقدما ، قال الواقدى بسنده عن ابن عمر ، قال : لم تكن هذه العمرة قضاء ، ولكن كان شرطا على المسلمين أن يعتمروا فى الشهر الذى حاصرهم فيه المشركون .

واختلف الفقهاء فى ذلك على أربعة أقوال :

أحدها : أن من أحصر عن العمرة يلزمه الهدى والقضاء ، وهذا إحدى الروايات عن أحمد ، بل أشهرها عنه .

والثانى : لا قضاء عليه ، وعليه الهدى ، وهو قول الشافعى ، ومالك فى ظاهر مذهبه ، ورواية أبى طالب عن أحمد .

والثالث : يلزمه القضاء ، ولا هدى عليه ، وهو قول أبى حنيفة ،

والرابع : لا قضاء عليه ، ولا هدى ، وهو إحدى الروايات عن أحمد .

فمن أوجب عليه القضاء والهدى ، احتج بأن النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه نحروا الهدى حين صُدوا عن البيت ، ثم قضوا من قابل ، قالوا : والعمرة تلزم بالشروع فيها ، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها ، ونحر الهدى لأجل التحلل قبل تمامها ، وقالوا : وظاهر الآية يوجب الهدى ، لقوله تعالى ﴿ **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى** ﴾[1] . ومن لم يوجبها ، قالوا : لم يأمر النبى ـ ﷺ ـ الذين أحصروا بالقضاء ولا أحداً منهم ، ولا وقف الحل على نحرهم الهدى ، بل أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم ، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه . ومن أوجب الهدى دون القضاء احتج بقوله ﴿ **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى** ﴾[1] .

ومن أوجب القضاء دون الهدى ، احتج بأن العمرة تلزم بالشروع ، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار ، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق ، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً ، وبين فعلها فى وقت الإمكان شيئاً ، وظاهر القرآن يرد هذا القول ، ويوجب الهدى دون القضاء ، لأنه جعل الهدى هو جميع ما على المحصر ، فدل على أنه يكتفى به منه والله أعلم .

وفى نحره ـ ﷺ ـ وحلّه ، دليل على أنّ المحصر بالعمرة يتحلل ، وهذا قول الجمهور .

وفى ذبحه ـ ﷺ ـ بالحديبية وهى من الحل بالاتفاق ، دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم ، وهذا قول الجمهور ، وأحمد ومالك والشافعى . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه ليس

---

١ ـ الآية ١٩٦ من سورة البقرة

له نحر هديه إلا فى الحرم ، فيبعثه إلى الحرم ، ويواطىء رجلاً على أن ينحره فى وقت يتحلل فيه ، وهذا يروى عن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ وجماعة من التابعين . وهو قول أبى حنيفه .

وهذا إن صح عنهم فينبغى حملة على الحصر الخاص ، وهو أن يتعرض ظالم لجماعة أو لواحد ، وأما الحصر العام ، فالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ ـــ تدل على خلافه ، والحديبية من الحل باتفاق الناس ، وقد قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم ، قلت : ومراده أن أطرافها من الحرم وإلا فهى من الحل باتفاقهم ...

رابعاً :

فى الفتح الأعظم (فتح مكة)

الذى أعز الله به دينه ، ورسوله ، وجنده ، وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا ، فرج له رسول الله ـــ ﷺ ـــ بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبارهُم كلثوم بن حصين الغفارى ، وقال ابن سعد بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم .

وكان السبب الذى جر إليه ، وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازى والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار ، أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة ـــ وهم على ماء يقال له : الوتير ـــ فبيتوهم وقتلوا منهم ، وكان الذى هاج ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى يقال له : مالك بن عباد خرج تاجرا ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من بنى خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة على بنى الأسود وهم سلمى ، وكلتوم ، وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، هذا كله قبل المبعث ، فلما بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ وجاء الإسلام ، حجز بينهم ، وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ـــ ﷺ ـــ وبين قريش ، وقع الشرط : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم ، فعل ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ـــ ﷺ ـــ وعهده ، فلما استمرت الهدنة ، اغتنمها بنو بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فى جماعة من بنى بكر ، فبيت خزاعة وهم على الوتير ، فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ليلاً ، ذكر ابن سعد منهم : صفوان بن أمية ، **وحويطب** بن عبد العزى ، ومكيرز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة :

لا إله له اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ !
فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم يقال له : رافع ، ويخرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه فقال :

يارب إنى ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الاتلدا .
قد كنتم ولداً وكنا والدا ... ثُمت أسلمنا ولم تنزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أبدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
إن سيم خسفا وجهه تربَّدا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا ... وزعموا أن لست تدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا ... هم بيوتا بالوتير هجَّدا

وقتلونا ركعاً وسجداً

يقول : قُتلنا وقد أسلمنا ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « نُصرت ياعمرو بن سالم » ثم عرضت سحابة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال « إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب » ، ثم خرج بدُيل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — للناس « كأنكم بأبى سفيان ، وقد جاء ليشد العقد ويزيد فى المدة »[1] .

ومضى بديل بن ورقاء فى أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان وقد بعثته قريش إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا ، فلما لقى أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أقبلت يابديل ؟ فظن أنه أتى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادى ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبه ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — طوته عنه ، فقال : يابُنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنت مشرك نجس ، فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٢

ثم خرج حتى أتى رسول الله ــ ﷺ ــ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : ياعلى إنك أمسّ القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ــ ﷺ ــ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : « هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ــ ﷺ ــ قال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ، قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى ما أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ! إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله مارد علىَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار علىَّ بشىء صنعته فوالله ما أدرى ، هل يغنى عنى شيئاً ، أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت ، فقالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ــ ﷺ ــ فقال ، أى بنية ، أمر كن رسول الله ــ ﷺ ــ بتجهيزه ؟ قالت : نعم ، فأين ترينه يريد ، قالت : لا والله ما أدرى ثم إن رسول الله ــ ﷺ ــ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، فأمرهم بالجد والتجهيز ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها »[1] فتجهز الناس . فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ــ ﷺ ــ إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته فى قرون فى رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ــ ﷺ ــ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما ، حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب ، ففتشا رحلها ، فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على ــ رضى الله عنه ــ أحلف بالله ما كذب رسول الله ــ ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجدَّ منه ، قالت : أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ،

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤

فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ـــ ﷺ ـــ حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل على يارسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ، ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة ، يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، فقال عمر بن الخطاب : دعنى يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : ـــ « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك ياعمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم »[١] فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو صائم ، والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد ـــ وهو الذى تسميه الناس اليوم قديدا ـــ أفطر وأفطر الناس معه . (أخرجه البخارى)

ثم مضى حتى أنزل مر الظهران ، وهو بطن مَرٍّ ، ومعه عشرة آلاف ، وعمّى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالجحفة ، وقيل : فوق ذلك ، وكان ممن لقيه فى الطريق ابن عمه سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبى أمية لقياه بالأبواء ، وهما ابن عمه وابن عمته ، فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبى سفيان فيما حكاه أبو عمر : أئت رسول الله ـــ ﷺ ـــ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾[٢] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ـــ ﷺ ـــ « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[٣]

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إنى حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هادٍ غير نفسى ودلنى ... على الله من طرَّدت كل مطرَّد

فضرب رسول الله ـــ ﷺ ـــ صدره وقال : « أنت طردتنى كل مطرَّد »[٣] وحسن إسلامه بعد ذلك .

---

١ ـــ الآية : ٩١ من سورة يوسف ٢ ـــ الآية ٩٢ من سورة يوسف

٣ ـــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٠

وفى المستدرك للحاكم حـ ٣ صـ ٤٣ ، ٤٤ ، وسنده جيد ، وصححه الحاكم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى

ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحبه وشهد له بالجنة وقال : « أرجو أن يكون خلفاً من حمزة »[1] ولما حضرته الوفاة ؛ قال : لا تبكوا عليَّ ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت .

فلما نزل رسول الله ـ ﷺ ـ مر الظهران ، نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ـ ﷺ ـ الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وركب العباس بغلة رسول الله ـ ﷺ ـ البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحَطابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ـ ﷺ ـ قبل أن يدخلها عنوة ، قال : والله إنى لأسير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة فعرف صوتى ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : ما لك فداك أبى وأمى ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ـ ﷺ ـ فى الناس واصبَاحَ قريش والله : ، قال : فما الحيلة فداك أبى وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ـ ﷺ ـ فاستأمنه لك ، فركب خلفى ورجع صاحباه ، قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : « من هذا ؟ » فإذا رأوا بغلة رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : عمُّ رسول الله ـ ﷺ ـ على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلَّى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ـ ﷺ ـ ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله : هذا أبو سفيان ، فدعنى أضرب عنقه ، قال : قلت : يارسول الله ـ ﷺ ـ إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شأنه ، قلت : مهلا ياعمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً ياعباس ، « فوالله لأسلامك كان أحب إلّى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » فذهبت فلما أصبحت ، غدوت به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلا الله إلا الله ؟ »[2] قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك ،

---

١ ـ الحديث فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ فى ترجمة أبى سفيان بن الحارث القرشى حـ ٦ صـ ١٤٦ رقم ٥٩٥٩

٢ ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٢

وأكرمك ، وأوصلك ، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئاً بعد ، قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمَّا هذه ، فإن فى النفس حتى الآن منها شيئا ، فقال له العباس ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام ، فهو آمن »[1] .

وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله ، فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : ياعباس ، من هذه ؟ فأقول : سُليم ، قال : فيقول : مالى ولسُليم ، ثم تمر به القبيلة ، فيقول : ياعباس ! من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا أخبرته بهم قال : مالى ولبنى فلان حتى مر به رسول الله — ﷺ — فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحَدَقَ من الحديد قال : سبحان الله ياعباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله — ﷺ — فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، قال : قلت يأأبا سفيان : إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قال : قلت : النجاء إلى قومك .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان ، قال له ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله — ﷺ أبا سفيان ، قال : يارسول — ﷺ — ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ، فقال : كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يارسول الله ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله — ﷺ — « بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ثم أرسل رسول الله — ﷺ — إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه ، قال أبو عمر : وروُى أن النبى — ﷺ — لما نزع منه الراية ، دفعها إلى الزبير .

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشا ، صرخ بأعلى صوته يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت اقتلوا الحميت الدسم ، الأحمش الساقين ، قُبح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، من دخل دار أبى سفيان ، فهو آمن ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وسار رسول الله — ﷺ — فدخل مكة

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ صـ ٢٢

من أعلاها ، وضُربت له هنالك قبة ، وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ خالد بن الوليد أن يدخلها من أسلفها ، وكان على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم ، وسليم ، وغِفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، وقال لخالد ومن معه : إن عرض لكم أحد من قريش ، فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا ، فما عرض لهم أحد إلا أناموه ، وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ــ ﷺ ــ فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شىء ، قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى عله هـذا سلاح كامـل وألّـه
وذو غِرارين سريع السَّلَّهْ

ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كُرزين جابر الفهرى ، وخُنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين ، وكانا فى خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً ، ثم انهزموا ، وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقى علىَّ بابى ، فقالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا نسمع إلا غمغمة لهم نهيت خلفنا **وهمهمة**
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة .

وركُزت رايةُ رسول الله ــ ﷺ ــ بالحجون عند مسجد الفتح .

ثم نهض رسول الله ــ ﷺ ــ والمهاجرون والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود **فاستلمه** ، ثم طاف بالبيت ، وفى يده قوس ، وحول البيت ، وعليه ثلاثمائة وستون **صنما** ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد)[1] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرما يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال :

---

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٧ وفى صحيح البخارى ــ باب غزوة الفتح حـ ٥ صـ ١٨٨

« قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط »[١] ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت .

ثم أغلق الباب ، وعليٌّ وأسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صنوفاً ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضا وتى الباب ، وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال أو دم ، فهو تحت قدمى هاتين الإسدانة وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ »[١] قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه على ــ رضى الله عنه ــ ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية ــ ﷺ ــ فقال رسول الله ــ ﷺ ــ « أين عثمان بن طلحة ؟ »[١]فدعى له ، فقال له : « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء »[٢]

وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسير ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى ــ ﷺ ــ فقال لهم : « قد علمت الذى قلتم »[٣] ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك ثم دخل رسول الله ــ ﷺ ــ دار أم هانىء بنت أبى طالب ، فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكانت ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً ، صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله ــ ﷺ ــ وفى القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله عليه ، فإنها قالت : ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٢
٢ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٢
٣ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٣

وأجارت أم هانىء حموين لها ، فقال لها رسول الله ـ ﷺ ـ : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء »[١] .

ولما استقر الفتح ، أمَّن رسول الله ـ ﷺ ـ الناس كلهم إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت ستار الكعبة ، وهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعبد العزى بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابة ، وهَّبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، كانت تغنيان بهجاء رسول الله ـ ﷺ ـ ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب .

فأما ابن أبى سرح فأسلم ، فجاء به عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ـ ﷺ ـ فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك ، وهاجر ، ثم أرتد ، ورجع إلى مكة . وأما ابن خطل ، والحارث ، ومقيس ، وإحدى القينتين ، فقتلوا ، وكان مقيس ، قد أسلم ، ثم ارتد وقتل ، ولحق بالمشركين ، وأما هَّبار بن الأسود ، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ـ ﷺ ـ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ـ ﷺ ـ لسارة ولإحدى القينتين ، فأمنهما فأسلمتا .

فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله ـ ﷺ ـ فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجَّده بما هو أهله ، ثم قال : « يا أيها الناس إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ـ ﷺ ـ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » (اخرجه البخارى)[٢] .

ولما فتح الله مكة على رسوله ،وهى بلده ، ووطنه ، ومولده ، قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ـ ﷺ ـ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ، وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه ؟ فلما فرغ من دعائه ، قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شىء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم » (أخرجه مسلم)[٣]

(١)ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣١
(٢)ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٥ ، ٣٦
وفى صحيح البخارى ـ باب غزوة الفتح ـ حـ ٥ صـ ١٩٤ ط الشعب
(٣)ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٦ .
وفى صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٦ ، ١٤٠٨

وهمَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله ـ ﷺ ـ أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك[٢] ؟ » قال : لا شيء كنت أذكر الله ، فضحك النبي ـ ﷺ ـ ثم قال : « استغفر الله »[٣] ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلَّى منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو قد رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسُّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفر يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فأما صفوان ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ـ ﷺ ـ فأمنه وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده ، فقال اجعلنى فيه بالخيار شهرين ، فقال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام تحت عكرمة بن أبى جهل فأسلمت ، واستأمنت له رسول الله ـ ﷺ ـ فأمنه فلحقت به باليمن ، فأمنته فردته ، وأقرهما رسول الله ـ ﷺ ـ هو وصفوان على نكاحهما الأول .

ثم أمر رسول الله ـ ﷺ ـ تميم بن أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم (حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم) ، وبث رسول الله ـ ﷺ ـ سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره » .

فصل
فى الإشارة إلى ما فى الغزوة من الفقه واللطائف

قال ابن القيم :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، آمن الناس به ، وكلَّم بعضهم بعضاً وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ،

---

١ ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٣

٢ ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٧

ودخل بتسببه بشر كثير فى الإسلام ، ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ نزلت فى شأن الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : « نعم »[1] وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحاً فقال ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ إلى قوله ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ .

وهذا شأنه سبحانه وتعالى أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبهة عليها ، كما قدم بين يدى قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا ، وخلق الوَلد له مع كونه كبيرا لا يولد لمثله ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه ، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ ، وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له ، وهكذا ما قدم بين يدى مبعث رسوله — ﷺ — من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله — ﷺ — كانت مقدمة بين يدى الوحى فى اليقظة ، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد ، ومن تأمل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر كلمته الألباب .

وفيها : أن أهل العهد إذا حاربوا من هم فى ذمة الإمام وجواره وعهده ، صاروا حرباً له بذلك ، ولم يبق بينهم وبينه عهد ، فله أن يبيتهم فى ديارهم ، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء ، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة ، فإذا تحققها ، صاروا نابذين لعهده .

وفيها : انتقاض عهد جميعهم بذلك ، ردئهم ومباشريهم إذا رضوا بذلك ، وأقروا عليه ولم ينكروه ، فإن الذين أعانوا بنى بكر من قريش بعضهم ، لم يقاتلوا كلهم معهم ، ومع هذا فغزاهم رسول الله — ﷺ — كلهم ، وهذا كما أنهم دخلوا فى عقد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح ، إذ قد رضوا به وأقروا عليه ، فكذلك حكم نقضهم للعهد ، هذا هدى رسول الله — ﷺ — لا شك فيه كما ترى ...

وهذا حكم قطاع الطريق ، حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأن المباشر إنما باشر الإفساد بقوة الباقين ، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ، وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ، وهو مذهب أحمد ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وغيرهم .

وفيها : جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين ، وهل يجوز فوق ذلك ، الصواب : أنه يجوز للحاجه والمصلحة الراجحة كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم ، وفى العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

---

١ — انظر تفسير ابن كثير حـ ٧ صـ ٣٠٨ — تفسير سورة الفتح والحديث فى مسند أحمد حـ ٣ صـ ٤٨٦

وفيها : أن الإمام وغيره إذا سئل ما لايجوز بذله ، أو لا يجب ، فسكت عن بذله ، لم يكن سكوته بذلا له ، فإن أبا سفيان سأل رسول الله ــ ﷺ ــ تجديد العهد ، فسكت رسول الله ــ ﷺ ــ و لم يجبه بشيء ، و لم يكن بهذا السكوت معاهداً له .

وفيها : أن رسول الكفار لا يقتل ، فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ، و لم يقتله رسول الله ــ ﷺ ــ إذ كان رسول قومه إليه .

وفيها : جواز تبيت الكفار ، ومغافضتهم (أى أخذهم على غرة) فى ديارهم إذ كانت قد بلغتهم الدعوة ، وقد كانت سرايا رسول الله ــ ﷺ ــ يبيتون الكفار ، ويغيرون عليهم بإذنه بعد أن بلغتهم دعوته .

وفيها : جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً ؛ لأن عمر ــ رضى الله عنه ــ سأل رسول الله ــ ﷺ ــ قتل حاطب بن أبى بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ، و لم يقل رسول الله ــ ﷺ ــ : لا يحل قتله أنه مسلم ، بل قال : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم »[1] فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله ، وهو شهوده بدراً ، وفى الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع ، وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين فى مذهبا أحمد ، وقال الشافعى وأبو حنيفه : لا يُقتل ، وهو ظاهر مذهب أحمد ، والفريقان يحتجون بقصة حاطب ، والصحيح أن قتله راجع إلى الإمام ، فإن رأى فى قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح ، استبقاه ، والله أعلم .

وفيها : جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة ، فإن علياً والمقداد قالا للظعينة : لتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

وفيها : أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإن لا يكفر بذلك ، بل لا يأثم به ، بل يثاب على نيته وقصده ، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويُبِّدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفّروه وبدّعوه .

وفيها : أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجسُّ من حاطب بشهوده بدراً ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة ، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرحه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسِّ من المفسدة ، وتضمّنته من بغض الله لها ، فغلبَ الأقوى على الأضعف ، فأزاله ، وأبطل مقتضاه ، وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات ، الموجبين لصحة القلب ومرضه ، وهى نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منها يقهر المغلوب ، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف ، فهذه حكمته فى خلقه وقضائه ، وتلك حكمته فى شرعه وأمره ...

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ١ صـ ٣٣١

فتأمل قوة إيمان حاطب التى حملته على شهود بدر ، وبذله نفسه مع رسول الله — ﷺ — وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرانى العدو ، وفى بلدهم ، ولم يثن ذلك عنان عزمه ، ولا فلَّ من حد إيمانه ومواجهته للقتال من أهله وعشيرته وأقاربه عندهم فلما جاء مرضى الجسيِّ ، برزت إليه هذه القوة ، وكان البُحرانُ صالحاً فاندفع المرضى ، وقام المريض ، كأن لم يكن به قَلَبَه ولما رأى الصبيب قوة إيمانه قد استعملت على مرض جسه وقهرته ، قال لمن أراد فصده : لا يحتاج هذا العارفى إلى فصاد ، « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم »[1] وعكس هذا ذو الخويصرة التميمى وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم فى الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يَحقُر أحد الصحابة عمله معه ، كيف قال فيهم : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »[2] وقال « اقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم »[3] . وقال « شر قتلى تحت أديم السماء » (أخرجه مسلم) . فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة .

وتأمل فى حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة فى نفسه ، لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ، ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به ، وكذلك الذى آتاه الله آياته ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله ، فالمعوَّل على السرائر والمقاصد والنيات والهمم ، فهى الإكسير الذى يقلب نحاس الأعمال ذهباً ، أو يردها خَبَثاً ، وبالله التوفيق .

ومن له لب وعقل ، يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته فى خلقه ، وأمره ، وثوابه ، وعقابه ، وأحكام الموازنة ، وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن فى المعاش والمعاد ، وتفاوت المراتب فى ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

وفيها : جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسل العدو إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام ، كما أمر النبى — ﷺ — بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة ، وأمر العباسى أن يحبس أبا سفيان عند حظيم الجبل ، وهو ما تضايق منه حتى عرضت عليه عساكر الإسلام ، وعصابة التوحيد وجند الله ، وعرضت عليه خاصكية رسول الله — ﷺ — (وهم الجند الخاص بحراسة الأمير) وهم فى السلاح منهم إلا الحدق ، ثم أرسله ، فأخبر قريشا بما رأى .

وفيها : جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام ، كما دخل رسول الله — ﷺ — والمسلمون ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا خلاف أنه لا يدخلها من أراد الحج أو العمرة إلا بإحرام ، واختلف فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخول لحاجه متكررة ، كالحشَّاش والحطَّاب على ثلاثة أقوال :

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٧
٢ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — حـ ٢ صـ ٧٤٢
٣ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — حـ ٢ صـ ٧٤٧

أحدها : لا يجوز دخولها إلا بإحرام ، وهذا مذهب ابن عباس — رضى الله عنه — وأحمد فى ظاهر مذهبه ، والشافعى فى أحد قوليه .

والثانى : أنه كالحشاش والحطاب ، فيدخلها بغير إحرام ، وهذا القول الآخر للشافعى ، ورواية عن أحمد .

والثالث : أنه إن كان داخل المواقيت ، جاز دخوله بغير إحرام ، وإن كان خارج المواقيت ، لم يدخل إلا بإحرام ، وهذا مذهب أبى حنيفه ، وهدى رسول الله — ﷺ — معلوم فى المجاهد ، ومريد النسك ، وأما من عداهما فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، أو أجمعت عليه الأمة .

وفى القصة : أن النبى — ﷺ — دخل البيت ، وصلى فيه ، ولم يدخله حتى محيث الصور منه ، ففيه دليل على كراهية الصلاة فى المكان المصور ، وهذا أحق بالكراهة من الصلاة فى الحمام ؛ لأن كراهة الصلاة فى الحمام ، إما لكونه مظنة النجاسة ، وإما لكونه بيت الشيطان ، وهو الصحيح ، وأما محل الصور ، فمظنة الشرك ، وغالب شرك الأمم كان من جهة الصور والتبور .

وفى القصة : أنه دخل مكة ، وعليه عمامة سوداء ، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانا ، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعارا لهم ، ولولاتهم ، وقضاتهم ، وخطبائهم والنبى — ﷺ — لم يلبسه لباساً راتباً ، ولا كان شعاره فى الأعياد ، والجمع ، والمجامع العظام البتة ، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة ، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد ، بل كان لواؤه أبيض . وفى قصة الفتح من الفقه : جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبى — ﷺ — أمان أم هانىء لحمويها . وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذى تغلظت ردته من غير اشتابه ، فإن عبد الله بن مسعد بن أبى سرح كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحى لرسول الله — ﷺ — ثم ارتد ، ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله — ﷺ — ليبايعه فأمسك عنه طويلاً ، ثم بايعه ، وقال : « إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم ، فيضرب عنقه » فقال له رجل : هَّلا أومأت إلَّى يارسول الله ؟ فقال : « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . (أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبى)[1] فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه ، وهجرته ، وكتابة الوحى ، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن فى الإسلام ويعيبه ، وكان رسول الله — ﷺ — يريد قتله ، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبى — ﷺ — بقتله حياء من عثمان ، ولم يبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله ، فهابوا رسول الله — ﷺ — أن يقدموا على قتله بغير إذنه ، واستحيى رسول الله — ﷺ — من عثمان ، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح ، فبايعه ، وكان ممن

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٩

استثنى الله بقوله : ﴿ **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾[1] .

وقوله ـ ﷺ ـ « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين »[2] أى : أن النبى ـ ﷺ ـ لا يخالف ظاهره باطنه ، ولا سره علانيته ، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يُوم به ، بل صرّح به وأعلنه ، وأظهره .

خامساً : غزوة حنين .

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

فى غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس .

وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة هوازن ؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ـ ﷺ ـ

قال ابن إسحاق : ولما سمعت هوازن برسول الله ـ ﷺ ـ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصْرى واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت إليه مُضر وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، ولم يحضرها من هوازن كعب ، ولا كلاب ، وفى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأية ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرَّباً ، وفى ثقيف سيدان لهم ، وفى الأحلاف قارب بن الأسود ، وفى بنى مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى ، فلما أجمع السير إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حَزن خيرس ، ولا سهل دهْس . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبكاء الصبى ، ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم . قال أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودُعى له : قال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ ! قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم فقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،

---

١ ـ الآيات ٨٦ إلى ٨٩ من سورة آل عمران

٢ ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٩

وإن كانت عليك ، فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها أحد منهم . قال : غاب الحد والجِدُ ، لو كان يوم علاء ورفعة ، لم تغب عنا كعب ولا كلاب **ولــوددت** أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ؟ قال : ذانك الجذَعَانِ من عامر (يريد أنهما ضعيفان فى الحرب) ولا ينفعان ولا يضران . يامالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنّع بلادهم وعُليا قومهم ، ثم الق الصُباة على متون الخيل فإن كانت لك ، لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك ألفاك ذلك ، وقد أحرزت أهلك ومالك ، قال : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتُطيعُنّنى يامعشر هوازن ، أو لأتكِئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فقالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفُتنى .

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد ، وبعث عيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلقٍ ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فوالله مارده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

ولما سمع بهم نبى الله ــ ﷺ ــ بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلحة ، وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبى حدرد ، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ــ ﷺ ــ وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ــ ﷺ ــ فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله ــ ﷺ ــ السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : « ياأبا أمية ! أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً » فقال صفوان : أغصباً يامحمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك »[١] ، فقال ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله ــ ﷺ ــ سأله أن يكفيهم حملها ، ففعل .

ثم خرجَ رسول الله ــ ﷺ ــ معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً ، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما إستقبلنا وادى حنين انحدرنا فى وادى من أودية تهامة أجوف حطوط (منحدر) ، إنما تنحدر فيه انحداراً . قال : وفى عماية الصباح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأصنائه ومضايقه قد أجمعوا ، وتهيؤوا ، وأعدوا فوالله ما راعنا ــ ونحن منحطُّون ــ إلا الكتائب ،

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ ــ ٦٨

قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذات اليمين ، ثم قال : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلىَّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله »[١] ، وبقى مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه ، والفضل بن العباسى ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن ، وقتل يومئذ .

قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك ، طعن برمحه ، وإذا فاته الناس ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه على بن أبى طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ، قال : فأتى علىٌّ بن خلفه ، فضرب عرقوبى الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل ، فضربه ضربة أطعن قدمه بنصف ساقه ، فانجعف عن رحله ، قال : فاجتلد الناس ، قال : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المسلمون ، ورأى من كان مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من جفاة أهل مكة الهزيمة فكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضِّغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه فى كنانته ، وصرخ جبلة بن الحنبل — وقال ابن هشام : صوابه كَلَدة — ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يُربَّنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن وقال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى ، عن كثير بن العباس ، عن أبيه العباس بن عبد المطلب ، قال : إنى لمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — آخذ بحكمة بغلته البيضاء ، قد شجرتها بها ، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ، قال : رسول الله — يقول حين رأى ما رأى من الناس : « إلى أين أيها الناس ؟ » . قال : فلم أر الناس يلوون على شىء ، فقال : « ياعباس اصرخ : يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السَّمُرة » ، فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار ، ثم خلصت آخراً : ياللخزرج ، وكان صبُراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم ، وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حمى الوطيس »[١] وزاد غيره .

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٧٢

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »(٤)

وفى « صحيح مسلم » : ثم أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصيات ، فرمى بها فى وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد »(٥) فما هو إلا أن رماهم ، فمازلت أرى أحدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً . وفى لفظ له . إنه نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، وقال : « شاهت الوجوه »(١) فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين .

وذكر ابن اسحاق عن جبير بن مطعم ، قال : لقد رأيت ـ قبل هزيمة القوم ، والناس يقتتلون يوم حنين ـ مثل البجاد الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا انمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فلم أشك أنها الملائكة .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى ، وهو ابن أخيه ، فقاتلهم ففتح الله عليه ، فهزمهم الله ، وقتل قاتل أبى عامر ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم اغفر لعبيد أبى عامر وأهله ، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك واستغفر لأبى موسى »(٢) .

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بحصن ثقيف ، وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسبى والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ، ووجهوه إلى الجعرانة ، وكان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى بهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة .

ثم بدأ بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ، ومائة من الإبل فقال : ابنى يزيد ؟ فقال : « أعطوه أربعين أوقية ومائه من الإبل »(٣) فقال : ابنى معاوية ؟ قال : « أعطوه أربعين أوقية ، ومائة من الإبل »(٤) ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ،

١ ـ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٥٥٤ من رواية مسلم وأحمد والطبرانى فى الكبير وفى صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ حـ ٣ صـ ١٤٠٢

وفى مسند أحمد حـ ١ صـ ٣٦٨ ، صـ ٢٨٦

٢ ـ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٣٨٨ عن رواية البخارى ومسلم وفى صحيح البخارى ـ باب أوطاس حـ ٥ صـ ١٩٨ ط الشعب وفى صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ حـ ٤ صـ ١٩٤٣ ، ١٩٤٤

٣ ، ٤ ـ الحديث بمعناه فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ فى ترجمة أبى سفيان الأموى وهو : صخر بن حرب رقم ٢٤٨٤

ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث بن كلده مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفى خمسين ، وذكر أصحاب المائة — وأصحاب ا لخمسين — وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال فى ذلك شعرا ، فكمل له المائة . ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ، ثم فضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة . فإن كان فارساً أخذ اثنى عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى من تلك العطايا فى قريش ، وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله — ﷺ — قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يارسول الله ! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شيء . ه

قال : « فأين أنت من ذلك ياسعد »[1] قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومى . قال : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ؟ »[2] قال : فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا ، أتى سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله — ﷺ — فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يامعشر الأنصار مقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بى ،

وعالة فأغناكم الله بى وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ »[1] قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ »[2] قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ، لله ولرسوله المنّ والفضل . قال : « أما والله لو شئتم ، لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكُذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أوجدتم علىَّ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعةٍ من الدنيا تتألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضَوْن يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله — ﷺ — إلى رحالكم ، فوالذى نفسى محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة ، لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً وواديًا لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار[3] قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله — ﷺ — وتفرقوا . وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله — ﷺ — من الرضاعة ، فقالت : يارسول إنى أختك من

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧.
٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧
٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧

الرضاعة ، وقال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتنيها فى ظهرى ، وأنا متوركتك . قال : فعرف رسول الله ــ ﷺ ــ العلامة ، فبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه وخيرها ، فقال : « إن أحببت الإقامة فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فترجعى إلى قومك »[1] قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ، ففعل فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له : مكحول وجارية ، فزوجت إحداهما من الآخر ، فلم يزل من نسلهما بقية . وقال أبو عمر : فأسلمت فأعطاها رسول الله ــ ﷺ ــ ثلاثة أعبد وجارية ، ونعماً ، وشاء ، وسماها حذافة . وقال : والشيماء لقب .

فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهيه والنكت الحكمية

كان الله ــ عز وجل ــ قد وعد رسوله ــ وهو صادق الوعد ــ أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس فى دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ــ ﷺ ــ والمسلمين ، ليظهر أمر الله ، وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله ــ سبحانه ــ رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين .

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم ، وعُددهم ، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ــ ﷺ ــ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه ، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمهُ وبلده ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : « لن نغلب اليوم عن قلة » أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره ، فلا غالب له ، ومن يخذله ، فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينه ، لاكثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت إليها خِلَعُ الجبر مع بريد النصر فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وقد اقتضت حكمته أن خِلَعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)[2] .

---

١ ــ الحديث فى سيرة ابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٩١

٢ ــ الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القصص

ومنها : أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ، ولامتاعاً ، ولا سببا ، ولا أرضاً كما روى أبو داود عن وهب بن منبهْ ، قال سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوها بايجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم ، وشائهم ، وسبيهم معهم نزلاً ، وضيافة ، وكرامة ، لحزبه وجُنده ، وتَّم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادىء النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا فى دمائكم ، ولا فى نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاؤوا مسلمين . فقيل : إن من شكر إسلامكم وأيتانكم ، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و(إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)[1] .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدرٌ وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبى — ﷺ — رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين أطفئت جمرة العرب لغزو رسول الله — ﷺ — والمسلمين . فالأولى : خوفتهم وكسرت من حَدِّهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُدّاً من الدخول فى دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرَّحهم بم نالوه من النصر والمغنم ، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم ، لأكلهم عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى .

وفيها : من الفقه أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم ، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له ، وفى جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم ، بل يسير إليهم ، كما سار رسول الله — ﷺ — إلى هوازن حتى لقيهم بحنين .

ومنها : أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه كما استعار رسول الله — ﷺ — أدراع صفوان ، وهو يومئذ مشرك .

ومنها : أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً ، فإن رسول الله — ﷺ — وأصحابه أكمل الخلق توكلاً ، وإنما كانوا يلقون عدوهم ، وهم متحصنون بأنواع السلاح ،

---

١ — الآية ٧٠ من سورة الأنفال

ودخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة ، والبيضة على رأسه ، وقد أنزل الله عليه : (والله يعصمك من الناس)[1] وكثير ممن لا تحقيق عنده ، ولا رسوخ فى العلم يتشكل هذا ، ويتكايس فى الجواب تارة بأن هذا فعله تعليماً للأمة ، وتارة بأن هذا كان قبل نزوله الآية . ووقعت فى مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء ، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر فى « تاريخه الكبير » أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاماً قدم له حتى يأكل منه من قدمه .

قالوا : وفى هذا أسوة للملوك فى ذلك . فقال قائل : كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة ، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه .

وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث ، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية ، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها . ولو تأملّ هؤلاء أن ضمان الله له العصمة ، لا ينافى تعاطيه لأسبابها ، لأغناهم عن هذا التكلف ، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس ، ولا ينافيه ، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويعليه ، لا يناقض أمره بالقتال وإعداد العدة ، والقوة ، ورباط الخيل ، والأخذ بالجد ، والحذر ، والاحتراس من عدوه ، ومحاربته بأنواع الحرب والتورية ، فكان إذا أراد الغزوة ، ورَّى بغيرها ، وذلك لأن هذا إخبار من الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى ذلك مقتضية له وهو ـــ ﷺ ـــ أعلم بربه وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التى جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر ، وإظهار دينه ، وغلبته لعدوه ، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء وزعم أنه لا فائدة فيه ، لأن المسؤول إن كان قد قدر ، ناله ولابد ، وإن لم يقدر ، لم ينله ، فأى فائدة فى الاشتغال بالدعاء ؟ ثم تكايس فى الجواب بأن قال ـــ الدعاء عبادة ، فيقال لهذا الغالط ، بقى عليك قسم آخر ـــ وهو الحق ـــ أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن يتعاطاه ، حصل له المطلوب ، وإن عطل السبب ، فإنه المطلوب ، والدعاء من أعظم الأسباب فى حصول المطلوب ، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لى الشبع ، فأنا أشبع ، أكلت أو لم آكل ، وإن لم يقدر لى الشبع ، لم أشبع أكلت أو لم آكل ، فما فائدة الأكل ؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه ، وبالله التوفيق .

ومنها : عفو رسول الله ـــ ﷺ ـــ عمن همَّ بقتله ولم يعاجله ، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد ، كأنه ولى حميم

---

١ ـــ الآية ٦٧ من سورة المائدة

ومنها : ماظهر فى هذه الغزوة من معجزات النبوة وآيات الرسالة من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه ، وقد تولى عنه الناس ، وهو يقول :

أنا النبى لاكذب ــ أنا ابن عبد المطلب(١)

ومنها : إيصال الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه ، وبركته فى تلك القبضة ، حتى ملأت أعين القوم ، إلى غير ذلك من معجزات فيها ، كنزول الملائكة للقتال معه ، حتى رآهم جهرة ورآهم بعض المسلمين .

سادساً : غزوة الطائف :

فى غزوة الطائف

قال العلامة ابن قيم الجوزية فى « زاد المعاد » « فى شوال سنة ثمان . قال ابن سعد : قالوا ولما أراد رسول الله ــ ﷺ ــ المسير إلى الطائف ، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين : صنم عمرو بن حممة الدوسى ، يهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ، ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشى النار فى وجهه ويحرِّقه ويقول :

ياذا الكفين لست من عُبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا
إنى حششت النار فى فؤادكا .

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً ، فوافوا النبى ــ ﷺ ــ بعد مقدمة بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق قال ابن سعد : ولما خرج رسول الله ــ ﷺ ــ من حنين يريد الطائف قدم خالد بن الوليد على مقدمته ، وكانت ثقيف قد رمُّوا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس ، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم ، وتهيؤوا للقتال ، وسار رسول الله ــ ﷺ ــ فنزل قريباً من حصن الطائف ، وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديدا ، كأنه رِجْلُ جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، فارتفع رسول الله ــ ﷺ ــ إلى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين مدة حصار الطائف ، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً وقال ابن إسحاق : بضعاً وعشرين ليلة .

ونصب عليهم المنجنيق ، وهو أول من رمى به فى الإسلام . وقال ابن سعد : حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ثور بن يزيد ، عم مكحول أن النبى ــ ﷺ ــ نصب على أهل الطائف أربعين يوماً .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٣٣١ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وفى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٨٠ (ح) وفى صحيح البخارى ــ باب فضل الجهاد والسير ــ حـ ٤ صـ ٣٧ طـ الشعب وفى صحيح مسلم ــ كتاب الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٠ رقم ٧٨

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ تحت دبابة ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

قال ابن سعد : فسألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « فإنى أدعها لله وللرحم »[1] فنادى منادى رسول الله ـ ﷺ ـ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، منهم أبو بكرة ـ فأعتقهم رسول الله ـ ﷺ ـ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين ميمونة ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ولم يؤذن لرسول الله ـ ﷺ ـ فى فتح الطائف ، واستشار رسول الله ـ ﷺ ـ نوفل بن معاوية الديلى ، فقال : ما ترى ؟ فقال ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ عمر بن الخطاب ، فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « فاغدوا على القتال »[2] فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنا قافلون غداً إن شاء الله »[3] فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ـ ﷺ ـ يضحك ، فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : قولوا : « آيبون ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون »[4] ، وقيل يارسول الله ! ادع الله على ثقيف فقال : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم »[5] .

واستشهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالطائف جماعة ، ثم خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من الطائف إلى الجعرانة ثم دخل منها محرماً بعمرة ، فقضى عمرته ، ثم رجع إلى المدينة .

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ـ ﷺ ـ من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف وكان من حديثهم : أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ :

---

١ ـ انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٢٩

٢ ـ الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ غزوة الطائف ـ حـ ٥ صـ ١٩٨ ط الشعب

٣ ـ الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ غزوة الطائف ـ حـ ٥ ط الشعب

٤ ـ الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٢٥٦

٥ ـ الحديث فى سنن الترمذى ـ أبواب المناقب حـ ٥ صـ ٣٨٥ ـ ٣٨٦ رقم ٤٠٣٤

« كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك »(١) وعرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم ، فقال عروة : يارسول الله ؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عُلّيَّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى فى ربك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذى قتلوا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم فزعموا أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال فيه : « إن مثله فى قومه ، كمثل صاحب يس فى قومه »(٢) .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ رجلاً ، كما أرسلوا عروة فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان فى سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به كما صنع بعروة ، فقال : لست بفاعل حتى ترسلوا معى رجالاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، فيكونون ستة ، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب ، وشرحبيل بن غيلان ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشه ، فخرج بهم ، فلما دنوا من المدينة ، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة ، فاشتد ليبشر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر فقال : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروّح الظهر معهم ، وأعلمهم كيف يحُيون رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، فلما قدموا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ضرب عليهم قبة فى ناحية مسجده كما يزعمون .

وكان خالد بن سعيد بن العاصى هو الذى يمشى بينهم ، وبين رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى كتبه ، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا .

وقد كان فيما سألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يدع لهم الطاغية ، وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فما برحوا يسألونه سنة ، ويأبى عليهم ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون أن يردّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وألا لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ـــ

١ ـــ فى سيرة النبى لابن هشام ـــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٩٤
٢ ـــ فى سيرة النبى لابن هشام ـــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٩٥

ﷺ — « أما كسر أوثانكم بأيديكم ، فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فلا خير فى دين لا صلاة فيه »[1] .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله — ﷺ — كتاباً ، أمَّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، وتعلم القرآن فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله — ﷺ — معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف ، أراد المغيرة بن شعبة أن يُقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك عليه أبو سفيان ، فقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذى الهَدْم فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام دونه بنو مُعَتِّب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حُسَّراً يبكين عليها ، ويقول أبو سفيان — والمغيرة يضربها بالفأس — : « واهاً لك واهاً لك » فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبى سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع ...

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها ، سقناها كما هى ، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاة تبوك وغيرها ، لكن آثرنا ألا لا نقطع قصتهم ، وأن ينتظم أولها بآخرها ليقع الكلام على فقه القصة وأحكامها فى موضع واحد .

فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهيه والنكت الحكمية .

فيها من الفقه : جواز القتال فى الأشهر الحرم ، ونسخ تحريم ذلك ، فإن رسول الله — ﷺ — خرج من المدينة إلى مكة فى أواخر شهر رمضان بعد مضى ثمان عشرة ليلة منه والدليل عليه مارواه أحمد فى « سنده » غن شداد بن أوس ، أنه مر مع رسول الله — ﷺ — زمن الفتح على رجل يحتجم بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وهو آخذ بيدى ، فقال « أفطر الحاجم والمحجوم »[2] وهذا أصح من قول من قال : إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، وهذا الإسناد على شرط مسلم فقد روى به بعينه : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء »[3] . وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة ، ثم خرج إلى هوازن ، فقاتلهم ، وفرغ منهم ، ثم قصد الطائف ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة فى قول ابن إسحاق ، وثمان عشرة ليلة فى قول ابن سعد ، وأربعين ليلة فى قول مكحول . فإذا تأملت ذلك ، علمت أن بعض

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ ص ١٩٧

٢ — الحديث فى مسند أحمد حـ ٢ صـ ٣٦٤

٣ — الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مدة الحصار فى ذى القعدة ، ولابد ، ولكن قد يقال : لم يبتدىء القتال إلا فى شوال ، فلما شرع فيه ؟ لم يقطعه للشهر الحرام ، ولكن من أين لكم أنه ـــ ﷺ ـــ ابتدأ قتالا فى شهر حرام ، وفرق بين الابتداء والاستدامة .

ومنها : جواز غزو الرجل وأهله معه ، فإن النبى ـــ ﷺ ـــ كان معه فى هذه الغزوة أم سلمة وزينب .

ومنها : جواز نصب المنجنيق على الكفار ، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية .

ومنها : جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم ، وهو أنكى لهم .

ومنها : إن العبد إذا أبق من المشركين ولحق بالمسلمين ، صار حراً . قال سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس ، قال : كان رسول ا الله ـــ ﷺ ـــ يعتق العبيد إذا جاؤوا قبل مواليهم .

وعن الشعبى ، عن رجل من ثقيف ، قال : سألنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يَرُدَّ علينا أبا بكرة ، وكان عبداً لنا أتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو محاصر ثقيفاً ، فأسلم ، فأبى أن يرده علينا ، فقال : « هو طليق الله ، ثم طليق رسوله »[1] فلم يرده علينا . (أخرجه أحمد) قال ابن المنذر : وهذا قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم .

ومنها : أن الإمام إذا حاصر حصناً ، ولم يفتح عليه ، ورأى مصلحة المسلمين فى الرحيل عنه ، لم يلزمه مصابرته ، وجاز له ترك مصابرته ، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها .

ومنها : أنه أحرم من الجعرانة بعمرة ، وكان داخلاً إلى مكة ، وهذه هى السنة لم يدخلها من طريق الطائف وما يليه ، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ، ثم يرجع إليها ، فهذا لم يفعله رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولا أحد من أصحابه البتة ، ولا استحبه أحد من أهل العلم ، وإنما يفعله عوام الناس ، زعموا أنه اقتداء بالنبى ـــ ﷺ ـــ وغلطوا ، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة ، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها ،فهذا لون ، وسنته لونٌ ، وبالله التوفيق .

ومنها : استجابة الله لرسوله ـــ ﷺ ـــ دعاءه لثقيف أن يهديهم ، ويأتى بهم ، وقد حاربوه وقاتلوه ، وقتلوا جماعة من أصحابه ، وقتلوا رسول رسوله الذى أرسله إليهم يدعوهم إلى الله ، ومع هذا كله فدعا لهم ، ولم يدع عليهم ، وهذا من كمال رأفته ، ورحمته ، ونصيحته ـــ صلوات الله وسلامة عيله ـــ

ومنها : كمال محبة الصديق له ، وقصده التقرب إليه ، والتحبب بكل ما يمكنه ، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبى ـــ ﷺ ـــ بقدوم وفد الطائف ، ليكون هو الذى بشره وفرحه بذلك ، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب ، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه ، وقول من قال من الفقهاء : لا يجوز الايثار بالقرب ، لا يصح ، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه فى بيتها جوار النبى ـــ ﷺ ـــ وسألها عمر ذلك ، فلم تكره له السؤال ، ولا لها البذل ، وعلى هذا ، فإذا

١ ـــ انظر سيرة النبى لابن هشام ـــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٣٠
والحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٦٨

سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامة فى الصف الأول ، لم يكره له السؤال ، ولا لذلك البذل ، ونظائره . ومن تأمل سيرة الصحابة ، وجدهم غير كارهين لذلك ، ولا ممتنعين منه ، وهل هذا إلا كرم وسخاء ، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفريحا لأخيه المسلم ، وتعظيماً لقدره ، وإجابة له إلى ما سأله وترغيباً له فى الخير ، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة ، فيكون المؤثر بها ممن تاجر ، فبذل قربة ، وأخذ أضعافها ، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لابد من تيمم أحدهما ، فآثر أخاه ، وحاز فضيلة الايثار ، وفضيلة الطهر بالتراب ، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة ، ولا مكارم أخلاق ، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة وعاينوا التلف ومع بعضهم ماء فآثر على نفسه ، واستسلم للموت ، كان ذلك جائزاً ، ولم يقل : إنه قاتل لنفسه ، ولا أنه فعل محرماً ، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1] . وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة فى فتوح الشام ، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم ، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها ، وهو عين الإيثار بالقرب ، فأى فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها ، وبين أن يعمل ثم يؤثره بثوابها ، وبالله التوفيق .

ومنها : أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، فإنها شعائر الكفر والشرك وهى أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك ، والنذر والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها ، والله المستعان .

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحيى ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذوا القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهورها الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكراً ، والمنكر معروفا ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، ونشأ فى ذلك الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ومنها : جواز صرف الإمام الأموال التى تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت فى الجهاد ومصالح المسلمين ، فيجوز للإمام ، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التى تساق إليها كلها ، ويصرفها على الجند

١ ـــ الآية ٩ من سورة الحشر

والمقاتلة ، ومصالح الإسلام ، كما أخذ النبى ــ ﷺ ــ أموال اللات ، وأعطاها لأبى سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا ، وله أن يقطعها للمقاتلة ، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين ، وكذلك الحكم فى أوقافها ، فإن وقفها ، فالوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فيصرف فى مصالح المسلمين ، فإن الوقف لا يصح إلا فى قربة وطاعة لله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ، ولا قبر يسرج عليه ويعظم ، وينذر له ، ويحج إليه ، ويعبد من دون الله ، ويتخذ وثناً من دونه وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ، ومن اتبع سبيلهم . أ هـ .

تفسير سورة الحجرات

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية (**وآياتها**) ثمانى عشرة . (**وكلماتها**) ثلاثمائة وثلاث وأربعون . (**وحروفها**) ألف وأربعمائة وأربع وسبعون (**مجموع فواصل آياتها**) ثمانى عشرة

(مقصود السورة)

معظم مقصود السورة محافظة أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة والأكابر والتؤدة فى الأمور ، والاجتناب عن التهور ، والكون فى إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحذر عن التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأنساب والتحاشى عن المنّة على الله تعالى بالطاعة ، وإحالة علم الغيب إلى الله ــ تعالى ــ فى قوله ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض** ﴾ .

(المتشابهات)

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ مذكور فى السورة خمس مرات والمخاطبون المؤمنون ، والمخاطب به أمر ونهى ، وذكر فى السادس ﴿ **يأيها الناس** ﴾ فعم المؤمنين والكافرين ، والمخاطب به قوله ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ لأن الناس كلهم فى ذلك شرع سواء .

(مناسباتها لما قبلها)

لا يخفى تآخى هاتين السورتين (الفتح والحجرات) مع ما قبلهما لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام . فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا . وتلك تضمنت تشريفاً له ــ ﷺ ــ خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضا فى مطلعها أنواع من التشريف له ــ ﷺ ــ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن
تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

معانى المفردات

(لا تقدموا) أى : لا تتقدموا ، والمراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) أى : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه صوته (يغضون أصواتهم) أى : يخفضونها ويلينونها ، (امتحن الله قلوبهم) أى : طهرها ونقاها . (من وراء الحجرات) أى : من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، والمراد بها حجرات نسائه ــ عليه الصلاة والسلام ــ وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل ، على أبوابها الموح من شعَر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ .

هذه آداب أدب الله تعالى بها عبادة المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ــ ﷺ ــ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم وقال سفيان الثورى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) بقول ولا فعل .

وقال الإمام ابن القيم : أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أن الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى ، وابتغاء الوسيلة إليه ؟

ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فى ذلك التعبد ، أى : هل كان العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما

فطريق التخلص من السؤل الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : بتحقيق المتابعة .

وإنما يستقيم له هذا باستقامة قلبه وجوارحه . فاستقامة القلب بشئيين : أحدهما : أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما عداه ، فربت على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل ، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . وما أكثر أن يقدم العبد ما يحبه هو يهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى . فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى فى قلبه جميع المحاب ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص ، جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى . وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئاً سواه عذب به ولابد ، وأن من خاف غيره سُلط عليه ، وأن من اشتغل بشىء غيره كان شؤما عليه ، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد .

الأمر الثانى : الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشىء عن تعظيم الأمر الناهى فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه ، قال سبحانه وتعالى ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارا** ﴾[1] قالوا فى تفسيرها : مالكم لا تخافون الله تعالى عظمة . أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ **واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾

قال السلمى : اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم

وقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

١ ـــ الآية ١٣ من سورة نوح

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألا لا يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى — ﷺ — فوق صوته .

وقال البخارى بسنده عن ابن أبى مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — رفعا أصواتهما — عند النبى — ﷺ — حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس — رضى الله عنه — أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر — قال نافع لا أحفظ اسمه — فقال أبو بكر لعمر — رضى الله عنهما — ما أردت إلا خلافى قال ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾[1] قال ابن الزبير — رضى الله عنه — فما كان عمر — رضى الله عنه — يسمع رسول الله — ﷺ — بعد هذه الآية حتى يستفهمه ...

وقال الآمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال لما نزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى — الآية** ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال أنا الذى كنت أرفع صوتى على صوت رسول الله — ﷺ — أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهله حزيناً ففقده رسول الله — ﷺ — فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله — ﷺ — مالك ؟ قال أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى — ﷺ — وأجهر له بالقول حُبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى — ﷺ — فأخبروه بما قال فقال — ﷺ — « لا » بل هو من أهل الجنة »[2] قال أنس — رضى الله — فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفة فقال بئسما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل — رضى الله عنه —

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك فقد نهى الله — عز وجل — عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله — ﷺ — وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى — ﷺ — قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره — ﷺ — كما كان يكره فى حياته — عليه الصلاة والسلام — لأنه محترم حياً وفى قبره — ﷺ — دائماً . وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث النبى — ﷺ — أمرهم بالسكوت وقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) . ثم نهى سبحانه عن الجهر له بالقول

---

١ — الحديث فى صحيح البخارى حـ ٦ صـ ١٧١ ، ١٧٢ تفسير سورة الحجرات ط الشعب

٢ — الحديث فى صحيح البخارى حـ ٦ صـ ١٧١ — تفسير سورة الحجرات ط الشعب وفى صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله — حـ ١ صـ ٧٧
وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ١٣٧
وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — حـ ٧ صـ ٣٤٧

كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه بل يخاطب بسكينة ووقار تعظيم كما قال تعالى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ .

أى : يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له ــ ﷺ ــ أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار (أى كصاحب الدار ، أو كمثل المساررة لخفض صوته) . وقال عبد الله بن الزبير لما نزلت (لا ترفعوا أصواتكم) ما حدث عمر عند النبى ــ ﷺ ــ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال الفراء : أى : أخلصها للتقوى . وقال الأخفش أى : اختصها بالتقوى . وقال ابن عباس (امتحن الله قلوبهم للتقوى) طهرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله والتقوى . فهؤلاء (لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وقد قال الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد قال كتب إلى عمر ياأمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر ــ رضى الله عنه ــ إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم** ﴾

يقول ابن كثير : ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهى نسائه كما يضع أجلاف الأعراب فقال (أكثرهم لا يعقلون) ثم أرشد سبحانه إلى الأدب فى ذلك فقال عز وجل ﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم** ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيا لهم إلى التوبة والإنابة (والله غفور رحيم) وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى ــ رضى الله عنه ــ فيما أورده غير واحد قال الإمام بسنده عن الأقرع بن حابس ــ رضى الله عنه ــ أنه نادى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال يامحمد يامحمد .

---

١ ــ الآية ٦٣ من سورة النور

إرشادات آلهية

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ
نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ
إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ
﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ
فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا
بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(الفاسق) هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره . (النبأ) الخبر قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن ، (بجهالة) أى : جاهلين حالهم ، (فتصبحوا) أى : فتصيروا . (نادمين) أى : مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع . (لعنتم) أى : لوقعتم فى الجهد والهلاك . (الراشدون) الرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوى . (بغت) البغى : التطاول والفساد . (تفىء) أى : ترجع إلى الطاعة . (المقسطين) العادلين المحقين

المناسبة وإجمال المعنى

أدب الله عباده المؤمنين بأدب نافع لهم فى دينهم ودنياهم أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأى خبر ، لا يصدقونه بادىء ذى بدء حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يصيبوا بأذى قوماً هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع . ثم عقب تعالى بما يترتب على سماع مثل هذه (الأنباء المكذوبة) من تخاصم ، وتباغض ، وتقاتل فقال : إذا رأيتم أيها المؤمنون طائفتين

من إخوانكم جنحتا إلى القتال والعدوان ، فابذلوا جهدكم للتوفيق بينهما ، وادعوهم إلى النزول على حكم الله تعالى ، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فقاتلوا تلك الطائفة الباغية ، حتى تثوب إلى رشدها ، وترضى بحكم الله تعالى ، وتقلع عن البغى والعدوان فإذا كفت عن العدوان فأصلحوا بينهما بالعدل ، لأنهم إخوانكم فى الدين ، ومن واجب المسلمين أن يصلحوا بين الإخوان ، لا أن يتركوا البغضاء تدب ، والفرقة تعمل عملها ؛ لأن المؤمنين جميعاً إخوة ، جمعتهم رابطة الإيمان وليس ثمة طريق إلى إعادة الصفاء إلا بالإصلاح بين المتخاصمين ، فهو سبيل الفلاح وطريق الفوز والنجاح ، واتقوا الله لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بمرضاته ولقائه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾ .

قال ابن كثير :

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون فى نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله — عز وجل — عن اتباع سبيل المفسدين .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه رسول الله — ﷺ — على صدقات بنى المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد فى مسنده من رواية مالك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار الخزاعى — رضى الله عنه — يقول : قدمت على رسول الله — ﷺ — قد دعانى إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب دفعت زكاته ، وترسل إلىَّ يارسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله — ﷺ — أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم إن رسول الله — ﷺ — كان وقَّت لى وقتاً يرسل إلىَّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة وليس من رسول الله — ﷺ — الخلق ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتى رسول الله — ﷺ — وبعث رسول الله — ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أى : خاف فرجع حتى أتى رسول الله — ﷺ — فقال يارسول الله إن الحارث قد

منعنى الزكاة وأراد قتلى فغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وبعث البعث إلى الحارث ـ رضى الله عنه ـ وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال ولم ؟ قالوا إن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث إليك الوليد **بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال ـ رضى الله عنه ـ لا ، والذى بعث محمداً ﷺ بالحق مارأيته ينه ولاأتانى فلما دخل الحار على الرسول قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى »[1] قال لا والذى بعثك بالحق مارأيته ولاأتانى وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول الله ﷺ خشيت أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله قال فنزلت الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ إلى قوله : ﴿ حكيم ﴾ .**

قال الإمام الفخر الرازى : ما ذكره المفسرون من أنها نزلت بسبب (الوليدين عقبة) حين بعثه الرسول ـ ﷺ ـ إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم .. الخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت فى خبر الفاسق ، وأنها نزلت فى ذلك الحين الذى وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد . وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف ؛ لأن الوليد لم يتقصّد الإساءة إليهم ، ورواية الإمام أحمد تدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى هجاعة الحارث ـ وقد خرجت فى انتظاره . فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر الرسول ـ ﷺ ـ بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله .. ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شيء بعيد ؛ لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ **وأما الذين فسقوا فمأواهم النار** ﴾ إلى غير ذلك أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾

أى : واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك اسمه ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ ثم يبين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿ **لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ أى : لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم كما قال تعالى ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ .

---

(١) الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٧٩

وفى تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الحجرات ـ حـ ٧ صـ ظد

(٢) الآية ٧١ من سورة المؤمنون

وقوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾ أى : حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم قال الإمام أحمد عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول « الإسلام علانية والإيمان فى القلب ـ قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول ـ التقوى هٰهنا ، التقوى هٰهنا »[(1)].

وقوله تعالى ﴿ **وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾أى : وبغّض إليكم الكفر والفسوق والعصيان وهى الذنوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصى وهذا تدريج لكمال النعمة .

وقوله تعالى ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

وقوله تعالى ﴿ **فضلاً من الله ونعمة** ﴾ أى : فعل الله ذلك بكم فضلاً ، أى : الفضل والنعمة له . (والله عليم حكيم) أى : والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية . (حكيم) فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العارف بالله يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل . وهذا معنى قوله ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح من حديث بريره ـ رضى الله عنه ـ « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[(2)] فجمع فى قوله ـ ﷺ ـ « أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى » مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل ، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولى النعم والإحسان ، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة فى كل وقت ، وألا لا يرى نفسه إلا مفلساً ، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها ، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف ، والإفلاس المحض ، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته ، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه ، وأن فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة ، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى ، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر ، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته . ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوى .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٣٩٣ من رواية أحمد وأبى يعلى وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ١٣٤ ، ١٣٥ وفى تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الحجرات ـ حـ ٧ صـ ٣٥٢

(٢) الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٢٢

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل ، وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذنبك الأصلين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التى تورث المحبة ، ومطالعة عيب النفس والعمل التى تورث الذل التام ، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه الى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله — عز وجل — ويجبره ويتداركه برحمته » . (الوابل الصيب لابن القيم)

قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾

أى : وإن اقتتلت طائفتان من أهل الايمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه . سواء كان لهما أو عليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل . ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ أى : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له . ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل** ﴾ أى : فإن رجعت الباغية بعد قتالك إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال فى وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل فى كل أمورهم فقال تعالى ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى : واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين فى جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .

وفى الصحيح عن أنس — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما ، قلت : يارسول الله : هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصر ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه »[1]

قوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ أى : انهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية وفى الحديث المتفق عليه عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[2]

---

١ — الحديث فى حلية الأولياء حـ ٣ صـ ٩٤ ، وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ٩٩ ، وفى مجمع الزوائد وفى صحيح البخارى حـ ٧ صـ ٢٦٤ — كتاب المظالم حـ ٣ صـ ١٦٨ ، وصحيح مسلم — كتال البر — باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما

٢ — الحديث فى صحيح مسلم — حـ ٤ صـ ١٩٩٩ — باب تراحم المؤمنين — وفى صحيح البخارى — كتاب الأدب — باب رحمة الناس والبهائم حـ ٨ صـ ١١ ، ١٢

وفى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٧٥

وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — حـ ٧ صـ ٣٥٥

وعن أبي موسى ، عن النبي ـ ﷺ ـ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه »(١) وكان النبي ـ ﷺ ـ جالساً إذ جاءه رجل يسأل ، وطالب حاجة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « اشفعوا فلتؤجروا ، وليقضى الله على لسان نبيه ما شاء »(٢) متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »(٣) متفق عليه .

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله . التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »(٥) متفق عليه .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٦) متفق عليه .

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « حق المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه »(٧) .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولابد ـ تسبب عن ذلك قوله ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٤ ط الشعب ـ باب تعاون المؤمن ـ
وفى صحيح مسلم ـ حـ ٤ صـ ١٩٩٩ باب تراحم المؤمنين

(٢) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٤ ط الشعب ـ باب تعاون المؤمن

(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٨٤٢ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والطبرانى

(٤) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٤٤٦ من رواية الترمذى عن أبى هريرة وفى مسند أحمد والطبرانى فى الكبير عن واثلة
وفى مسند أحمد حـ ٢ صـ ٢٧٧
وفى تحفة الأحوذى ـ باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم حـ ٦ صـ ٥٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ حـ ٤ صـ ١٩٨٦

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ حـ ١ صـ ٦٧

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب السلام حـ ٤ صـ ١٧٠٥

وقوله تعالى ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل ما تأكلون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين كما قال تعالى ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾[٤] وكقوله تعالى ﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله عليكم رقيبا** ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾[٢] .

قال القرطبى : فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يذيل اسم الإيمان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ، قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب — رضى الله عنه — وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصفين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وبعد أن عشنا فى تلك الأجواء الرفيعة المستوى ، المشرقة المحيا ، السامية السامقة ، نزيد الأمر وضوحاً فنسلط تلك الأضواء الكاشفة على هذا المشهد القرآنى المهيب ، ونستمد تلك الأضواء من كتاب روائع البيان لما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية التى تستنبط من هذه الآيات الكريمة .

يقول صاحب « روائع البيان » ما نصه :

سورة الحجرات تسمى صورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ **خمس مرات ، وفى كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم ، وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها فى فقرات ، وهى :**

١ — وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الرسول — وعدم التقدم عليه برأى ، أو قول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ..** ﴾ أى : لا تعجلوا بقول ، أو فعل قبل أن يقول : فيه رسول الله أو يفعل .

٢ — احترام الرسول ، وتعظيم شأنه ، وعدم رفع الصوت فى حضرته ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى .. الآية** ﴾ .

٣ — وجوب التثبت من صحة الأخبار ، وعدم الاعتماد على أقوال الفسقة المفسدين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..** ﴾ الآية .

---

(١) الآية ١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١ من سورة النساء

(٣) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران

٤ ــ النهى عن السخرية بالناس وعن التنابز بالألقاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن** .. ﴾ الآية .

٥ ــ النهى عن التجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وعن سائر الأخلاق الذميمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً** .. ﴾ الآية .

فهذه السورة الكريمة التى لا تتجاوز ثمانى عشرة آية قد جمعت الفضائل ، والآداب الإنسانية ، فلا عجب أن تسمى (سورة الآداب) أو (سورة الأخلاق) فهى تتناول الأدب مع الله ، والأدب مع الرسول ، والأدب مع النفس والأدب مع المؤمنين ، والأدب مع الناس عامة ، وكلها بهذا الشكل الرتيب . (وهذه هى اللطيفة الأولى) .

اللطيفة الثانية :

تصدير الخطاب بالنداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ لتنبيه المخاطبين على أن ما بعده أمر خطير ، يستدعى مزيد العناية والاهتمام بشأنه ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به . أفاده العلامة أبو السعود .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ فى هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون حذراً يقظاً ، لا يقبل كل كلام يلقى على عواهنه ، دون أن يعرف المصدر ، وتنكير (فاسق) للتعميم ، لأنه نكرة فى سياق الشرط وهى كالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم كما قرره علماء الأصول ، والمعنى إن جاءكم أى : فاسق فتثبتوا من خبره ، وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التى تفيد التحقيق ، ليشير إلى أن وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل (الندرة) إذ الأصل فى المؤمن أن يكون صادقاً ، ولما كان رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه بالمنزلة التى لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من (الوليد بن عقبة) إلا فى الندرة قيل : (إن جاءكم) بحرف الشك . فتدبر أسرار الكتاب العزيز (روح المعانى للألوسى) .

اللطيفة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ تقديم خبرأن على اسمها ليفيد معنى الحصر ، المستتبع لزيادة التوبيخ لهم على ما فرط منهم فى حق الرسول ــ ﷺ ــ وفى الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدى الرسول ــ ﷺ ــ الإيقاع بالحارث وقومه ، وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه ــ عليه السلام ــ بين أظهرهم .

قال الإمام الفخر ــ رحمه الله ــ : « والذى اختاره وكأنه هو الأقوى إن الله تعالى لما قال : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ أى : فتثبتوا واكشفوا ، قال بعده : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ .. أى : الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبى ــ ﷺ ــ فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما قال القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسألة : **هذا الشيخ قاعد** .. لا يريد به بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالرجوع إليه ، فكأن الله تعالى يقول : استرشدوا بالرسول ــ ﷺ ــ فإنه يعلم ولا يطيع أحدا ، فلا يوجد فيه حيف ، ولا يروج عليه زيف لأنه لا يعتمد على كثير من آرائكم التى تبدونها ، وإنما يعتمد على الوحى الذى يأتيه من عند الله » .

اللطيفة الخامسة :

صيغة المضارع تفيد (الاستمرار والتجدد) بخلاف الماضى ، فالعدول عن الماضى إلى المضارع فى قوله تعالى : ﴿ **لو يطيعكم** ﴾ ليفيد هذا المعنى على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول لهم إطاعة مستمرة بدليل قوله تعالى : ﴿ **فى كثير من الأمر** ﴾ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، نقول : فلان يقرى الضيف ، ويحمى الحريم ، تريد أن ذلك شأنه وأنه مستمر على ذلك .

وكأن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ ولا تكونوا أمثال هؤلاء الذين استفزهم النبأ قبل التعرف على صدقه ، ثم لم يكتفوا حتى أرادوا أن يحملوا الرسول على رأيهم ، ليوقعوا أنفسهم ويوقعوا غيرهم فى العنت والإرهاق ، واعلموا جلالة قدر الرسول ــ ﷺ ــ وتفادوا عن أمثال هذه الأخطاء .

اللطيفة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هُمُ المُضعِفون** ﴾(١) وهذا الإلتفات من المحسنات البديعية كما قرره علماء البلاغة ، ويقصد به التعظيم أى : هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات ، وأعلى المناصب ، ونالوا هذه الرتبة العظيمة (رتبة الرشاد) فضلاً من الله وكرماً .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الطائفة فى اللفظ : مفرد ، وفى المعنى : جمع ، لأنها تدل على عدد كبير من الناس ، ولهذا جاء التعبير بقوله : ﴿ **اقتتلوا** ﴾ ، رعاية للمعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة ، ثم قال تعالى : ﴿ **فأصلحوا بينهما** ﴾ ولم يقل بينهم رعاية للفظ ، والنكتة

(١) سورة الروم الآية ٣٩

فى هذا هو ما قيل : إنهم عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وهم مختلطون ، فلذا جمع الضمير ، وفى حال الصلح تتفق كلمة كل طائفة حتى يكونوا كنفسين فلذا ثنى الضمير . (أفاده الفخر الرازى) .

اللطيفة الثامنة :

قال الإمام الفخر : ــ رحمه الله ــ قال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين** ﴾ ولم يقل (منكم) مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ، وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت احداً من غلمانى يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه ، كذلك ههنا قال : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين** ﴾ ، ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

اللطيفة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ، فيه تشبيه لطيف يسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام : المؤمنون كالإخوة فى وجوب التراحم ، **والتناصر** فحذف وجه الشبه ، وأداة الشبه فأصبح بليغاً ، قال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم كما بين الإخوة من النسب ، والإسلام لهم كالأب فأخوة (العقيدة) فوق أخوة (الجسد) ، ورابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ، وقد قال الشاعر العربى :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

اللطيفة العاشرة :

سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من قتال فقال : تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا تلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته .
وسئل (الحسن البصرى) عن قتالهم ، فقال : (قتال شهده أصحاب محمد ــ ﷺ ــ وغبنا ، وعلموا ، وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا) .

وقال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن : ، ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله ــ عز وجل ــ .

الأحكام الشرعية
(المستنبطة من الآيات)

الحكم الأول : هل يقبل خبر الواحد إذا كان عدلاً ؟ استدل العلماء بهذه الآية الكريمة ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ووجه الاستدلال من جهتين :

(الأولى) : أن الله تعالى : أمر بالتثبت فى خبر الفاسق ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان ثمة فائدة من ذكر التثبت ، لأن خبر كل من العدل ، والفاسق مردود ، فلما دل الأمر بالتثبت فى خبر الفاسق ، وجب قبول خبر العدل ، وهذا الاستدلال كما يقول علماء الأصول من باب (مفهوم المخالفة) .

(الثانية) : أن العلة فى رد الخبر هى (الفسق) لأن الخبر أمانة ، والفسق يبطلها فإذا انتفت العلة انتفى الرد ، وثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً ، وإذا ثبت ذلك وجب حينئذ قبوله والعمل به .

وأما المجهول الذى لا تعلم عدالته ولا فسقه فقد استدل الحنفية على قبول خبره ، وحجتهم فى ذلك أن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت ، فإذا انتفى الفسق فقد انتفى وجوبه ، ويبقى ما وراءه على الأصل وهو قبول خبره ، لأن الأصل فى المؤمن العدالة .

وأنت ترى أن هذا الاستدلال مبنى على أن الأصل العدالة ، ولكن بعض الفقهاء يعارض فى هذا ويقول : الأصل الفسق لأنه أكثر ، والعدالة طارئة فلا يقبل قوله حتى يثبت عدالته .

الترجيح

والظاهر أن مسألة قبول خبر المجهول مبنية على هذا ، فإن صح أن الأصل العدالة فهو باق على عدالته حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها فهو داخل فى حكم الفسق حتى تتبين عدالته ، والمسألة تطلب بالتفصيل من كتب الأصول .

الحكم الثانى :

هل يجب البحث عن عدالة الصحابة فى الشهادة والرواية ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على أن من الصحابة من ليس بعدل لأن الله تعالى : أطلق لقب الفاسق على (الوليد بن عقبة) فإنها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجه من اللفظ العام وهو صحابى بالاتفاق ، وقد أمر الله بالتثبت مع خبره ، فلابد من البحث عن عدالة الصحابة فى الشهادة والرواية .

والمسألة خلافية وفيها أقوال نذكرها بإيجاز :

الأول : أن الصحابة كلهم عدول ، ولا يبحث عن عدالتهم فى رواية ولا شهادة ، وهذا رأى جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

الثانى : أن الصحابة كغيرهم يُبحث عن العدالة فيهم فى الرواية والشهادة ، إلا من يكون ظاهر العدالة ، أو مقطوعها كالشيخين (أبى بكر) و (عمر) ــ رضى الله عنهما ــ .

الثالث : أنهم عدول إلى زمن عثمان ــ رضى الله عنه ــ ، ويبحث عن عدالتهم بعد مقتله ، وهذا رأى طائفة من العلماء .

الرابع : أنهم عدول إلا من قاتل عليا ــ كرم الله وجهه ــ لفسقه بالخروج على الإمام الحق وهذا مذهب **المعتزلة** .

الترجيح

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً من أن الصحابة كلهم عدول ، ببركة صحبة النبى ــ ﷺ ــ ومزيد من ثناء الله ــ عز وجل ــ فى كتابه العزيز كقوله سبحانه : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾[1] أى : عدولاً ، وقوله سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾[2] ، وقوله جل ذكره : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[3] ، وقوله جل وعلا : ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾[4] . وقوله جل وعلا : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[5] إلى آخر ما هنا لك من الآيات الكثيرة .

وكذلك ما ثبت فى السنة المطهرة من مدحهم ، والثناءعليهم وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله ــ ﷺ ــ على الإطلاق ، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التى تشير إلى فضيلتهم باختصار .

١ ــ قال ــ ﷺ ــ : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. الحديث »[6] ، (رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى) .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣

(٢) سورة آل عمران من الآية ١١٠

(٣) سورة الفتح من الآية ٢٩

(٤) سورة الحشر الآية ٨

(٥) سورة البينة من الآية ٨

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ، ص ١٩٦٣ عن عبد الله رقم ٢١٢ / ٢٥٣٣
ــ وفى صحيح البخارى كتاب فضائل أصحاب النبى ــ ج ٥ ص ٣ عن عبد الله
ــ وفى سنن الترمذى كتاب القدر ــ باب ما جاء فى القرن الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ رقم ٢٣٢٠ عن عمران بن حصين .
ــ وفى سند الامام أحمد ج ١ ص ٤٣٤ حديث عبد الله .

٢ ـ وقال ـ ﷺ ـ : « لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه »(١) ، (رواه الشيخان وأبو داود والترمذى) .

٣ ـ وقال ـ ﷺ ـ : « الله ، الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »(٢) ، (رواه الترمذى) .

فهذه الأخبار التى وردت فى الكتاب ، والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة ، وأفضليتهم على سائر الناس ، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق ، لأنهم لا يصرون على الذنب ، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ، ولا يحكم بفسقه على التأبيد ، فهذا (ماعز الأسلمى) الذى ارتكب الفاحشة يقول عنه النبى ـ ﷺ ـ : بعد أن أمر برجمه « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »(٣) ، (هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم) .

والقول بأن بعض الصحابة قد وقع فى الذنب والمخالفة ، بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم ـ لا يعنى أنهم غير عدول ، لأن الفاسق الذى ترد شهادته ، وروايته هو الذى يصر على الذنب والمعصية ، وليس فى الصحابة من يصر على ذلك .

وقد عرفت ما ذكره الإمام الفخر أنها لم تنزل خاصة بسبب (الوليد بن عقبة) وإنما نزلت عامة فى بيان حكم كل فاسق . وأنها نزلت فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه تلك القصة ، فهى مثل التاريخ لنزول الآية ، وكلام الإمام الفخر نفيس فارجع إليه .

الحكم الثالث : هل تقبل شهادة الفاسق أو المبتدع .

اتفق العلماء على أن شهادة الفاسق لا تقبل عملاً بالآية الكريمة ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وكذلك لا تقبل روايته ، لأن الرواية عن رسول الله ـ ﷺ ـ أمانة ودين ، والفسق يبطلها لاحتمال كذبه على رسول الله ـ ﷺ ـ .

قال القرطبى : « ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعاً ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها » .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٩٦٧ رقم ٢٢٢ / ٢٥٤١ ـ وفى سنن أبى داود ج ٥ ص ٤٥ رقم ٤٦٥٨ ـ كتاب السنة ـ باب النبى عن سب أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وفى سنن الترمذى ج ٥ ص ٣٥٧ رقم ٣٩٥٢ أبواب المناقب . وفى البخارى ج ٥ ص ١٠ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب المناقب) فى من سب أصحاب النبى ﷺ .. ج ٥ ص ٣٥٨ رقم ٣٩٥٤ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الحدود ـ باب من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ رقم ٢٢ / ١٦٩٥ عن ماعز بن مالك من حديثه الطويل .

وقال الجصّاص :

وقوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ اقتضى ذلك النهى عن قبول شهادة الفاسق مطلقا ، إذ كان كل شهادة خبراً ، وكذلك سائر أخباره فلذلك قلنا : شهادة الفاسق غير مقبولة فى شيء من الحقوق وكذلك أخباره فى الرواية عن النبى — ﷺ — وكل ما كان من أمر الدين ، يتعلق به اثبات شرع ، أو حكم ، أو اثبات حق على إنسان .

وقد استثنى العلماء من قبول خبر الفاسق أموراً تتعلق بالمعاملات وليس فيها شهادة على الغير منها :

أ — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ب — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ج — وكذلك فى الإذن بالدخول ونحوه كما إذا استأذن إنسان فقال له : ادخل . لا تشترط فيه العدالة . ومثل هذا جميع أخبار المعاملات إذا لم يكن فيها شهادة على الغير .

واختلف العلماء فى أمر الولاية بالنكاح ، فذهب الشافعى وغيره إلى أن الفاسق لا يكون ولياً فى النكاح ، لأنه يسيىء التصرف ، وقد يضر بمن يلى أمر نكاحها بسبب فسوقه .

وقال أبو حنيفة ومالك : تصح ولايته ، لأنه يلى مالها فيلى بُضعها كالعدل ، وهو — وان كان فاسقاً — إلا أن غيرته موفره ، وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمة ، وإذا ولى المال فالنكاح أولى .

أما المتبوع :

وهو الفاسق الذى يكون فسقه بسبب الاعتقاد ، وهو متأول للنصوص كالجبرية ، والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته كالإمام الشافعى — رحمه الله — ومنهم من قبلهما ، وفرق الحنفية فقالوا : تقبل منه الشهادة ، ولا تقبل منه الرواية لأن من ابتدع بدعة بسبب الدين فلا يبعد أن ينتصر لهواه ويدعو الناس إلى ذلك فنرد روايته دون شهادته ، لأن الدعوة إلى مذهبة داعية إلى النقل فلا يؤتمن على الرواية وهذا مذهب جمهور أئمة الفقه والحديث .

الحكم الرابع : هل تصح ولاية الفاسق ؟

قال ابن العربى — رحمه الله — : « ومن العجب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمامة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين ؟ ! وهذا إنما كان أصلة أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس ، لما فسدت آديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلى

معهم ووراءهم ، كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان مِن الناس من إذا صلى معهم تقيّة أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته ، وبوجوب الإعادة أقول ، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سراً فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر ، أو قول يحكى ، فإن الكلام كثير والحق ظاهر .. (آيات الأحكام لابن العربى) .

الحكم الخامس : هل يجب قتال أهل البغى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قتال أهل البغى ، الخارجين على الإمام أو أحد المسلمين ، ولكن بعد دعوتهم إلى الوفاق والصلح ، والسير بينهم بما يصلح ذات البين ، فإن أقاموا على البغى وجب قتالهم عملا بقوله : (فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله) .

وذهب جماعة ممن يدعى العلم إلى عدم جواز قتال البغاة من المؤمنين ، واحتجوا بقوله ــ عليه السلام ــ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر »[1] رواه الشيخان والترمذى والنسائى .

وهذا الحديث لا ينهض حجة لهم ، لأن من بغى من المؤمنين فقد أمر القرآن بقتاله ، فكيف يحتج بمثل هذا الحديث لإبطال حكم الله عز وجل ؟

قال القرطبى :

وهذه الآية : دليل على فساد قول من منع قتال المؤمنين . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفراً لكان الله ــ تعالى ــ قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك !! وقد قاتل الصديق ــ رضى الله عنه ــ من تمسك بالاسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر الا يتبع مولٍ ولا يجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم بخلاف الكفار » .

وقال الطبرى :

(١) الحديث فى صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب خوف المؤمن من ان يحبط عمله ج ١ ص ١٩
ــ وفى صحيح مسلم ــ كتاب الايمان باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر عن عبد الله بن سعود ج ١ ص ٨١ رقم ١١٦ / ٦٤ .
ــ وفى سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) (باب ما جاء فى الشتم) ج ٣ ص ٢٣٨ رقم ٢٠٤٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث من صحيح .
ــ وفى سنن النسائى : ج ٤ ص ١٢١ (كتاب تحريم الدم) باب قتال المسلم عن عبد الله .
وفى سنن ابن أبى ماجه كتاب الفتن باب سباب المسلم فسوق وقتالة كفر ج ٢ ص ٢٩٩ رقم ٣٩٣٩ .

« ولو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ، ولزوم المنازل ، لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق ، والبخور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله ـــ عليه السلام ـــ « خذوا على أيدى سفهائكم »[1] .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على وجوب قتل البغاة بعدة أدلة نوجزها فيما يلى :

أ ـــ قوله تعالى : ﴿ **فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ الآية .

ب ـــ حديث « سيخرج قوم فى آخر الزمان ، حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[2] ، (رواه الشيخان وأبو داود والنسائى) .

ج ـــ حديث « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القول ويسيئون العمل ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، قالوا يا رسول الله : **ماسيماهم** ؟ قال : التحليق »[3] ، (رواه السنة إلا الترمذى) .

فهذه الأحاديث صريحة فى وجوب قتال أهل البغى ومن شايعهم على باطلهم من أهل الفجور والضلال .

---

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٣ ص ٦٩ رقم ٥٥٢٥ ـــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وانظر القرطبى ج ٦ ص ٤ .

(٢) الحديث فى البخارى كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٤٤

ـــ وفى صحيح مسلم : كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج ج ٢ص ٧٤٦ رقم ١٥٤ / ١٠٦٦

ـــ وفى أبو داود كتاب الأدب ـــ باب قتل الخوارج ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٤٧٦٧ .

ـــ وفى نصف عبد الرزاق ج ١٠ ص ١٥٦ رقم ١٨٦٧٧ .

وفى سنن النسائى ج ١ المصرية بالأزهر ج ٧ ص ١٩ كتاب تحريم الدم (باب مَن شهر سبقه ثم وضعه فى الناس) .

(٣) الحديث فى سنن أبى داد و (كتاب الأدب) باب قتال الخوارج ج ٥ ص ١٢٣ رقم ٤٧٦٥ . فقد ورد الحديث بلفظه .

ـــ وانظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ١٤٧ « كتاب قتال أهل البغى ، فقد ورد الحديث من رواية أنس بن مالك فى حديث طويل .

ـــ وانظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب الخوارج شر الخلق والخليقة ج ٢ ص ٧٥٠ حديث ١٥٨ / ١٠٦٨ فقد ورد هذا من رواية لأبى ذر مع اضلاف فى بعض ألفاظه وجمله

ـــ وفى السنن الكبرى للبيهقى من رواية أنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى ج ٨ ص ١٧١ .

الحكم السادس : هل تكون أموال البغاة غنيمة للمسلمين ؟

اختلف العلماء فى حكم أموال البغاة هل تكون غنيمة للمسلمين ؟ أم ترد إليهم بعد الصلح وانتهاء الحرب ؟

أ ـــ فقال محمد بن الحسن الشيبانى : إن أموالهم لا تكون غنيمة ، وإنما يستعان على حربهم بسلاحهم وخيلهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها رد عليهم السلاح والمال .

ب ـــ وقال أبو يوسف : إن ما وجد فى أيدى البغاة من سلاح وعتاد فهو (غنيمة) يقسم ويخمس .

ج ـــ وقال مالك : لا تسبى ذراريهم ولا أموالهم . وهو مذهب الشافعى .

حجة أبى يوسف : أنهم باغون معتدون فيقسم مالهم غنيمة بين المسلمين .

حجة الجمهور : أن بغيهم يحل قتالهم ، ولا يحل أموالهم وذراريهم ، لأنهم ليسوا كفارا ، وإنما هم مؤمنون باغون ، أو فاسقون خارجون عن الطاعة ، والأمر بقتالهم من أجل ردهم إلى صف المؤمنين .

واستدلوا بما روى عن ابن عباس أن الخوارج لما تقموا على (على) ـــ كرم الله وجهه ـــ قال : أفتسبون أمكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم .

واستدلوا بحديث ابن عمر عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة » ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها »[1] ، (القرطبى) .

قال القرطبى :

« والمعوَّل فى ذلك عندنا أن الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ فى حروبهم لم يتبعوا مدبراً ، ولا ذففوا على جريح (أى أجهزوا على جريح) ولا قتلوا أسيراً ، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ، وهم القدوة » .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لأنهم ليسوا كفاراً ولأننا لو أخذنا أموالهم وسبينا ذراريهم تألبوا علينا ولم يمكن ردهم إلى صف المسلمين والله أعلم .

فائدة هامة : حول ما وقع بين الصحابة ـــ رضوان الله عليهم أجمعين : قال العلامة القرطبى ـــ رحمه الله ـــ : « لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوعة به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله ـــ عز وجل ـــ ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ـــ ﷺ ـــ عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

---

(١) الحديث فى تفسير القرطبى الجامع لاحكام القرآن ج ١٦ ص ٣٢٠

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى ــ ﷺ ــ أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيداً ، لأن الشهادة لا تكون إلا بالقتل فى الطاعة .

ومما يدل على ذلك ما قد صح بأن قاتل الزبير فى النار ، وقوله ــ عليه السلام ــ (بشر قاتل ابن صفية بالنار) وإذا كان كذلك فقد ثبت : أن (طلحة) و (الزبير) غير عاصيين ، ولا **آثمين** بالقتال ، وقد سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾[1] .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب التثبت من الأخبار وعدم الوثوق بخبر الفاسق الخارج عن طاعة الله .

ثانيا : ضرورة التريث قبل الحكم على الأشخاص لمجرد سماع الأنباء خشية الظلم والعدوان عليهم .

ثالثاً : الرسول ــ ﷺ ــ هو المرجع للمؤمنين ، فلا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يقطع بأمر دونه .

رابعاً : وجوب الإصلاح بين طوائف المؤمنين عند حصول النزاع خشية تصدع الصفّ ، وتفرق الكلمة .

خامساً : إذا بغت إحدى الطائفين على الأخرى ولم يمكن الإصلاح وجب قبر الفتنة بحد السيف .

سادساً : المؤمنون إخوة **جمعتهم** رابطة (العقيدة والإيمان) وهذه الرابطة أقوى من رابطة النسب والدم .

سابعاً : يجب على المؤمنين مقاومة أهل البغى إبقاءً لوحدة الأمة الإسلامية ودفعا للظلم عن المستضعفين .

حكمة التشريع

يدعو الإسلام إلى التثبت فى الخبر ، وأخذ الحيطة والحذر ، فى كل أمر من أمور المسلمين ، ليجتنبوا المزالق التى يدبرها لهم أعداؤهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فكم من فتنة حصلت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق فاجر ؟ وكم من دماء أريقت بسبب فتنة هوجاء أشعل نارها أناس ماكرون ؟ لا يريدون للأمة الخير ، ولا يضمرون للمسلمين إلا كل شر ، وبلاء ، وفتنة ، ليفسدوا عليهم وحدتهم ، ويكدروا عليهم صفاءهم وسرورهم .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٤ ، ١٤١ .

لذلك أمر الإسلام بمبدأ كريم فاضل (مبدأ التمحيص) والتثبت من كل خبر ، وخاصة خبر الفاسق ، الذى لا يقيم حرمة للدين ، ولا يبالى بما يحدث من جراء كذبه وبهتانه من أضرار فادحة ، ونتائج وخيمة ، تشل حركة المجتمع وقد تفضى إلى فجيعة عظيمة تودى بحياة أناس بريئين ، كما كان سيحدث فى قصة (الوليد بن عقبة) لولا أن الله — عز وجل — أطلع رسوله على جلية الأمر ، بواسطة الوحى المنزل ، فكان فى ذلك صيانة الدماء البريئة ، وحفظ وحدة المسلمين ، كما أمر الإسلام بمقاومة الظلم والطغيان ، أياً كان مصدره ، فدعا إلى الإصلاح بين الطوائف المتنازعة ، والفئات المتخاصمة ، فإن لم ينفع الصلح ، و لم تثمر دعوته ، كان السيف هو الحكم الفاصل تقاتل به الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله ، **وتفىء** إلى رشدها .

وهذه الخطة الحكيمة التى انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية ، لصيانة المجتمع المسلم من الخصام ، والتفكك والاندفاع وراء الأهواء الطائشة التى لا تجنى منها الأمة إلا كل شر ، وبلاء . أ هـ .

من الآداب الإسلامية

قال تعالى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

معانى المفردات

﴿ **لا يسخر** ﴾ السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ، وضحك منه ، وهزىء به ، وهزىء منه ، والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول ، أو بالفعل ، أو بالاشارة ، أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته أو على قبح صورته .

﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أى : لا يعب بعضكم بعضا بقول ، أو اشارة باليد ، أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ التنابز : المتعاير والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، ﴿ **الاسم** ﴾ الذكر والصيت ، ﴿ اجتنبوا ﴾ أى : تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له. ﴿ **الاثم** ﴾ الذنب ، ﴿ **التجسس** ﴾ البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس.

﴿ **والغيبة** ﴾ ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته . ﴿ **من ذكر وأنثى** ﴾ أى : من آدم وحواء ، ﴿ **شعوباً** ﴾ الشعوب واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد . كربيعة ومضر .. وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله ــ تعالى ــ ومع النبى ــ ﷺ ــ ، بين سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتاذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً . كذلك ينبغى عليه أن يبتعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً . فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت وأن تجد لها فى الخير محملاً ، وكذلك ينبغى عليه ألا يبحث عن عورات الناس ومعايبهم وعدم ذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون ، وقد مثل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعاً له . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ .

إنه لترتيب إلهى عال حيث رتب ــ سبحانه ــ مسألة النزاع والقتال بين الطوائف والأشخاص على أبناء الفاسقين ولذا نبهنا فيما سبق إلى التبين والتثبت فى تلقى الأخبار ، وأنه لنسق فريد أن يسوق تلك الإرشادات الإلهية فى هذه الآيات التى تتضمن سل السخائم وإماتة الأحقاد حتى تصبح الأمة الإسلامية كالجسد الواحد بعد ذلك .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ نادانا المولى ـــ سبحانه وتعالى ـــ بوصف الإيمان لينهانا عن السخرية وغيرها ليشعرنا بأن ما يدعونا إليه من إرشاد هو مقتضى الإيمان الصحيح فقد قال صاحب الخلق العظيم : ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ .

أى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر رجل أو امرأة أو جماعة من رجل آخر أو امرأة أخرى أو جماعة أخرى ، والسخرية بالناس رذيلة تغضب الرحمن وترضى الشيطان ، وتثير كوامن الفتن وبواعث الشر وهى صفة المجردين من الخير ، المنغمسين فى حمأة الرذيلة ، فالسخرية دليل على خبث الطوية ، وسوء السريرة ، ودناءة النفس ، ولا يصح أن يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، فالمستهزأ به **غالبا** يكون خيراً عند الله من المستهزىء .

فينبغى ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بأحد لرثاثة حالة أو لكونه ذا عاهة فى بدنه ، أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

وقد قال الإمام النووى فى رياض الصالحين : باب تحريم احتقار المسلمين ـــ بعد أن أورد هذه الآية : « وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[2] رواه مسلم .

وعن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال ، رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، وفعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[3] رواه مسلم . ومعنى « بطر الحق » دفعه ، و « غمط الناس » احتقارهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة على وجه الخفية قال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾[4] أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى كتاب الرضاع باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٣١٥ وفى الباب عن عائشة وابن عباس ، وقال ابو عيسى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم وحزلهواحتقاره .. الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديثه الطويل .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ .

(٤) سورة الهمزة الآية ١

الناس ويعتابهم ويطعن فى أعراضهم ، أو يلمزهم سراً بعينه أو حاجبه ، قال الطبرى : اللمز باليد والعين واللسان والاشارة والهمز لا يكون إلا باللسان . وفى قوله : ﴿ **أنفسكم** ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم : قال النبى ــ ﷺ ــ : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[1] ، وقال ــ ﷺ ــ « يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه ، وقيل : من سعادة المرء ان يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره »[2] ، قال الشاعر :

المرء إن كان عاقــــلاً ورعاً اشغلــه عــن عيوبــه ورعُــه
كما السقيم المريض يشغلــــه عــن وجــع النــاس وجعــه

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ .

قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعُير بعد إسلامه بكفره يا يهودى يا نصرانى ، فنزلت هذه الآية .

وروى عن قتادة : هو قول الرجل لأخيه : يا فاسق ، يا منافق وقاله مجاهد والحسن أيضا .

وقال الإمام أحمد : عن أبى جبيرة : بن الضحاك : قال : فينا نزلت فى بنى مسلمة ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال : قدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة وليسْ فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾[3] .

ولله در النبى ــ ﷺ ــ حيث يوصى بأن تدعو أخاك بأحب الأسماء إليه .

وقوله تعالى : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى : بئس الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتعانون بعد ما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه .

قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ أى : ومن لم يتب من هذا فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم فاكسبوها عقاب الله بعصيانهم أوامره .

فى الفرق بين الاسم والكنية واللقب

قال ابن القيم : هذه الثلاثة . وإن اشتركت فى تعريف المدعو بها . فإنها تفترق فى أمر آخر . وهو أن الاسم إما أن يفهم مدحاً أو ذماً أو لا يفهم واحداً منهما . فإن أفهم ذلك فهو اللقب . وغالب

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٦ / ٢٥٨٦ .

(٢) انظر كنز العمال ج ١٦ ص ١٢٢ رقم ٤٤١٤١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة
ــ وفى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥٤٣ رقم ٣٢١٢ عن أبى هريرة .
ــ وفى اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٣٧ الحديث ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٢٦٠ (حديث أبى جبيره بن الصحاك ــ رضى الله عنه ــ .
وفى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى الألقابا ج ٥ ص ٢٤٦ رقم ٤٩٦٢ .

استعماله فى الذم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ ولا خلاف فى تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه سواء كان فيه أو لمن يكن ، وأما إذا عرف بذلك ، واشتهر به كالأعمش والاشتر والأصم والأعرج . فقد اطرد استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً ، وسهل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود فى مسائله . سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب . لا يعرف إلا به ، ولا يكرهه . قال أليس يقال سليمان الأعمش ، وحميد الطويل . كأنه لا يرى به بأساً ، وأما أن لا يفهم مدحاً ، ولا ذماً ، فإن صدر بأب وأم فهو الكنية ، كأبى فلان ، وأم فلان ، وإن لم يصدر بذلك فهو الاسم . كزيد وعمرو ، وهذا هو الذى كانت تعرفه العرب ، وعليه مدار مخاطبتهم .. » .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ .

قال صاحب التفسير الواضح : هذا القسم مشتمل على ثلاثة أمراض : ١ ــ الظن ، السىء ، ٢ ــ تتبع عورة أخيك ، ٣ ــ إشاعة عورته بين الناس بالغيبة . وتلك صفات لعمرى تتنافى مع الإيمان الصحيح ولا يصح أن تكون فى المؤمنين ، ولذا صدر الكلام بالنداء بوصف الإيمان فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ، وقد أخذ فى هذا القسم بالتدرج الطبيعى ، فإن أول بوادر الشر أن يخطر ببالك ظن سىء ، وتأويل غير مقبول لفعل أخيك ، فتأخذ فى تأكيد هذا الخاطر وتثبيته بتتبع حركاته واستقصاء أعماله ، لتبنى من ذلك كله عقائد يعلم الله أنها على أسس من الوهم والظن السىء ، وربما فعلها أخوك من غير قصد ، ولو كان قلبك سليماً من سوء الظن لما فهمت هذا ، ثم يأتى بعد هذا التجسس دور الغيبة وإذاعة السوء محبة أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين وهو دور التقاطع والتدابر والتباغض وربما تفاقم الشر حتى يصل إلى أعلاه ، وقد كان السبب أوهاماً وخيالات لا أساس لها .

وقوله تعالى : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ ، وهذا أعلى أسلوب وأدقه حيث قال : اجتنبوا كثيراً من الظن ، فإن من الظن ما هو مطلوب كالاحتياط فى دفع الأذى عن النفس والمال .

قال القرطبى : للظن حالتان : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس . وخبر الواحد وغير ذلك من قيمّ المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانية ــ أن يقع فى النفس شىء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهو عنه على ما قررنا آنفا .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب الغوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

اخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شرا وأنت تجد لها من الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ،

ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كافأت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وان قتلك ، واعتزل عدوك ، وأحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل ــ سبحانه ــ الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله تعالى : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ أى : إن ظن المؤمن الشر أثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم .

قال ابن عباس فى الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .. ثم لما أمرهم ــ سبحانه ــ باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ أى : ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ولا يبحث عن سرائره يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »(١) .

﴿ **التجسس** ﴾ : البحث عما يكتم عنك ، ﴿ **والتحسس** ﴾ : طلب الأخبار وبحث عنها ، ﴿ **والتناجش** ﴾ البيع على بيع غيرك ، ﴿ **والتدابر** ﴾ الهجر والقطيعة .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى عُقر بيته »(٢) .

وعن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء ونأخذ به .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ نهى ــ عز وجل ــ عن الغيبة وهى أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « أتدرون ما الغيبة » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٣ كتاب الأدب (باب ما ينهى عن التحاور والتدابر) ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة . ــ وفى سنن الترمذى ، البر والصلة ــ باب فى الحسد عنأنس ج ٣ ص ٢٢١ رقم ٢٠٠٠ وفى صحيح مسلم : كتاب البر والصلة (باب تحريم الظن والتحسس والتنافس .. ونحوها ج ٤ ص ١٩٨٥) ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) الحديث : فى سنن أبى داود كتاب الأدب ــ باب فى الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزة الأسلمى .

« ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »(١) يقال : اغتابه اغتباباً إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرة : لو مرَّ بك رجل أقطع فقلت : هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى اسحاق فقال صدق .

وقوله تعالى : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ .

قال القرطبى : مثل الله الغبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة ، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس .

وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية ، قال ـ ﷺ ـ : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس »(٢) فشبه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقص مسلما . أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم »(٣) اخرجه ابو داود .

وقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وسمع على بن الحسين ـ رضى الله عنهما ـ رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فكرهتموه ﴾ قال مجاهد : فكرهتم أكل الميتة فاكرهوا غيبة الناس ، وقال الفراء معناه : أى : فقد كرهتموه فلا تفعلوه .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود كتاب الأدب ج ٥ ص ١٩٢ باب فى القيبة ورد عن أبى هريرة .
وفى صحيح مسلم : (كتاب البر والصلة) باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠٠١ رقم ٧٠ / ٢٥١٩ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .
(٢) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٣٦ (تفسير سورة الحجرات)
(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٧٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه . ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ أى : إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به إن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يُقلع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

بحث فى الغيبة

قال صاحب كتاب « مختصر منهاج القاصدين » وهو يحدثنا عن آفات اللسان : الكلام فيما لا يعنى ، والخوض فى الباطل ، والتقعر فى الكلام ، والفحش والسب والبذاء ، والمزاح ، والسخرية والاستهزاء وافشاء السر واخلاف الوعد والكذب ثم قال:

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها وشبه صاحبها بآكل الميتة .

وفى الحديث « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »(١) .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته »(٢) .

وقال على بن الحسين ــ رضى الله عنهما ــ : إياك والغيبة ، فإنها ادام كلاب الناس .

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

معنى الغيبة :

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ونحو ذلك .

أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ونحو ذلك .

أو فى خلقه كقولك هو سيء الخلق ، بخيل ، متكبر ونحو ذلك . أو فى ثوبه كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) باب قول النبى ــ ﷺ ــ ج ١ ص ٢٦
وانظر صحيح مسلم كتاب القسامة ج ٣ ص ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ رقم ٢٩ / ١٦٧٩ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى القيبة ج ٥ ص ١٩٤ حديث رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزه الأشلمى .
ــ وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الامام الترمذى ج ٦ ص ١٨٠ حديث رقم ٢١٠١ ورد الحديث بلفظه .
ــ وفى سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢١٠١ (باب ما جاء فى تعظيم المؤمن) عن ابن عمر وقال ابو عيسى هذا حديث غريب لا لفرقة إلا من حديث الحسين بن واقد .

والدليل على ذلك ، أن النبى — ﷺ — سئل عن الغيبة قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قال : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »(١).

وأعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل فى الغيبة سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة والكتابة بالقلم فإن القلم أحد اللسانين .

أقبح أنواع الغيبة

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

تحريم سماع الغيبة

واعلم : ان المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف منقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .

قال تعالى : فى وصف المؤمنين (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه)(٢).

وقال تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾(٤) .

وعن أبى الدرداء — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « من رد عن عرض أخيه ، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى القيبة ج ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ رقم ١٩٩٩ قال ابو عيسى : هذا حديث حسن .
— وفى سنن أبى داود (كتاب الأدب) ج ٥ ص ١٩٢ باب ما جاء فى القيبة ورد عن أبى هريرة .
(٢) سورة القصص من الآية ٥٥
(٣) سورة الاسراء من الآية ٣٦
(٤) سورة الأنعام الآية ٦٨
(٥) الحديث فى سنن الترمذى (كتاب البر والسر) باب ما جاء فى الذب عن المسلم ج ٣ ص ٢١٩ رقم ١٩٩٦ عن أبى الدرداء وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن عتبان بن مالك ــ رضى الله عنه ــ فى حديثه الطويل المشهور قال : قام النبى ــ ﷺ ــ يصلى فقال « أين مالك بن الدُخشنى ؟ » فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ولا رسوله فقال النبى ــ ﷺ ــ : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال : لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ! وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»[1] متفق عليه .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه ، فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

علاج الغيبة

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله ومقته ، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

---

(١) الحديث فى كتاب اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها) باب الرخصة فى التخلف على الجماعة ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ رقم ٣٨٤ حديث عتبان بن مالك .

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه ، ويشتغل بإصلاحها ، ويستحى أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

إن عبت قوماً بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب الناس من هو أعور

وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبر

وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً زهده فى الدنيا ، وفقهه فى الدين ، وبصره عيوبه .

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه .

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج الصلة يكون بقطع سببها .

فصل فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .

والظن : ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف أمراً لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذورا لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغى أن تبحث ، هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومن خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه فى السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن ، التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك **منهى** عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص فى ذكر مساوىء الغير ، وهو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :

أحدها : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتى ، ظلمنى فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو نحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : لرسول الله ــ ﷺ ــ : « إن ابا سفيان رجل شحيح »[1] ولم ينكر عليها ــ ﷺ ــ .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشترى .

وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

والدليل أن فاطمة بنت قيس ، ــ رضى الله عنها ــ قالت : أتيت النبى ــ ﷺ ــ فقلت : إن أباجهم ومعاوية خطبانى ؟ فقال رسول الله ــ ﷺ ــ « أما معاوية ، فصعلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه »[2] متفق عليه ومعنى لا يضع العصا عن عاتقه أى : كثير الأسفار .

الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

قيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه مخيبة : قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة

فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين

إحداهما : على حق الله ــ تعالى ــ إذ فعل مانهاه عنه ، وكفارة ذلك التوبة والندم .

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستمله ، وأظهر له الندم على فعله .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٨٦ (كتاب النفقات) باب وعلى الوارث مثل ذلك عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ وفى صحيح مسلم (كتاب الا قضية) باب قضية هند ج ٣ ص ١٣٣٨ رقم ٧ / ١٧١٤ عن عائشة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب الطلاق ــ باب المطلقة ثلاث لا نفقة لها ج ٢ ص ١١١٤ رقم ٣٦ / ١٤٨٠ .
ــ وانظر الترمذى أبواب النكاح ــ باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ج٢ ص ٣٠٠ رقم ١١٤٣ حديث فاطمة بنت قيس .
ــ وانظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب فى نفقة المبتوتة ج ٢ ص ٧١٢ رقم ٢٢٨٤ .
ــ وانظر سنن النسائى ــ كتاب النكاح ــ باب إذا استشارت المرأة رجلا فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد روى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه »(١) .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوعز صدره .

قال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا للناس أنه — سبحانه — خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وهى أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾(٢) .

قال ابن كثير : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء — عليهما السلام — سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية — وهى طاعة الله — تعالى — بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم فى البشرية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالاحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله — ﷺ — .

قال البخارى : عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : سئل رسول الله — ﷺ — أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم »(٣) الحديث .

---

(١) انظر شكل الآثار للطحاوى ج ١ ص ٧٠ باب شكل ما روى عن رسول الله — ﷺ — من أمره من قبله مظلمه لأخيه فى عرض أو فى مال أن يتحلله منها فى الدنيا .
— وانظر تفسير القرطبى (تفسير سورة البقرة الآية ٤٨ ج ١ ص ٣٧٨ عن أبى هريرة .
— وانظر صحيح البخارى (كتاب المظالم) باب من كانت له مظلمة عند الرجل ج ٣ ص١٧٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ٦٢ (فى تفسير سورة يوسف) عن أبى هريرة .

وقال مسلم : عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١] .

وقال ابن أبى حاتم عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : طاف رسول الله — ﷺ — يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم **الأركان** بمحجن فى يده فما وجد لها مناخا فى المسجد حتى نزل — ﷺ — على أيدى الرجل فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ثم إن — رسول الله ﷺ — خطبهم على راحلته فحمد الله — تعالى — وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله — تعالى — ورجل فاجر شقى **هين** على الله ، تعالى ، إن الله — عز وجل — يقول : ﴿ **يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ ، ثم قال — ﷺ — أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم »[٢] .

واخرج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى ، أو حدثنا من **شهد** خطب رسول الله — ﷺ — بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال — ليبلغ الشاهد الغائب »[٣] .

النـاس مـن جهـة التمثيـل أكفـاء ... أبوهــم آدم والأم حــواء
نـفس كنـفس وأرواح مشاكلـه ... وأعظـمُ خلــقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهـم حسب ... يفاخـرون بـه فالـطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلـم إنهم ... على الهدى **لمن** استهدى أدلاء
وقدر كلّ امرىء وما كان يحسنه ... وللرجــال على الأفعــال سيمــاء
وضد كل امرىء ما كان يجهله ... والجاهلـون لأهـل العلـم أعـداء

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والاداب) باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٩٧ رقم ٣٤ / ٢٥٦٤ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (فى تفسير سورة الحجرات) ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ رقم ٣٣٢٤ عن ابن عمر وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٥٨ رقم ١٢٩٦ عن ابن عمر .

(٣) الحديث فى كنز العمال ج ٣ ص ٦٥ رقم ٥٦٥٢ ورد هذا بلفظه وانظر الحديث فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٦٦ باب الخطب فى الحج ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى نضرة .

محمد فأقول هكذا وهكذا »[١] . وأعرض فى كل عطفيه . وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ جهارا غير سرَّ يقول : « إن آل أبى ليسوا لى بأولياء إنما ولّى الله وصالح المؤمنين »[٢] .

قال القرطبى : وقد جاء منصوصاً عنه ــ عليه السلام ــ « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله »[٣] . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً .

ما يصنع العبد بعز الغنى ... والعز كل العز للمتقى
من عرف الله فلم تغنه ... معرفة الله فذاك الشقى

روى البخارى عن سهل بن سعد أن النبى ــ ﷺ ــ مر عليه رجل فقال : « ما تقولون فى هذا » ؟ فقالوا : حرىٌّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : « ما تقولون فى هذا » قالوا : حَرِى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع . فقال رسول الله ــ ﷺ ــ « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[٤] .

من لم يلبس ثيابا من التقى ... تقلب عريانا وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قوله تعالى : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ أى : إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

(١) الحديث فى أتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٤٢٠ ورد الحديث عن أبى هريرة وفى كنز العمال الحديث من (الديلمى رواية عن معاذ) رقم ٥٦٥٩ باب التقوى من الاكمال .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب موادة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم ج ١ ص ١٩٧ رقم ٣٦٦ / ٢١٥ ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن العاص .
(٣) انظر القرطبى ج ١٦ ص ٣٤٥ فى تفسير سورة الحجرات .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٩ (كتاب النكاح) باب الأكفاء فى الدين : عن سهل .

حقيقة الإيمان والإسلام

* قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن
تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ
﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿ الأعراب ﴾ : سكان البادية . **﴿ آمنا ﴾ أى : صدقنا بما جئت به من الشرائح وامتثلنا ماأمرنا به . ﴿ لم تؤمنوا ﴾ : لم تصدقوا بقلوبكم . ﴿ أسلمنا ﴾** : استسلمنا خوفا وطمعا . **﴿ لا يلتكم ﴾ أى لاينقصكم ، يقال لاته يلتيه إذا نقصه ﴿ يمنون عليك ﴾ أى : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .**

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث ــ سبحانه ــ الناس على التقوى ــ **وبخ** من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لإنهم كانوا يريدون المغانم وعرض الدنيا .. قال السدى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مزينة **وجهينة** وأسلم وغفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا .

التفسير

قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول ــ تعالى ــ منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم ــ إلى الأخص ــ ، ثم للأخص منه . وقال الإمام أحمد عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ، ــ رضى الله عنهما ــ قال أعطى رسول الله ــ ﷺ ــ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئا فقال سعد : ــ رضى الله تعالى عنهما ــ يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ، ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال : النبى ــ ﷺ ــ : أوْ مسلم ــ حتى أعادها سعد ــ رضى الله عنه ــ ثلاثاً ، والنبى ــ ﷺ ــ يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبى ــ ﷺ ــ : « إنى لأعطى رجالاً وأدع من هو أحب إلى منهم فلم أعطه شيئا مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم »[1] اخرجا ــ الصحيحين من حديث الزهرى به ، فقد فرق النبى ــ ﷺ ــ بين المؤمن والمسلم فدل على : أن الإيمان أخص من الاسسلام .. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا فى ذلك وهذا معنى قول ابن عباس : ــ رضى الله عنهما ــ وابراهيم النخعى ، وقتادة ، وإختاره ابن جرير ، وإنما قلنا : هذا لأن البخارى ــ رحمه الله ــ ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد انهم قالوا فى قوله تبارك وتعالى : **﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾** أى : استسلمنا خوف القتل والسبى ، قال مجاهد : نزلت فى بنى أسد من خزيمة ، وقال قتادة انزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ــ ﷺ ــ والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ، ص ١٧٦ عن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .
ــ وفى صحيح البخارى ج ١ ص ١٣ (كتاب الإيمان) باب إذا لم يكن الاسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل عن سعد بن أبى وقاص .
ــ وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٣ (كتاب الإيمان) رقم الحديث ٢٣٦ / ١٥٠ باب تألف قلب من يخاف الله على إيمانه نصعه .
ــ وفى سنن النسائى ج ١ ص ١٠٣ عن الزهرى (كتاب الإيمان وشرائعه) .

وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقين فى سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ **قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ ، أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ، ثم قال : ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا** ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئا كقوله عز وجل : ﴿ **وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **الله غفور رحيم** ﴾ أى : لمن تاب إليه وأناب .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ــ أولئك هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ، ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم** ﴾ ، ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ ؟ أى : قل لهم : أتخبرون الله بما فى ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً . ﴿ **والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيها كقوله تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾(٢) ، قوله تعالى : ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم فتنالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ ، يعنى ــ سبحانه ــ للأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم ، على الرسول ــ ﷺ ــ يقول الله ــ تعالى ــ رداً عليهم : ﴿ **قل لا تمنوا على إسلامكم** ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ أى : فى دعواكم ذلك .

---

(١) سورة يونس الآية ٦١

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٥

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه ــ سبحانه ــ خلقنا بمحض جوده وكرمه وبمحض فضله ومنته .

يقول ــ تعالى ــ فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم . وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »(١) ، فلو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكثر ــ سبحانه وتعالى ــ بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه ، وإعانته ، وبفضله ، ومنته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كعصية أفجر رجل ، وخالفوا أمره ونهيه لم يضره ذلك ، ولم ينقص ذلك من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكهم ، وخلق غيرهم فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية الغنى الحميد قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون** ﴾ أى : إن الله يعلم ما غاب فيهما وهو بصير بسركم وعلانيتكم لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(٣)

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ عن أبى ذرٍّ من حديثه الطويل بقوله : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى .. الخ .

(٢) سورة (فاطر) الآيتان ١٥ ، ١٧ .

(٣) سورة الحشر الآيات ٢٢ ــ ٢٤

تفسير سورة (ق)

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : خمس وأربعون

وكلماتها : ثلاثمائة وخمس وسبعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون

مجموع فواصل آياتها : (صر جد ظب)

سميت بـ (ق) لافتتاحها بها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : إثبات النبوة للرسول ــ ﷺ ــ وبيان حجة التوحيد ، والاخبار عن إهلاك القرون الماضية وعلم الحق ــ تعالى ــ بضمائر الخلق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق ، المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العاصين يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم ، وتغيُّظ الجحيم على أهله ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخليق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، ووعظ الرسول ــ ﷺ ــ الخلق بالقرآن المجيد فى قوله : ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **وقال قرينه** ﴾ وبعده : ﴿ **قال قرينه** ﴾ لأن **الأول** خطاب الإنسان من قرينه ومتصل بكلامه ، والثانى استئناف خطاب الله ــ سبحانه ــ من غير اتصاله بالمخاطب الأول وهو قوله : ﴿ **ربنا ما أطغيته** ﴾ ، وكذلك الجواب بغير واو ، وهو قوله : ﴿ **لا تختصموا لدىّ** ﴾ وكذلك ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ فجاء الكل على نسق واحد .

قوله : ﴿ **قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ وفى طه ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ لأن فى هذه السورة : راعى الفواصل ، وفى طه ، راعى القياس ، لأن الغروب للشمس ، كما أن الطلوع لها . أ هـ .

مناسبتها لما قبلها :

أنه أشار فى آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ، وذلك يقتضى الشك فى البعث ، وافتتح السورة بما يتعلق بذلك .

فضل السورة

حديث مسلم ، وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه — الصلاة والسلام — كان يقرأ هذه السورة فى الركعة الأولى من صلاة الفجر .

واخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى واقد الليثى « إنه — ﷺ — كان يقرأ فى العيد بقاف ، واقتربت »(١) .

واخرج أبو داود والبيهقى وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ما أخذت ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ إلا من فى رسول الله — ﷺ — « كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس »(٢) .

وكل ذلك دليل على أنه — ﷺ — كان يقرأ بها فى المجامع الكبيرة كالعيدين ، والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . فهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزاً وترج النفس رجاً ، وتثير فيها روعة الإعجاب ، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨ حديث أبى واقد الليثى — رضى الله عنه —

(٢) وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦٥ ، ٤٣٦ فى أحاديث أم هشام من حارثة بن الفهمان — رضى الله عنه —
— وانظر صحيح مسلم (كتاب الجمعة) ج ٢ ص ٥٩٥ باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم الحديث ٥٠ / ٨٧٢ .
— وفى سنن أبى داود ج ١ ص ٦٦١ (كتاب الصلاة) باب الرجل يخطب على قوس رقم الحديث ١١٠٢ .
وحديث رقم ١١٠٠ أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ
لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ **المجيد** ﴾ من المجد وهو كما قال الراغب : السعة فى الكرم ، وصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والآخروية . ﴿ **رجع بعيد** ﴾ أى : بعث بعد الموت بعيد عن الأذهان . ﴿ **ما تنقص الأرض** ﴾ أى : ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم . ﴿ **حفيظ** ﴾ أى : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها . ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بالنبوة الثابتة بالمعجزات . ﴿ **مريج** ﴾ أى : مضطرب . ﴿ **بنيناها** ﴾ أى : أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، ﴿ **وزيناها** ﴾ أى : بالكواكب ، ﴿ **فروج** ﴾ أى : شقوق ، ﴿ **مددناها** ﴾ أى : بسطناها ، ﴿ **رواسى** ﴾ **أى : جبالا ثوابت تمنعها من المَيْد والاضطراب** ، ﴿ **زوج** ﴾ صنف ، ﴿ **بهيج** ﴾ أى : ذى بهجة وحسن ، ﴿ **تبصرة وذكرى** ﴾ أى : تبصيراً وتذكيراً ، ﴿ **منيب** ﴾ من أناب إذا رجع وخضع ، ﴿ **حب الحصيد** ﴾ أى : حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبرُ والشعير ، ﴿ **باسقات** ﴾ أى : طويلات ، والطلع ما ينمو ويصير بلحاً ثم رطباً ثم تمراً ، ﴿ **نضيد** ﴾ أى : منضود بعضه فوق بعض ، ﴿ **الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **الرس** ﴾ البئر التى لم تطو أى : لم تبن وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب ــ عليه الصلاة والسّلام ــ ، ﴿ **والأيكة** ﴾ الغيضة الملتفة الشجر ، ﴿ **تبع** ﴾ هو تبع الحميرى ، ﴿ **أفعيينا** ﴾ العىّ عن الأمر : العجز عنه ﴿ **لبس** ﴾ أى : شك شديد وحيرة واختلاط .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ق . والقرآن المجيد** ﴾

﴿ **ق** ﴾ أحد حروف الهجاء وفى القرآن الكريم سور افتتحت بمثل هذا الحرف فقد تفتح السورة بحرف واحد مثل ﴿ **ص** ﴾ و ﴿ **ق** ﴾ و ﴿ **ن** ﴾ وقد تفتتح بحرفين مثل ﴿ **حم** ﴾ ، ﴿ **طه** ﴾ وقد تفتتح بثلاثة أحرف مثل ﴿ **الم** ﴾ ﴿ **الر** ﴾ ﴿ **طسم** ﴾ ، وقد تفتتح بأربعة أحرف مثل ﴿ المر ﴾ وقد تفتتح بخمسة أحرف مثل ﴿ **كهيعص** ﴾ و ﴿ **حم عسق** ﴾ .

ونحن إذا حذفنا المكرر من تلك الحروف أعطتنا جملة تقول ﴿ **نص حكيم ، قاطع ، له سر** ﴾ .

وقد شاءت حكمة الله ــ تعالى ــ أن يتحدى أساطين الفكر وأرباب البلاغة وعباقرة الكلمة ، وجهابذة البيان ، بهذا الكتاب الكريم ، وفى هذه الحروف الهجائية التى افتتح الله ــ تعالى ــ بها بعض السور فيها إشارة إلى هذا الإعجاز ، فهذا كتاب عربى مبين ، نزل على نبى عربى وهو بشر ، فإن كنتم تكذبونه فما جاء به فقد بعث بمعجزة خالدة دائمة هى :

القرآن الكريم : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[1] فأنتم عرب تتكلمون بلغة هذا الكتاب ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فأتوا بعشر سور وإلا فأتوا بسورة ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[2] . والنتيجة : أنهم عجزوا عجزاً تاماً فلزمتهم الحجة ، ﴿ **فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[3] .

ولمكانة هذا الكتاب المعجز ، وعلوا منزلته ، ورفعة طبقته ، أقسم عليه وهو جواب القسم (البعث حق) كما يستفاد ذلك من سياق الآيات فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد** ﴾ فكأنه ــ تعالى ــ يقول لهم : اقسم بهذا الكتاب المعجز « لتبعثن » فإعجازى فى كلمتى كإعجازى فى خلقى فكل شىء عندى بالكاف والنون ، فإذا كان القرآن كوناً ناطقاً فإن القرآن كون صامت ، وإذا كان ذلك كذلك محمد ــ ﷺ ــ قرآن ، يمشى بين الناس وإعجازى فى كلماتى التنزيلية كإعجازى فى كلماتى التكونية ، فالتنزيل نور ، والتكوين نور وكلاهما نور على نور ، ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾[4] ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[5].

---

(١) سورة الطور الآية ٣٤
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤
(٣) سورة هود الآية ١٤
(٤) سورة النور الآية : ٣٥
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٣

قوله تعالى : ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب** ﴾ .

أى : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ..** ﴾[2] . أى : وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم قال ــ عز وجل ــ مخبراً عنهم فى تعجبهم أيضا من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد** ﴾ أى : يقولون : أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجع بعيد) أى : بعيد الوقوع . منهم يعتقدون استحالته وعدم امكانه . قال الله تعالى : راداً عليهم :

﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أى : قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم فى البلى نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ **وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أى : حافظ لذلك فالعلم شامل ، والكتاب أيضا فيه كل الأشياء مضبوطة . كقوله تعالى : ﴿ **وكل شيء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** ﴾ أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال : بعد ذلك فهو باطل ﴿ **فهم فى أمر مريج** ﴾ أى : مضطرب كقوله تعالى : ﴿ **إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

يقول ــ تعالى ــ منبهاً للعباد على قدرته العظيمة ، التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها** ﴾ بالمصابيح ﴿ **ومالها من فروج** ﴾ قال مجاهد : يعنى : من شقوق كقوله تعالى : ﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾[5] أى : كليل عن أن يرى عيباً ، أو نقصاً .

---

(١) سورة يونس الآية ٢
(٢) سورة الاعراف الآية ٦٣
(٣) سورة القمر الآيتان ٥٢ ، ٥٣
(٤) سورة الذاريات الآيتان ٨ ، ٩
(٥) سورة الملك الآيتان ٣ ، ٤

وقوله تعالى : ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ أى : وسعناها وفرشناها ، ﴿ **وألقينا فيها رواسى** ﴾ وهى : الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ أى : من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ **بهيج** ﴾ أى : حسن المنظر ، قال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ أى : ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة ، تبصرة ودلالة ، وذكرى لكل عبد منيب ، أى : خاضع خائف ، وجل رجّاع إلى الله ــ عز وجل ــ كقوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرعنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾(٣) .

من آيات الله الكونية

يقول العلامة ابن القيم : تأمل العبرة فى وضع العالم وتأليف أجزائه ، ونظمها على أحسن نظام ، وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ، ومصالحه ، وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء مسقفة المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له وزينة ، وأدلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شىء منها لشأنه ، الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الإنسان يحرسه ، وهو نائم ، وقاعد مما هو مستعد لا هلاكه وأذاه فلولا ما سلط عليه من ضده لم

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٤

يقر للإنسان قرار بينهم ، وجعل الإنسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا : أعظم دلالة ، وأوضحها على أن العالم مخلوق خالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وإن الخالق يستحيل أن يكون اثنين ، بل الإله واحد لا إله إلا هو — تعالى — عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما ، واختل نظامهما ، وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول ، وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا — فسبحان الله — رب العرش عما يصفون ، ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

— فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات فى علوها ، وارتفاعها ، وسعتها ، وقرارها ، بحيث لا تصعد علواً كالنار ، ولا تهبط نازلة كالأجسام . الثقيلة ، ولا عمد تحتها ، ولا علاقة فوقها ، بل هى : ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ، ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان ، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شىء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كَلَّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء . فتأمل كيف جعل اديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكسأ فيها بطول مباشرتها له . هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

— وتأمل الحكمة البعيدة فى تيسيره — سبحانه — على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله ، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع ، وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالغادر على مراتب الحاجات ، وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار ، وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لا ختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك فى أن سخر له الريح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحاباً ، أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره واذاه فسل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير ، وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلو ذلك ويقلبوه سحاباً ، أو ضباباً ، أو يذهبوه عن الناس ، ويكشفوه عنهم ولو شاء

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩١ ، ٩٢

ربه — تعالى — لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .
— ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان ، وعن مزارعهم ، ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم ، فإن قلت : فما حكمة هذه القفار الخالية ، والفلوات الفارغة الموحشة ، فاعلم أن فيها معايش لا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب ، وعليها أرزاقهم ، وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للإنس ، وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم وشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ، ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال ، والبدو والاستبدال بالأوطان ، فكم من بيداء سماق صارت قصورا وجنانا ، ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها ، لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين . فى أماكنهم لا يجدون عنها إنتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ، ويضطرهم إلى النقلة منها ، وكذلك الماء لولا كثرته ، وتدفقه فى الأودية والأنهار ، لضاق عن حاجة الناس إليه ، ولغلب القوى الضعيف ، واستبد به دونه فيحصل الضرر ، وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع ، فاقتضت الحكمة ، إن كان بهذه الكثرة والسعة ، فى كل وقت ، وأما النار فقد تقدم أن الحكمة : اقتضت كمونها متى شاء العبد ، أوراها عند الحاجة ، فهى وإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة حاصلة ، متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها ، فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لاتظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم إن جعلها مخزنة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها .. »
— ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها ، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها .. فمن منافعها : أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلا لشراب الناس ، إلى حين نفاده ، وجعل فيها ليذوب أولاً فأولا فتجىء منه السيول الغريرة ، وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج ، والوهاد والربُا ضروب البنات ، والفواكه والأدوية ، التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة ، وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه ، وكان فى انحلاله جملة السيول التى تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته . (ومن منافعها) ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف ، والمعاقل التى بمنزله الحصون والقلاع ، وهى أيضا : أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها ، والإرصية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزبرجد ، والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى : أن فيها ما يكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ، ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها — سبحانه — (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم

ما تحتها ولهذا : فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية . (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى بحاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، (ومن منافعها) أنها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالإعلام** ﴾[1] فالجوارى : السفن وأعلام الجبال ، وأحدها علم .. فسمى **الجبل** علماً من العلامة والظهور . (ومن منافعها) أيضا : ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون فى السهول ، والرمال ، كما أن ما ينبت فى السهول والرمال لا ينبت مثله فى الجبال وفى كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . (ومن منافعها) أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير القلاع والمدن ، (ومن منافعها) ما ذكره الله — تعالى — فى كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسى بمنزلة مراسى السفن أعظم بها من منفعة ، وحكمة هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط **لتعذر** الصعود عليها ، والانتفاع بها وسترت عن الناس **الشمس** والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض **لضيقت** عليهم المزارع والمساكن ، ولملأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن ، والمغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الإنتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذى نصبت عليه ، ولقد دعانا الله — سبحانه وتعالى — فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقها فقال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[2] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها ، وفاطرها ، وعلمه ، وحكمته ، ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له ، وتسجد ، وتشقق ، وتهبط من خشيته .

﴿ **هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[3] . أ هـ

قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾ .

أى : ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما ، وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

(١) سورة الشورى الآية ٣٢
(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠
(٣) سورة لقمان الآية رقم ١١

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾ أى : وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التى لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ أى : ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالاحياء ، وعن احياء الموتى بالخروج تضخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة ، بين إخراج النبات ، وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير** ﴾[3] .

يقول العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » :

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها ، وتلولها ، وظرابها ، وآكامها ، ومنخفضها ، ومرتفعها ، ولو كان ربها تعالى : إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر وفى ذلك فساد ، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشىء ــ سبحانه ــ السحاب ، وهى روايا الأرض ثم : يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر ، وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى ، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار ، وإذا بعدت من البحر قل مطرها .. ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو ، والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو توالت الأمطار لأهلكت ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب ، والثمار ، وعفنت الزرع ، والخضروات وأرخت الأبدان ، وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل ، وتقطعت المسالك ، والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان ، وغيض الماء ، وانقطع معين العيون والآبار والأنهار ، والأودية ، وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان ، وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو ، والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر ، وصح الهواء ، ودفع كل واحد منهما عادية الآخر ، واستقام أمر العالم وصلح .

---

(١) سورة الحج الآيات ٥ ، ٦ ، ٧
(٢) سورة فصلت الآية ٣٩
(٣) سورة الروم الآية ٥٠

ثم تأمل الحكمة الإلهية فى إخراج الأقوات ، والثمار ، والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شىء ، متتابعة ، ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن لكل فصل أوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار ، وهذا بارد ، وهذا معتدل ، وكل فى فصله موافق المصلحة ، لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم إنه ــ سبحانه ــ خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف ، والخشب ، والورق ، والنوْر ، والسعف ، والكرب وغيرها من منافع النبات ، والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية ، والسفن والرحال ، والأوانى وغيرها ، ومنافع النور من الأدوية ، والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر ، وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ، ثم الورق الأخضر ، ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها وطعومها ، وروائحها ومنافعها ، وما يراد منها . ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة ، وهاتيك العيدان ، وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب ، وهذا التقدير المحكم ، وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره ، وإبرازه وترتيبه شيئا فشيئاً ، وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ، ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح ، وأنزل عليها المطر ، ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها ، فتؤديه الأغصان إلى الأوراق والثمر ، كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته ، فسلِ الجاحد من أعطى هذا ، ومن هداها إليه ، ووضعه فيها ، فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة ، أو حيلة ، أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ؟ ودلت عليه آياته ؟ كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

ويقول العلامة ابن القيم فى الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب :

ثم تأمل هذه النخلة التى هى إحدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح ، جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثة ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبى ـــ ﷺ ـــ وذلك من وجوه كثيرة ، (أحدها) : ثبات أصلها فى الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

(الثانى) : طيب ثمرها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام ، طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) : دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء ، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه ـــ تعالى ـــ .

(الرابع) : سهولة تناول ثمرتها وتيسره ، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها ، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها ، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقى والدرج إلى أعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله وما هو بالغر ولا باللئيم .

(الخامس) : أن ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبة فاكهة وحلاوة ، ويابسه يكون قوتاً وأدما وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والأشربة ، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار .

(السادس) : من وجوه التشبيه : أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد ، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة ، وتقلعها تارة ، وتقصف أفنانها ، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

(السابع) : أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة ، فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ، ويستر به الفرَج والخلل ، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها ، فلما جاء إلى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً . ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[1] .

(١) سورة الفتح من الآية ٢٩

(الثامن) : أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها ، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

(التاسع) : أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاها ، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر ، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

(العاشر) : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً ، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر ، حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها ، وخوصها ، وليفها وكربها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط ، إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب ، فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا . وفى الترمذى مرفوعاً إلى النبى ـ ﷺ ـ (خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[1] فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة فى خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه ، فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا ، وأخرى معترضة كاللحمة ، كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ، ولبثها فى السقوف ، والجسور ، والأوانى ، وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب ، وغيرها إذا تأملته . شبه النسج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلب بل ترى بعضه كأنه دخل بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها فى بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه ، فإنه لو كان مصمتاً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى الآلات والأبواب والأوانى والأمتعة والأسرة والتوابيت ، وما أشبهها ، ومن بديع الحكمة فى الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة العظيمة ، والأمتعة الكثيرة ، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت فى البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم ﴿ **وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ، أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ .

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ تكذيب المشركين للرسول ـ ﷺ ـ فى صدر السورة ذكر المكذبين للرسل من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله ـ ﷺ ـ وعبرة لهم . ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد** ﴾ أى : كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب . ﴿ **كل كذب**

(١) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب الوصايا) باب ٦٣ ج ٣ ص ٣٥٩ رقم ٢٣٦٢ عن أبى هريرة وقال الترمذى : هذا حديث صحيح .

(٢) سورة ابراهيم من الآية ٣٤

الرسل ﴾ من هذه الأمم المكذبة ﴿ **فحق وعيد** ﴾ أى : فحق عليهم وعيدي وعقابي . كقوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ أى : أفأ عجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة ؟ ، ﴿ **بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ أى : فى حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم مكذب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير** ﴾(٢) وفى مسند الامام أحمد : من حديث بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »(٣) .

المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت فى سورة ق

يقول العلامة ابن القيم فى فوائده

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى ، وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء ، وهؤلا ، وتضمنت اثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كما له من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة ، والأصغر ، وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الإنسان ، ووفاته ، واعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، واحاطته ـــ سبحانه ـــ به من كل وجه ، حتى علمه **بوساوس** نفسه ، واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وإنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد

---

(١) سورة غافر الآيات ٤ ، ٥ **(٢) العنكبوت الآيتان : ١٩ ، ٢٠**

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ (حديث بشر بن جحاش عن النبى ﷺ والحديث فى اتحاف السادة المدعين ج ٤ ص ٣٤٨ وقال العراق : رواه بن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن حجاش : **قلت ورواه أيضا أحمد وابن سعد** والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم ولفظهم جميعاً بقول الله : يا ابن آدم أنى تعجزنى .. الخ .

يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : (هذا ما لدى عتيد) أى : هذا الذى أمرت بإحضاره قد احضرته ، فيقال عند إحضاره (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : أذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

(المعاد للجسد ذاته)

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله ــ سبحانه ــ يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ، ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها ، لا أنه ــ سبحانه ــ يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل ، حيث زعم أن الله ــ سبحانه ــ يخلق بدنا غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة ، وسائر كتب الله تعالى ، وهذا فى الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام آخر غير هذه الأجسام يعذبها ، وينعمها كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شىء ! فكل وقت يخلق الله ــ سبحانه ــ أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فنيت ، فكيف يتعجبون من شىء يشاهدونه عياناً ؟ ، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى ، وصاروا عظاما ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) كبير معنى .

فإنه ــ سبحانه ــ جعل هذا جوابا لسؤال مقدر ، وهو : إنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر ــ سبحانه ــ أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم ، وعظامهم ، وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها ، وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو : ــ سبحانه ــ يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ، ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثانى : إن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : إن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئا بعد شىء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ، ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك ، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد

أحدها : تقرير كمال علم الرب - سبحانه - وتعالى كما قال فى جواب من قال : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم ۝ قل يحييها الذى أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[1] ، وقال : ﴿ **وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾[2] .

والثانى : تقرير كمال قدرته ، كقوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾[4] ، وقوله : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير** ﴾[5] .

ويجمع — سبحانه — بين الأمرين كما فى قوله : ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم** ﴾ .

والثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينها لاعبين** ﴾[6] ، وقوله : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا** ﴾[7] ، وقوله : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[8] ، وقوله : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق** ﴾[9] ، وقوله : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[10].

---

(١) سورة (يس) الآيتان ٧٨ ، ٧٩

(٢) سورة الحجر الآيتان ٨٥ ، ٨٦

(٣) سورة (يس) من الآية ٨١

(٤) سورة القيامة الآية ٤

(٥) سورة الحج الآية ٦

(٦) سورة الدخان الآية ٣٨

(٧) سورة (ص) الآية ٢٧

(٨) سورة القيامة ٣٦

(٩) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥ ، ١١٦

(١٠) سورة الجاثية الآيتان ٢١ ، ٢٢

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب ــ تعالى ــ وكمال اسمائه ، وصفاته تقتضيه وتوجيه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم (**فهم فى أمر مريج**) مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر فى العالم العلوى وبنائه ، وارتفاعه ، واستوائه وحسنه ، والتئامه ، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض ، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وإن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب ، وتبصر بها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وإن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكر فى مادة أرزاقهم وأقواتهم ، وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض ، وأسود ، وأحمر ، وأصفر ، وحلو ، وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعها ، وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها ، واختلاف منافعها ، وصفاتها وأشكالها ، ومقاديرها . ثم ، أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ أى : مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار ، والأقوات ، والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها .

ثم انتقل ــ سبحانه ــ : إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهه وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذى أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم من أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب ، بل أخبر به أخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب ، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرنا بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد ــ سبحانه ــ إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ يقال : لكل من عجز عن شيء : عيى به ، وعيى فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :

عيـــــوا بأمرهـــــــم كما عيـــيت بيـــــضتها الحمامـــــة

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٦٤

ومن قوله تعالى : ﴿ ولم يعى بخلقهن ﴾ قال ابن عباس : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل : قلت : هذا تفسير يلازم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن العرب تقول : أعيانى أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعيانى دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه .

ولازم هذا المعنى : العجز عنه ، والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ،فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة ، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهى تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيي بأمره فلم يدر من أين يقصد له ، ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالاعياء : فى هذه الآية : التعب ، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى : هو الذى نفاه — سبحانه — عن نفسه فى آخر السورة بقوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ . ثم أخبر — سبحانه — أنهم ﴿ فى لبس من خلق جديد ﴾ أى : انهم الملتبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته ، وشواهد ربوبيته ، وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها ، وقواها وصفاتها ، وما فيها من اللحم ، والعظم والعروق ، والأعصاب والرباطات ، والناقد والآلات ، والعلوم ، والإدارات ، والصناعات .. كل ذلك من نطفة ماء . فلو أنصف العبد ربه لا كتفى بفكره فى نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه ، وصفاته ، ثم أخبر — سبحانه — عن أحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة وإن ذلك أدنى إليه من العرق الذى هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه ، والعلم به من ذلك العرق .. أ هـ .

الموت والبعث والجزاء

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى
ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ
سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ
﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ
لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ
وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

معانى المفردات

﴿ **الوسوسة** ﴾ : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلى ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر بالبال .

﴿ **حبل الوريد** ﴾ : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يروان من الرأس إليه .

﴿ **قعيد** ﴾ بمعنى مقاعد ، كالجليس بمعنى مجالس .

﴿ **والرقيب** ﴾ : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شراً فهو صاحب الشمال .

﴿ **عتيد** ﴾ أى : مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر .

﴿ **سكرة الموت** ﴾ : شدته ، ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بحقيقة الحال .

﴿ **تحيد** ﴾ أى : تميل وتعدل . ﴿ **يوم الوعيد** ﴾ : يوم إنجاز الوعد ، ﴿ **السائق والشهيد** ﴾ : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله والآخر يشهد عليها بعملها . ﴿ **الغطاء** ﴾ : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو : الغفلة والانهماك فى اللذات ، وقصر النظر عليها ، ﴿ **حديد** ﴾ أى : نافذ لزوال المانع للإبصار .

﴿ **القرين** ﴾ : هو : الملك الموكل بالمرء . ﴿ **عتيد** ﴾ أى : معدّ محضر . ﴿ **عنيد** ﴾ أى : مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق . ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى : كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه . ﴿ **معتد** ﴾ أى : متجاوز للحق ظالم . ﴿ **مريب** ﴾ أى : شاك فى الله وفى دينه ، ﴿ **القرين** ﴾ هنا : الشيطان المقيض له ، ﴿ **بعيد** ﴾ أى : من الحق ، ﴿ **لا تختصموا لدى** ﴾ أى : لا يجادل بعضكم بعضا عندى ، ﴿ **بالوعيد** ﴾ أى : على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى .

﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أى : لا يقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى . ﴿ **مزيد** ﴾ : زيادة . ﴿ **أزلفت** ﴾ أى : أدنيت وقرّبت . ﴿ **غير بعيد** ﴾ أى : فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم . ﴿ **هذا ما توعدون** ﴾ أى : هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل . ﴿ **أوّاب** ﴾ أى : رجّاع عن المعصية إلى الطاعة . ﴿ **حفيظ** ﴾ أى : حافظ لحدود الله وشرائعه . ﴿ **خشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى : خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ﴿ **منيب** ﴾ أى : مخلص مقبل على طاعة الله . ﴿ **بسلام** ﴾ أى : سالمين من العذاب وزوال النعم ، ﴿ **الخلود** ﴾ أى : فى الجنة إذ لا موت فيها . ﴿ **مزيد** ﴾ أى : مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن استدل ـ سبحانه ـ على إمكان البعث بقوله : أفعيينا بالخلق الأول . أردف ذلك دليلا آخر على إمكانه ، وهو علمه بما فى صدورهم ، وعدم خفاء شىء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لا شك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها . ثم ذكر ـ سبحانه ـ الحوار الذى دار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر ورد القرين عليه ، وأن الله ـ سبحانه ـ نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم على ألسنة رسله ، ثم أردف هذا ذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم وتثلج لمرآها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الأنبياء . والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ، ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ۝ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ۝ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ۝ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة من الآية ٧٢

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره حتى أنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر ، كما قال تعالى : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾[1] ، وكما قال جل فى علاه : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[2] ، وكما قال جل ذكره : ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ ، قال ابن كثير يعنى : ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العليم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ ، كما قال فى المحتضر : ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ يعنى : ملائكته وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[4] فالملائكة نزلت بالذكر — وهو : القرآن — بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه باقتدار الله — جل وعلا — لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة وكذلك : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، ولهذا قال : تعالى : ههنا ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان . أ هـ .

وقال ابن القيم — رحمه الله — قال شيخنا — ابن تيمية — المراد : بقول : ﴿ **نحن** ﴾ أى : ملائكتنا ، قال : ويدل عليه قوله : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ .

فقيد المذكور يتلقى الملكين .. أ هـ .

قال الإمام ابن تميه « وهو — سبحانه — فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ، فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله تعالى : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

---

(١) سورة (طه) الآيات ٦ — ٨ .

(٢) سورة (الملك) الآيتان ١٣ ، ١٤

(٣) سورة التوبة الآية ٧٨

(٤) سورة (الحجر) الآية ٩

(٥) من الحديث الموجود فى البخارى كتاب الأحكام (باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء) ج ٩ ص ٨٧ .
— وفى سند الامام أحمد ج ٣ ص ١٥٦
— وفى سنن أبى داود (كتاب الصوم) باب المعتكف يدخل البيت عند الحاجة ج ٢ ص ٨٣٥ رقم ٢٤٧٠ .

﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ، ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ أى : مترصد كقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ﴿ **إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ أى : إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة قال ابن كثير : وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شىء من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب ، وعقاب كما هو قول ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ؟ على قولين : الأظهر الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد بسنده ، عن بلال بن الحارث المزنى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ــ تعالى ــ ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله ــ عز وجل ــ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه »(٣) قال : فكان علقمة ــ الذى روى الحديث عن بلال بن الحارث ــ يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وله شاهد فى الصحيح . وقال **الأحنف** بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله ــ تعالى ــ نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، رواه ابن حاتم وقال : الحسن البصرى ، وتلا هذه الآية ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل ، أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾(٤) ، ثم يقول : عدل ، والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وذكر الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات ــ رحمه الله ــ .

---

(١) سورة الانفطار الآيات ١٠ ــ ١٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٠

(٣) الحديث فى سند الامام أحمد ج ٣ ص ٤٦٩ ورد الحديث بلفظه عن بلال بن الحارث المزنى .

ــ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الزهد) باب ما جاء فى قلة الكلام رقم ٢٤٢١ .

ــ وفى سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٢ ، ١٣١٣ رقم ٣٩٦٩ .

(٤) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

قوله تبارك ــ وتعالى ــ : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ يقول : ــ عز وجل ــ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أى : كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، ﴿ **ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ أى : هذا هو الذى كنت تفر منه ، قد جاءك فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص . قال تعالى : ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾[2] ، وقال جل فى علاه : ﴿ **كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾[3] .

يا خاطب الدنيا إلى نفسه ... تنخ عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غرارة ... قريبة العرس من المأتم

قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال الحسن البصرى : ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .

وقال أبو العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ... ورحى المنية تطحن
وما دون دائرة الردى ... حصن لمن يتحصن

وقال آخر :

زينت بيتك جاهلاً وتحمرته ... ولعل غيرك صاحب البيت
من كانت الأيام سائرة به ... فكأنه قد حل بالموت
والمرء مرتهن بسوف وليتنى ... وهلاكه فى السوف والليت
لله در فتى تدبر أمره ... فغدا وراح مبادر الفوت

وكان عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله ــ عنه يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله ــ عز وجل ــ من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله ــ تعالى ــ واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا تروان أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه

---

(١) سورة الجمعة الآية ٨
(٣) سورة العنكبوت الآية ٥٧
(٤) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، ياابن آدم ، إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم . مَن رأى محمداً ـــ ﷺ ـــ فقد رآه غادياً رائحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفع له عَلم فشمَّر إليه . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . علام تعرّجون . أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل يوم ترذلون ، فماذا تنتظرون . إن الله ـــ تعالى ـــ بعث محمداً ـــ عليه السلام ـــ على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعا ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتا وبُلغة ثم قال : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾[1] فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم أذكر قوله : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[2] عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم ، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . ما لى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً . ذهب الناس

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢١

(٢) سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

وبقى النسناس . لو تكاشفتم ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق و لم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله أمراً أهدى إلينا مساوينا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن أخذه من قبل ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم ، وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته . فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم ، ليس الإيمان بالتحلى ، ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى القلب ، وصدقته الأعمال .

تذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة

باب : ذكر الموت والاستعداد له

يقول العلامة القرطبى فى كتابه (التذكرة) ما ملخصه .

روى النسائى عن أبا هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أكثروا ذكر هاذم اللذات »[١] يعنى الموت .

وروى الترمذى : عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »[٢] .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[٣] أى : أكثركم للموت ذكراً ، وله أحسن استعدادا ومنه أشد خوفاً محذراً .

﴿ **فصل** ﴾ : قال : علماؤنا ـ رحمة الله عليهم ـ قوله : عليه الصلاة والسلام : « أكثروا ذكر هادم اللذات الموت »[٤] كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة ، وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنيها فى المستقبل ، وزهده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففى قوله : عليه ـ الصلاة والسلام ـ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت »[٥] مع قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[٦] ما يكفى السامع له ، ويشغل الناظر فيه وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

---

(١) الحديث فى سنن النسائى ج ٤ ص ٤ كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن (كتاب صفحة القيامة) باب ذكر الموت .

وفى سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة تبارك من الآية ٢

(٤) الحديث فى رقم ١ من هذه الصفحة

(٥) الحديث فى رقم ١ فى هذه الصفحة

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥ وفى سورة العنكبوت من الآية ٥٧

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوماً كما وردوا

﴿ **فصل** ﴾ : إذا ثبت ما ذكرناه . فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه ، فإنه لا يدوم . والموت أصعب منه ، أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها . ولقد أحسن من قال :

اذكر الموت هادم اللذات ، وتجهز لمصرع سوف يأتى .

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم . وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك . وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل . الرحيل . فلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه . فقيل : إنه قد مات فقال :

مازال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً متشمّراً ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشى يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم : يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه . وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه ـ يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة والآخرة ، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل فى العبادة ، فتفكر يا مغرور فى الموت وسكرته ، وصعوبة كأسة ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ، وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك ، وغطائك إلى عرى ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد

فى البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان ، بل هى والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب . فأين الذى جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾[1] أى : أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة وهى الجنة ، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة ، لا فى الطين والماء والتجبر والبغى ، فكأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذى هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تُلوى فيهما ، وحنوطُ

وقال آخر :

هى القناعة لا تبغى بها بدلاً ... فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

﴿ **فصل** ﴾ وقوله ــ ﷺ ــ : « الكيس من دان نفسه »[2] ، دان : حاسب . وقيل ذل . قال أبو عبيدة : دان نفسه : أى : أذلها واستعبدها . يقال : دنته أدينه ، إذا ذللته فيذل نفسه فى عبادة الله ــ سبحانه ــ وتعالى ، عملاً يعدّه لما بدع الموت ، ولقاء الله ــ تعالى ــ ، وكذلك يحاسب نفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره ، بصالح عمله ، والتنصل من سالف زلله ، وذكر الله ــ تعالى ــ وطاعته فى جميع أحواله . فهذا هو الزاد ليوم المعاد ، والعاجز ضد الكيس . والكيس : العاقل ، والعاجز : المقصر فى الأمور ، فهو مع تقصيره فى طاعة ربه ، واتباع شهوات نفسه متمن على الله أن يغفر له ، وهذا هو الاغترار فإن الله ــ تعالى ــ أمره ونهاه ، وقال الحسن البصرى : « إن قوماً ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى . وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل » وتلا قوله تعالى : ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾[3] .

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ (كتاب حفة القيامة) باب ذكر الموت : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وفى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٣

باب ما يذكر الموت والآخرة ويزهد فى الدنيا

روى مسلم عن أبى هريرة قال : زار النبى - ﷺ - قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : « استأذنت ربى أن استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »[1] .

فصل) : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء . أما الشوابُّ فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لهن ذلك ، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف فى هذا إن شاء الله - تعالى - وعلى هذا المعنى يكون قوله عليه - الصلاة والسلام - : « زوروا القبور » عاماً . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحل ..

وروى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه خرج إلى المقبرة فلما أشرف عليها قال : يا أهل القبور أخبرونا عنكم ، أو نخبركم أما خبر من قبلنا : فالمال قد اقتسم ، والنساء قد تزوجن ، والمساكن قد سكنها قوم غيركم ، ثم قال : أما والله لو استطاعوا لقالوا : لم نر زاداً خيراً من التقوى .

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول :

يا عجباً للناس لو فكروا ... وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها ... فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى ... غداً إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى ... والبر كانا خير ما يدخر
عجبت للإنسان فى فخره ... وهو غداً فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة ... وجيفة آخره يفجر
أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره ... فى كل ما يقضى وما يقدر

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب استئذان النبى - ﷺ - ربه عز وجل - فى زيارة قبر أمه ج ٢ ص ٦٧١ رقم ١٠٨ / ٩٧٦ ورد بلفظه عن أبى هريرة .
وفى سنن ابن ماجة (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة قبور المشركين ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧٢ .

علاج قسوة القلب

(فصل) قال العلماء : ــ رحمة الله عليهم ــ : ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هى عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب ، وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها .

الثانى : ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين ، والبنات كما تقدم فى الباب قبل ، قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصى ، ويلين القلب القاسى ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها .

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، ما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان عن النوم والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد فى الاجتهاد والتعب .

فهذه ثلاثة أمور ينبغى لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه ، فإن انتفع بها فذاك ، وإن عظم عليه ران القلب واستحكمت فيه دواعى الذنب ، فزيارة قبور الموتى تبلغ فى دفع ذلك ما لا يبلغه الأول ، والثانى ، والثالث . ولذلك قال : عليه الصلاة والسلام ــ : « زوروا القبور فإنها تذكر الموت والآخرة ، وتزهد فى الدنيا »[1] ، فالأول : سماع بالأذن ، والثانى . إخبار للقلب بما إليه المصير وقائم له مقام التخويف والتحذير فى مشاهدة من احتضر ، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ، فلذلك كانا أبلغ من الأول والثانى . إلا أن لاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن فى كل الأوقات . وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه فى ساعة من الساعات ، وأما زيارة القبور : فوجودها أسرع ، والانتفاع بها أليق وأجدر ، فينبغى لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها ، ويحضر قلبه فى إتيانها ، ولا يكون حظه منها الطواف على الأجداث فقط ، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة ، ونعوذ بالله من ذلك . بل يقصد بزيارته . وجه الله ــ تعالى ــ وإصلاح فساد قلبه ، أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن ، ويجتنب المشى على المقابر ، والجلوس عليها إذا دخل المقابر ، ويخلع نعليه كما جاء فى أحاديث ، ويسلم إذا دخل المقابر ، ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[2] كذلك كان عليه ــ الصلاة والسلام ــ يقول : ــ

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ رقم ١٥٦٩ ، ١٥٧١ .

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه كتاب الجنائز (باب ما يقال فى إذ دخل المقابر ج ١ ص ٤٩٣ رقم ١٥٤٦ من رواية عائشة ــ رضى الله عنها ــ

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراق ﴾[1]

روى البخارى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ كانت بين يديه ركوة ، أو علبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ثم نصب يديه فجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده[2] .

وروى أبو هدية ابراهيم بن هدية قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »[3] .

وفى الخبر من حديث حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن النبى ــ ﷺ ــ « إن الملائكة تكتنف العبد ، وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحارى والبرارى من شدة سكرات الموت »[4] وجاءت الرواية بأن ملك الموت ــ عليه السلام ــ إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : « وعزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن » ذكره القاضى أبو بكر بن العربى .

(فصل) : قال علماؤنا ــ رحمة الله عليهم ــ : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين ؟ وعن الأستعداد له متخلفين ؟ ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾[5] قالوا : وما جرى على الأنبياء ــ صلوات الله عليهم أجمعين ــ من شدائد الموت وسكراته ، فله فائدتان .

أحداهما : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً ويرى سهولة خروج روحه ، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه ؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خيرهم : شدة ألمه ، مع كرامتهم على الله ــ تعالى ــ وتهوينه على بعضهم ، قطع الخلق بشدة الموت الذى يعانيه ، ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه ، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما يأتى ذكره .

الثانية : وبما خطر لبعض الناس أن هؤلاء : أحباب الله ، وأنبياؤه ورسله ، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ وهو ــ سبحانه ــ قادر أن يخفف عنهم أجمعين ، كما قال : فى قصة ابراهيم : « أما

---

(١) سورة القيامة الآية ٢٦
(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣٣ (كتاب الرقاق) باب سكرات الموت
(٣) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٣ (وجاءت سكرة الموت بالحق) سورة (ق)
(٤) الحديث فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٢٧١ عن أنس بن مالك .
(٥) سورة (ص) الآيتان ٦٧ ، ٦٨

روى أبو داود ، عن بريدة بن خصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة »(١) وذكر النسائي عن بريدة أيضا ، عن النبي ﷺ قال : ﷺ من أراد أن يزور قبرا فليزوره ، ولاتقولوا هُجرا »(٢) بمعنى سوءا ، وذكر أبو عمر من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « مامن رجل يمر بقبر أخيه المؤمن الذى كان يعرفه فيسلم عليه ، إلا رد عليه السلام »(٣) روى هكذا موقوفا عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « فإن لم يعرفه وسلم : رد عليه السلام » .

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ـــ قالت : قلت يا رسول الله : كيف أقول : إذا دخلت المقابر ؟ قال : « قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين ، وإنا ، إن شاء الله ، بكم لاحقون »(٤) .

وفى الصحيحين أنه عليه ـــ الصلاة والسلام ـــ مرّ بإمرأة تبكى عند قبر لها فقال لها : « اتقى الله واصبرى »(٥) الحديث

باب ما جاء أن للموت سكرات وفى تسليم الأعضاء بعضها على بعض وفيما يصير الإنسان إليه

وصف الله ـــ سبحانه ـــ وتعالى ـــ شدة الموت فى أربع آيات :

الأولى : قوله الحق : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾(٦)

الثانية : قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ﴾(٧)

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾(٨)

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧١ .

(٢) الحديث فى سنن النسائى ج ٤ ص ٨٩ (كتاب الجنائز) باب زيارة القبور .

(٣) الحديث فى تاريخ الخطيب ج ٦ ص ١٣٧ رقم ٣١٧٥

وانظر كنز العمال ج ١٥ ص ٦٥٧ رقم ٤٦٠٢

(٤) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور ج ٢ ص ٦٧١ رقم ١٠٣ / ٩٧٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب فى الصبر فعلى المصيبة عند الصدمة الأولى ج ٢ ص ٦٣٧ رقم ١٥ / ٦٢٦ .

وفى صحيح البخارى ج ٩ ص ٨١ (كتاب الأحكام) باب ما ذكر ان النبى ﷺ (لم يكن له بواب) .

(٦) سورة (ق) الآية ١٩

(٧) سورة الأنعام الآية ٩٣

(٨) سورة الواقعة الآية ٨٣

إنا قد هونا عليك » فالجواب : « إن أشد الناس بلاء فى الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »(١) كما قال نبينا ـــ عليه الصلاة والسلام . خرجه البخارى وغيره ، فأحب الله أن يبتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه ، ورفعة لدرجاتهم عنده ، وليس ذلك فى حقهم نقصاً ، ولا عذاباً ، بل هو كمال قال : كمال رفعة ، مع رضاهم بجميل ما يجرى الله عليهم ، فأراد الحق ـــ سبحانه وتعالى ـــ أن يختم لهم بهذه الشدائد ، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ، ليرفع منازلهم ، ويعظم أجورهم قبل موتهم . كما ابتلى ابراهيم بالنار ، وموسى بالخوف والأسفار ، وعيسى بالصحارى والقفار ، ونبينا محمداً ـــ ﷺ ـــ بالفقر فى الدنيا ومقاتلة الكفار ، كل ذلك لرفعة فى أحوالهم ، وكمال فى درجاتهم ، ولا بفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم ، ومؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا .

باب الموت كفارة لكل مسلم

أخرج أبو نعيم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ « الموت كفارة لكل مسلم »(٢) ، ذكره القاضى أبو بكر ابن العربى فى سراج المريدين له ، وقال فيه : حديث صحيح حسن .

(فصل) : إنما كان الموت كفارة ، لكل ما يلقاه الميت فى مرضه من الآلام والأوجاع ، وقد قال ـــ ﷺ ـــ : « ما من مسلم يصيبه أذى ، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »(٣) . اخرجه مسلم .

وعن زيد بن أسلم : مولى عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شىء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بـ كرات الموت وشدائده درجته من الجنة ، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفا فى الدنيا ، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فى الدنيا ثم : يصير إلى النار » ذكره أبو محمد عبد الحق .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ (أبواب الزهد) من رواية سعد عن أبيه .
ـــ وفى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ من رواية سعد بن أبى وقاص (كتاب الفتن) باب الصبر على البلاء .
وفى صحيح البخارى : (كتاب الطب) باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول من رواية عبد الله ولفظه « الأمثل فالأمثل بهامشه » .
وفى سند الامام أحمد : ج ١ ص ٧٢ عن رواية مصعب بن سعد بن أبى وقاص : بلفظه
(٢) الحديث فى حلية الأولياء ج ٣ ص ١٢١
(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩١ رقم ٤٥ / ٢٥٧١ (كتاب البر والصلة)

باب لا يموت أحد إلا وهو يحسن بالله الظن وفى الخوف من الله تعالى

روى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : قبل وفاته بثلاثة أيام : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن »[١] وذكر الترمذى الحكيم عن الحسن أنه قال : بلغنى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : قال ربكم ــ عز وجل ــ : « لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فمن خافنى فى الدنيا ، أمنته فى الآخرة ، ومن أمننى فى الدنيا ، أخفته فى الآخرة »[٢] .

(فصل) : حسن الظن بالله ــ تعالى ــ ، ينبغى أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه فى حال الصحة ، وهو أن الله ــ تعالى ــ يرحمه ويتجاوز عنه ، ويغفر له ، وينبغى لجلسائه ، أن يذكروه بذلك حتى يدخل فى قوله تعالى فى الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما يشاء »[٣] .

وقال الفضيل بن عياض : « الخوف أفضل من الرجاء . ما كان العبد صحيحاً فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل من الخوف » .

وذكر ابن أبى الدنيا بسنده عن حصين عن إبراهيم قال : « كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت ، حتى يحسن ظنه بربه عز وجل » .

وفى التنزيل قال : ﴿ **ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[٤] .

باب تلقين الميت : لا إله إلا الله

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ **« لقنوا موتاكم لا إله إلا الله »**[٥] .

قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل به المسلمون . وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة ، وليدخل فى عموم قوله ــ عليه السلام ــ « من كان آخر كلامه

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٢ / ٢٨٧٧ (كتاب الجنة وصفة نعيمها)

(٢) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة (كتاب المواعظ) باب الخوف من الله ص ٧٤ .

(٣) الحديث فى المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب التوبة والإنابة » ج ٤ ص ٢٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة الحجر الآية ٥٦

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣١ رقم ١ ، ٢ / ٩١٦ (كتاب الجنائز) عن أبى سعيد
ــ وفى سنن أبى داود (كتاب الجنائز) باب فى التلقين ج ٣ ص ٤٨٧ رقم ٣١١٧ من رواية أبى سعيد الخدرى .

لا إله إلا الله دخل الجنة »(١) اخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل ، وصححه أبو محمد عبد الحق ، ولينبه المتحضر على ما يدفع به الشيطان ، فإنه يتعرض للمختضر ليفسد عقيدته ، (نسأل الله السلامة) .

فإذا تلقنها المحتضر ، وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر ، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين ، والإلحاح عليه إذا هو تلقنها ، أو فهم ذلك عنه . قال أبو محمد عبد الحق : وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لُح عليه بها أن يتبرّم ، ويضجر ، ويثقلها الشيطان عليه فيكون سبباً لسوء الخاتمة ، وكذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به . قال الحسن بن عيسى : قال : لى ابن المبارك لقنى — يعنى الشهادة — ولا تعد على إلا أن أتكلم بكلام ثان ، والمقصود أن يموت الرجل ، وليس فى قلبه إلا الله — عز وجل — لأن المدار على القلب ، وعمل القلب هو الذى ينظر فيه وتكون النجاة به ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما فى القلب فلا فائدة فيها ، ولا عبر عندها .

ولابد من تلقين الميت ، وتذكيره الشهادة ، وإن كان على غاية من التيقظ . فقد ذكر أبو نعيم الحافظ ، من حديث مكحول ، عن وائلة بن الأسقع ، عن النبى — ﷺ — « احضروا موتاكم ولقنوهم : لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحكيم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حياله »(٢) .

باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير وكيف الدعاء للميت إذا مات وفى تغميضه

روى مسلم عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قال : رسول الله — ﷺ — : « إذا حضرتم المريض ، أو الميت فقولوا : خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى — ﷺ — فقلت يا رسول الله : إن أبا سلمة قد مات فقال : قولى : « اللهم اغفر لى وله وأعقبنى منه عقبى حسنة »(٣) قالت : فقلت . فأعقبنى الله من هو خير منه رسول الله — ﷺ —

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٣ ص ٤٨٦ رقم ٣١١٦ (كتاب الجنائز) باب فى التلقين عن معاذ بن جبل .
(٢) الحديث انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٦
(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٦ / ٩١٩ ورد بلفظه عن ام سلمه .

وعنها قالت : دخل رسول الله ــ ﷺ ــ على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله ، فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال : « اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له فى قبره ، ونور له فيه »(١) .

(فصل) : قال علماؤنا : قوله : عليه الصلاة والسلام ــ : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خير »(٢) أمر ندب ، وتعليم بما يقال عند المريض ، أو الميت ، واخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك ولهذا استحب العلماء : أن يحضر الميت الصالحون ، وأهل الخير حالة موته ليذكروه ، ويدعوا له ولمن يخلفه ، ويقولوا خيراً فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت ومن يصاب به ، ومن يخلفه .

باب ما جاء فى سوء الخاتمة
وما جاء فى أن الأعمال بالخواتيم

روى مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة »(٣) .

وفى البخارى : عن سهل بن سعد ، عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم »(٤) .

قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة ــ أعاذنا الله منها ــ لا تكون لمن استقام ظاهرة وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به ــ والحمد لله ــ وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم . فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله ، ثم العياذ بالله ، أو يكون ممن كان مستقيماً ، ثم يتغير عن حاله ، ويخرج عن سننه ، ويأخذ فى طريقه ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته .

---

(١) الحديث وفى مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧ / ٩٢٠ (كتاب الجنائز)

(٢) الحديث فى صحيح مسلم فى رقم ١ فى (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٦ / ٩١٩

(٣) الحديث فى مسلم (كتاب القدر) باب القدر ج ٤ ص ٤٠٤٢ رقم ١١ / ٢٦٥١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٤) الحديث فى البخارى ج ٨ ص ١٥٥ (كتاب القدر) باب العمل بالخواتيم ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(قال العلماء) : وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة ، والاستقامة على مشيئته موقوفة ، والعاقبة مغيبة ، والإرادة غير مغالبة ، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره ، فمهما افتخرت بذلك ، كنت كالمفتخر بمتاع غيره ، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير ، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم . فأصبحت وزهرها يابس هشيم ، إذ هبت عليها الريح العقيم . كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم . ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .

باب ما جاء فى رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد فى الخبر : أن بعض الأنبياء ــ عليهم السلام ــ قال لملك الموت ــ عليه السلام ــ : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لى والله رسل كثيرة من الإعلال والامراض والشيب والهموم ، وتغير السمع والبصر فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب ، فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيراً بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذى ليس بعدى رسول ، وأنا النذير الذى ليس بعدى نذير .. فما من يوم تطلع فيه شمس ، ولا تغرب إلا وملك الموت ينادى : يا أبناء الأربعين ، هذا وقت أخذ الزاد ، أذهانكم حاضرة ، وأعضاؤكم قوية شداد . يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد ، ويا أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[١] . ذكره ابن الجوزى فى كتاب روضة المشتاق ، والطريق إلى الملك الخلاق .

وفى البخارى ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « أعذر الله إلى امرىء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة »[٢] .

يقال : أعذر فى الأمر أى : بالغ فيه أى : أعذر غاية الأعذار بعبده وأكبر الأعذار إلى بنى آدم بعثة الرسل إليهم ليتم حجته عليهم . ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[٣]

وللفقيه أبى عبد الله محمد بن أبى ذمنين ــ رحمه الله تعالى آمين ــ :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ... ونحن فى غفلة عما يداوينا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا

---

(١) سورة فاطر من الآية ٣٧
(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١١١ كتاب الرقائق ورد الحديث بلفظه .
(٣) الآية سورة الأسراء الآية رقم ١٥

أيـن الأحبـة والجيران مـا فعلـوا أيـن الذيـن هـو كانـوا لنـا سكنـا
سقاهـم الموت كـأساً غير صافيـة فصيرهـم لأطبـاق الثرى رهنـا

وروى أن ملك الموت دخل على داود ــ عليه السلام ــ فقال : من أنت ؟ فقال : من لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا ، قال : فإذا أنت ملك الموت قال : نعم قال : اتيتنى ولم أستعد بعد ؟ قال : يا داود أين فلان قريبك ؟ أين فلان جارك ؟ قال : مات ، قال : أما كان لك فى هؤلاء عبرة لتستعد . وقيل : النذير الحمى . ومنه قوله ــ ﷺ ــ : « الحمى نذير الموت »[1] أى : رائد الموت .

قال الأزهرى : معناه أن الحمّى رسول الموت أى : كأنها تشعر بقدومه ، وتنذر بمجيئه ، وقيل : موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان ، وذلك إنذار الرحيل فى كل وقت وأوان وحين وزمان .

باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر وأنه يصعد بها

أخرج ابن ماجه ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « تحضر الملائكة . فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب .. اخرجى حميدة وأبشرى برَوْح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون . فلان بن فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب . ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهى إلى السماء التى فيها الله تعالى . فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة ! كانت فى الجسد الخبيث . أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق . وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فلا يتفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر »[2] . اخرجه عن أبى بكر بن أبى شيبة .

وذكره مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها »[3] الحديث .

---

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ج ١ / صلب

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رقم ٤٢٦٢ خرجه أبو بكر بن أبى شيبه عن أبى هريرة .

(٣) الحديث وفى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٢ رقم ٧٥ / ٢٨٧٢ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك : قال : **ويقول** أهل السماء . روح طيبة جاءت من قبل الأرض ــ صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لعناً . ويقول : أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا بها إلى آخر الاجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله ــ ﷺ ــ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا .

وروى البخارى ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقالت عائشة ــ أو بعض أزواجه : انا لنكره الموت فقال : « ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه »[1] اخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس بن مالك .

وخرج الترمذى فى أبواب القدر عن أنس قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »[2] قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

وعن قتادة : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **روح وريحان** ﴾ قال : الروح : الرحمة ، والريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت .

باب ما جاء فى كيفية التوفى للموتى ؟ واختلاف أحوالهم فى ذلك

ذكر الله تعالى : التوفى فى كتابه مجملاً ومفصلاً : فقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾[3]

وقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾[4] ، وقال : ﴿ **توفته رسلنا وهم**

(١) الحديث فى البخارى (كتاب الإيمان) ج ٢ ص ١٣٥ طبعه دار السعادة فى هدايه البارى لترتيب أحاديث البخارى بلفظه . ــ وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب من أحب لقاء الله .

(٢) أحب الله لقاءه ج ٤ ص ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ حديث رقم ١٥ / ٢٦٨٤ ، فعد ورد الحديث بلفظه من رواية عائشة .

الحديث فى سنن الترمذى : أبواب القدر باب ما جاء إن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النها ج ٣ ص ٣٠٥ رقم ٢٢٢٩ عن أنس وورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) الآية سورة النحل من الآية ٣٢

(٤) سورة المسجد من الآية ١١

لا يفرطون ﴾(١) ، وقال : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾(٢) فهذا كله مجمل ، وقد بينه رسول الله ـــ ﷺ ـــ على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وقال : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾(٣) ، وقال : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾(٤) وهذا مخصوص بمن قتل من الكفار يوم بدر بإتفاق أهل التأويل ، فيما قاله : بعض علمائنا ، وقد ذكر المهدوى وغيره : فى ذلك اختلافا ، وأن الكفار حتى الآن يتوفون بالضرب ، والهوان والله أعلم .

فصل : إن قال : قائل : كيف : الجمع بين هذه الآى وكيف : يقبض ملك الموت فى زمن واحد أرواح من يموت بالمشرق والمغرب ؟ قيل له : اعلم أن التوفى مأخوذ من توفيت الذين واستوفيته إذا قبضته ولم يدع منه شيئاً ، فتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك ، وتارة إلى أعوانه من الملائكة ، لأنهم قد يتولون ذلك أيضا ، وتارة إلى الله ـــ تعالى ـــ وهو المتوفى على الحقيقة كما قال سبحانه : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾(٥) ، وقال ﴿ **وهو الذى أحياكم ثم يميتكم** ﴾(٦) ، وقال : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم** ﴾(٧) فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره .

وقال الكلبى : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا ، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً ، وهذا المعنى منصوص فى حديث البراء ، وسيأتى ان شاء الله .

باب ما جاء إن ملك الموت ـــ عليه السلام ـــ هو القابض لأرواح الخلق وانه يقف على كل بيت فى كل يوم خمس مرات

قال الله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾

وروى جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : نظر رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : له النبى ـــ ﷺ ـــ : « إرفق بصاحبى فإنه مؤمن »(٨) فقال : ملك

(١) سورة الأنعام من الآية ٦١

(٢) سورة النحل من الآية ٢٨

(٣) **سورة الأنفال الآية ٥٠**

(٤) سورة (محمد) من آية ٢٧

(٥) سورة الزمر من الآية ٤٢

(٦) سورة الحج من الآية ٦٦

(٧) سورة الملك من الآية ٢

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٩٣ عن رواية جعفر بن محمد عن أبيه ورد هذا الحديث بلفظه (تفسير سورة السجدة) فى قوله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾ .

الموت — عليه السلام — : يا محمد طب نفسا ، وقر عينا فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم ، وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها .

قال جعفر بن محمد : بلغنى أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الماوردى .

قال الشيخ المؤلف — رحمه الله — وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل ذى روح ، وأن تصرفه كله بأمر الله — عز وجل — وبخلقه واختراعه .

باب ما يتبع الميت إلى قبره ، وبعد موته وما يبقى معه فيه

روى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يتبع الميت ثلاث . فيرجع اثنان ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »[1] .

وقال اسماعيل بن رافع : ما من ذى رحم أوصل لذى رحمه ، من رجل أتبع ذا رحم بحج أو عتق أو صدقة .

باب ما جاء فى هول المطلع

قال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدرى أأرضى الله أم أسخطه ؟ وأبكانى ثلاث : فراق الأحبة محمد — ﷺ — وحزبه ، وأحزننى هول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدرى إلى الجنة أو إلى النار » أخرجه ابن المبارك .

قال وأخبرنا محمد ، بلغ به أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بيومين وليليتين لم تسمع الخلائق بمثلهن : أول يوم يجيئك البشير من الله — تعالى — إما برضاه ، وإما بسخطه ، ويوم تعرض فيه على ربك أخذاً كتابك ، إما بيمينك وإما بشمالك . وليلة تستأنف فيها المبيت فى القبور ولم تبت فيها قط . وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة .

(١) الحديث فى مسلم « كتاب الزهد والرقائق) ج ٤ ص ٢٢٧٣ حديث رقم ٥ / ٢٩٦٠ فقد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة وفى البكاء عنده ، وفى حكمه والاستعداد له

روى ابن ماجه عن هانىء بن عثمان قال : كان عثمان ــ رضى الله عنه ــ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له . تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ قال : إن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة . فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » . قال ما رأيت منظراً قط إلا ، والقبر أفظع منه »[١] .

وروى ابن ماجه عن البراء ، قال : كنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ فى جنازة . فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بلّ الثرى ثم قال : « يا إخوانى لمثل هذا فأعدوا »[٢] .

وروى مسلم عن جابر ، قال : نهى رسول الله ــ ﷺ ــ « أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه »[٣] .

قال علماؤنا ــ رحمهم ــ : وكره مالك تجصيص القبور ، لأن ذلك من المباهاة وزينة الحياة الدنيا ، وتلك منازل الآخرة ، وليس بموضع المباهاة ، وإنما يزين الميت فى قبره عمله . وأنشدوا :

وإذا وليت أمور قوم ليلة   فاعلم بأنك بعدها مسؤول
وإذا حُملت إلى القبور جنازة   فأعلم بأنك بعدها محمول
يا صاحب القبر المنقشِ سطحُه   ولعله من تحته مغلول

وفى صحيح سلم ، عن أبى الهياج الأسدى ، قال : قال لى على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ــ ﷺ ــ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفا إلا سويته .[٤]

وقال أبو داود فى المراسيل ، عن عاصم بن أبى صالح : رأيت قبر النبى ــ ﷺ ــ شبراً ، أو نحواً من شبر ، يعنى : فى الارتفاع .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٦ كتاب الزهد ــ باب ذكر القبر والبلى

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤٩١٥ عن البراء

(٣) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب النهى عن تجصيص القبر والبناء عليه فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ج ٢ ص ٦٦٧ حديث رقم ٩٤ / ٩٧٠

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب الأمر بتسوية القبر ج ٢ ص ٦٦٦ حديث رقم ٩٣ / ٩٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى الهياج الأسرى .

قال علماؤنا : ـــ رحمة الله عليهم ـــ يسنم القبر ليعرف كي يحترم ويمنع من الارتفاع الكثير الذى كانت الجاهلية تفعله ، فإنها كانت تعلى عليها . وتبنى فوقها تفخيماً لها وتعظيماً ، وأنشدوا :

أرى أهـل الـقصور إذا أميتـوا بنـوا فـوق المقابـر بالصخـور
أبـوا إلا مباهـاة وفخـراً على الفقـراء حتـى فى القبـور
لعمـرك لـو كشفت الترب عنهم فمـا تـدرى الغنـى مـن الفـقير
ولا الجلد المباشر ثـوب صوف مـن الجلـيد المبـاشر للحريـر
إذا أكل الثرى هـذا وهـذا فمـا فضل الغنـى على الفـقير ؟

يا هذا ، أين الذى جمعته من الأموال ، وأعددته للشدائد والأهوال ، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفراً ، وبدلت من بعد غناك ، وعزك ذلاً وفقراً ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا من سلب من أهله ودياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد ، إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أو ما علمت يا مغرور : أن لابد من الارتحال ، إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثم قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدى الملك الديان ، ما بطشت اليدان ، ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك فإلى الجنان ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران ، يا غافلاً عن هذه الأحوال . إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتحسب أن الأمر صغير ، وتزعم أن الخطب يسير ؟ وتظن أن سينفعك حالك ، إذ آن إرتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، إذ زلت بك قدمك أو يعطف عليك معشرك ، حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ماتتوهم ، ولابد لك أن ستعلم . لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ، ولا **للعظات** تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع دأبك أن تنقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك ، يا نائماً فى غفلة وفى خبطه يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غداً ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ، أم تميز بين الأشد والرشا ، كلا والله لن يدفع عن الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى** ﴾[1] فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمن منازل الأبرار ، وأنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار ، بل أكثر من الأعمال الصالحات ، وراقب الله فى الخلوات ، رب الأرض والسموات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل ، أو ما سمعت الرسول حيث يقول : « لما جلس على القبور . يا أخوانى ، لمثل هذا فأعدوا »[2] أو ما سمعت الذى

---

(١) سورة النجم الآيتان ٣٩ ، ٤٠

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤١٩٥

خلقك فسواك يقول : ﴿ وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى ﴾[1] .

وأنشدوا :

تــزود مــن معــاشك للمعــاد وقــم لله وأعمــل خير زاد
ولا تجمــع مــن الدنيــا كــثيرا فــإن المال يجمــع للنفــاد
أتــرضى أن تكــون رفيــق قــوم لهم زاد وأنت بــغير زاد

وقال آخر :

ولــدتك أمك ياابن آدم باكيــاً والقــوم حــولك يضحكــون سروراً
فأمل ليوم أن تكــون إذا بكــوا فى يــوم مــوتك ضاحكــاً مسروراً

وروى عن محمد القرشى أنه قال : سمعت شيخنا يقول : أيها الناس : إنى لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، فاعملوا فى ظلمة الليل لظلمة القبور ، وصوموا فى الحر قبل يوم النشور ، وحجوا يحط عنكم عظائم الأمور ، وتصدقوا مخافة يوم عسير .

باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفى قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسى ، وعند بن حميد فى مسنديهما ، وعلى بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية ، وهناد بن السرى فى زهده . وأحمد بن حنبل فى مسنده وغيرهم .. وحديث أبى عوانه أتمهما قال البراء : خرجنا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير » قال عمر بن ثابت : (وقع) ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرفع بصره ، وينظر إلى السماء ، ويخفض بصره ، وينظر إلى الأرض ، ثم قال : « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم : قال : « إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول اخرجى أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ، ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا » قال : عمرو فى حديثه : ولم يقله أبو عوانه « وإن كنتم ترون غير ذلك . وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها فى يده طرفة عين » قال : فلذلك قوله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ قال :

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧

فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتعرج الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقال : اكتبوا كتابه فى عليين ﴿ **وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون** ﴾ فيكتب كتابه فى عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فيرد إلى الأرض ، وتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ، ودينى الإسلام ، فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ قال : وينادى منادى السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره ، ويمثل عمله له فى صورة رجل حسن الوجه : طيب الرائحة ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فيقول : بشرك الله بخير ، من أنت فوجهك الوجه الذى جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد ، أو الأمر الذى كنت توعد أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً . فيقول : يارب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى .. قال : « فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك الموت فجلس عند رأسه فقال : أخرجى أيتها النفس الخبيثة ، أبشرى بسخط من الله وغضبه فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، قال : فتفرق فى جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجُدت ، فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم فيقولون ردوه إلى الأرض إنى وعدتهم انى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمى به من السماء قال وتلا هذه الآية : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ قال : فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديداً الانتهار فينهرانه ، ويجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه فيُقال محمد ، فيقول : لا أدرى سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح ، قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول : من أنت فوجهك الذى جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فو الله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله ، قال عمرو فى حديثه عن المنهال

عن زادان عن البراء عن النبى ــ ﷺ ــ : « فيقيِّض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً » ، أو قال : رميماً فيضربه به ضربة تسمعه الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى »[1] ، وفى رواية على بن معبد ثم يقال : افرشوا له لو حين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ، ويفتح له باب إلى النار » . أ هـ .

الموت بحر طافح موجه　　تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إنى قائل فاسمعى　　مقالة من مشفق ناصح
لا ينفع الإنسان فى قبره　　غير التقى والعمل الصالح

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ وهى : النفخة الآخرة للبعث ، ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : سائق : يسوقها إلى الله تعالى ، وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وقال مطرف عن أبى جعفر مولى أشجع عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال السائق الملك **والشهيد** العمل . وقال ابن جرير « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » ، أى : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ ، أى : لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة عن هذا الذى عانيت من الأهوال والشدائد ، فجلينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته فزالت عنك هذه الغفلة . ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾ أى : قوى نافذ يرى ما كان محجوباً عنه . وقال مجاهد : ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾ يعنى : نظرك إلى لسان ميزانك حين

(١) الحديث انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ فقد ورد الحديث عن البرار بن عازب وهو حديث طويل وهو مختلف فى ترتيب جملة عما هو مدون هنا مع الاتحاد فى المعنى والمراد .
وانظر مسند أبى داود الطيالسى ج ٣ ص ١٠٢ حديث رقم ٧٥٣ الحديث الطويل المروى عن أبى عوانه .
(٢) سورة (يس) الآيات ٥١ ــ ٥٣

توزن سيئاتك وحسناتك . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً** ﴾[١] .

النفخ فى الصور

قال القرطبى — رحمه الله — :

« قال : علماؤنا — رحمهم الله — فالنفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ويجمع ما تفرق منها فى البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهيئاتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء .

اخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابى إلى النبى — ﷺ — فقال : « ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه »[٢] قال هذا حديث حسن .

وعن أبى سعيد الخذرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « وكيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ » ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى — ﷺ — فقال : لهم : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل »[٣] قال حديث حسن .

ومعنى التقم أى وضع طرفه فى فمه

وأخرج أبو داود الطيالسى ، والبيهقى ، وغيرهما ، عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى قومك جدباً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : نعم قال : « فتلك آية الله فى خلقه »[٤] .

وهذا الحديث : موافق لقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى**

---

(١) سورة النبأ من الآية ٤٠

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة — باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤١ حديث رقم ٢٥٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤٢ حديث رقم ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى سعيد ولفظه : وكيف انعم وصاحب القرن قد التصم القرن واستمع الإذن متى يؤمرُ بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى — ﷺ — فقال لهم : « قولو حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن .

وقد روى من غير هذا وجه هذا الحديث عن عطية عن أبى سعيد عن النبى — ﷺ — نحوه .

(٤) الحديث فى مسند أبى داود الذيالس ج ٤ ص ١٤٧ . من رواية أبى رزين العقيلى .

وانظر مسند أحمد ج ٤ ص ١١ ، ١٢ فقد وردت أحاديث متعددة بهذا المعنى .

لعلكم تذكرون ﴾(١) ، وقوله تعالى : **﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾**(٢) والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

باب : يبعث كل عبد على ما مات عليه

روى مسلم : عن جابر بن عبد الله ، قال : سمعت النبى ــ ﷺ ــ يقول : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »(٣) .

وروى البخارى عن عبد الله ، بن عمر قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »(٤) .

وروى مالك عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « والذى نفسى بيده لا يُكْلَم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة ، وجرحه يثعب دماً اللون لون الدم ، والعرف عرف المسك »(٥) واخرجه أيضا البخارى ومسلم .

وروى أبو هديه ابراهيم بن هديه : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ، ويعاين منكراً ونكيراً سكران ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق فى سوط جهنم يسمى السكران ، فيه عين يجرى ماؤها دماً ، لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه » .

وروى مسلم عن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله ــ ﷺ ــ محرماً فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله ــ ﷺ ــ « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » واخرجه البخارى أيضا .

قوله تعالى : **﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فالقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾** .

---

(١) سورة الاعراف الآية ٥٧

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٣ / ٢٨٧٨ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٤ / ٢٨٧٩ ــ وفى الخبارى (كتاب الفتن) باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً ــ ج ٩ ص ٧١ .

(٥) الحديث : وفى الموطأ للإمام مالك ج ٢ ص ٤٦١ عن أبى هريرة بلفظه (كتاب الجهاد) وباب الشهداء فى سبيل الله .
والحديث فى البخارى (كتاب الجهاد) باب من يجرم فى سبيل الله ــ عز وجل ــ ج ٤ ص ٢٢ عن أبى هريرة .
والحديث فى مسلم (كتاب الامارة) باب ــ فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله ج ٣ ص ١٩٩٦ رقم ١٠٣ ، ١٠٥ / ١٨٧٦

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ فى هذه الآيات : أخبر سبحانه أنه قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره ! هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد ، وقال ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى والتحقيق أن الآية : تتضمن الأمرين ، أى : هذا الشخص الذى وكلت به ، وهذا عمله الذى أحصيته عليه فحينئذ يقال : ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهاً آخر فالقياه فى العذاب الشديد** ﴾ وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً ، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

أحدها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير الذى هو احسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله ، والخير الذى هو احسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير ، معتد على الناس ، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

الخامسة : أنه مريب ، أى : صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت لكل ريبة .

السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله آلهاً آخر يعبده ، ويحبه . ويغضب له ، ويرضى له ، ويحلف باسمه ، وينذر له ، ويوالى فيه ، ويعادى فيه : فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذى أطغاه أضله . فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال إبليس لاهل النار : ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** ﴾[1] .

وعلى هذا ، فالقرين هنا فى قوله تعالى : ﴿ **قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ هو شيطانه يختصمان عند الله .

وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو : الملك فيدعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى . وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ، ﴿ **ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ فيقول : الرب تعالى : ﴿ **لا تختصموا لدى** ﴾ ، وقد أخبر ــ سبحانه ــ عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورتى

(١) سورة ابراهيم من الآية ٢٢

الصافات والأعراف ، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه فى سورة الزمر ، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها فى سورة (الشعراء) وسورة (ص) .

ثم أخبر — سبحانه — أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[1] ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا تخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتى ولا أهل معصيتى . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين فى الآية .. وقوله تعالى : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ من تمام قوله : ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ فى المعنى ، أى : ما قلته ووعدت به لابد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور .

قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

يخبر — تعالى — أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك لأنه — تبارك وتعالى — وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو — سبحانه — وتعالى — يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهى تقول : هل من مزيد : أى : هل بقى شىء **تزيدنى** ؟ قال ابن كثير هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث . قال البخارى : عند تفسير هذه الآية : بسنده عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — « يلقى فى النار وتقول هل من مزيد ؟ يضع قدمه فيها فتقول قط قط »[2] .

وهناك طريق آخر للحديث قال البخارى : بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « تحاجَّت الجنة والنار ، فقالت : النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله : — عز وجل — للجنة : أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذاب ، أعذب بك منْ أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ، ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله — عز وجل — من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله — عز وجل — ينشىء لها خلقاً آخر ﴾[3] . وكذلك عند الإمام مسلم وأحمد ، وقال : الحافظ أبو يعلى فى

---

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

(٣) الحديث : انظر صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

— وفى صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٣٤ / ٢٨٤٦ ورد الحديث عن أبى هريرة .

— وفى سند الامام أحمد ج ٢ ص ٣١٤ ورد الحديث بلفظه .

مسنده : عن أبي بن كعب ــ رضى الله ، عنه قال : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « يعرفنى ﷺ ــ تعالى ــ نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عنى ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى ، ثم يؤذن لى فى الكلام ، ثم تمر أمتى على الصراط ــ مضروب بين ظهرانى جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو ، وهى الأعمال . وجهنم تسأل المزيد ، حتى يضع فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وأنا على الحوض » : قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال ــ ﷺ ــ : « والذى نفسى بيده ، إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً »[1] .

وهذا القول : هو اختيار ابن جرير ، وقد قال : ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ فى قوله تعالى : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قال : ما امتلأت قال : تقول : وهل فىَّ من مكان يزاد فىَّ . وكذا رواه الحكم بن أبان عن إعكرمة . ﴿ **وتقول هل من مزيد** ﴾ ، وهل فىَّ مدخل واحد ، قد امتلأت .

وكذا روى عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ **هل امتلأت** ﴾ **إنما هو بعد ما يضع قدمه عليها قدمه ، فتنزوى وتقول : حينئذ : هل بقى فىَّ ﴿ مزيد ﴾ يسع شيئاً ؟ قال العوفى : عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . والله أعلم .**

وقوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ أى : وادنيت وقربت الجنة وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب كقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ .

قال ابن القيم : ــ رحمة الله ــ : أخبر عن تقريب الجنة للمتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

---

(١) سورة التكوير الآية ١٣

(٢) الحديث فى سند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠٧
وفى الدر المنثور فى التفسير ج ٧ ص ٦٠٣ فى تفسير سورة « ق » عن أبى بن كعب .
وانظر ابن كثير تفسير سورة « ق » ج ٧ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ط / الشعب
وانظر كنز العمال ج ١٤ ص ٤٣٦ (باب الشفاعة) رقم ٣٩١٩٦ .

أحدها : أن يكون أوّاباً ، أى : رجّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة إلى ذكره قال عبيد بن عمير : الآواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظاً ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه ، وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الآواب مستعملا لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته ، وطاعته ، والحفيظ مستعملاً : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والآواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته ، وقدرته ، وعلمه ، واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الاقرار بكتبه ورسله ، وأمره ونهيه ، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ، ولقائه فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله ، وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والاقبال عليه ، ثم ذكر — سبحانه — جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ . أى : وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أى : الذى لا موت بعده ولا ظعن ولا رحيل . وقوله : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ أى : لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم . كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[(٢)] .

روى مسلم فى صحيحه من حديث صهيب : قال : قرأ رسول الله — ﷺ — (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجز كموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ ! فيكشف الحجاب ، فينظرون الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة)[(٣)] فالحسنى : هى الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله — عز وجل — كذلك فسرها رسول الله — ﷺ .

(١) سورة (يس) الآية ٥٨

(٢) سورة (يونس) الآية ٢٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب اثبات رؤية المؤمنين فى الاخرة ربهم سبحانه وتعالى — ج ١ ص ١٦٣ رقم ٢٩٧ / ١٨١ عن صهيب .

وعن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن فى الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحشو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ! فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالاً »(١) . رواه مسلم .

وعن سهل بن سعد ــ رضى الله عنه ــ قال : شهدت من النبى ــ ﷺ ــ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، ثم قرأ ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٢) .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا ، فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبداً »(٣) رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن الله عز وجل يقول : لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك . ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ؟ يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك : فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى : شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »(٤) متفق عليه .

فحى على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم
وحى على يوم المزيد الذى به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحى على وادٍ هنالك أنيح ... وتربته من إذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص القيان لا تنقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلم

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٧٨ رقم ١٣ / ٢٨٣٣ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) عن سهل بن سعد السّاعدى ج ٤ ص ٢١٥٧ رقم ٥ / ٢٨٢٥ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٨٢ رقم ٢٢ / ٢٨٣٧ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب الجنة ونعيمها) باب إحلال الرضوان على أهل الجنة .. ج ٤ ص ٢١٧٦ رقم ٩ / ٢٨٢٩ . وفى صحيح البخارى : (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١٤٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

فبينا هموفى عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له ... بأفطار الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السموات جهرة ... فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم ... بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلونى ما اشتهيتم فكل ما ... تريدون عندى أننى أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا ... فأنت الذى تولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم ... عليه تعالى الله فالله أكرم
فيلبائعاً هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدرى ، بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

مواعظ وآداب

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ
لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ
اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

معانى المفردات

﴿ **القرن** ﴾ الجيل من الناس ، ﴿ **بطشاً** ﴾ أى : قوة ، ﴿ **فنقبوا فى البلاد** ﴾ أى : ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب . ﴿ **محيص** ﴾ مهرب ، ﴿ **لذكرى** ﴾ أى : لعبرة ، ﴿ **قلب** ﴾ أى : لُبٌّ يعى به ، ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ أى : أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحى ، ﴿ **شهيد** ﴾ أى : حاضر **فهو** من الشهود بمعنى الحضور . ﴿ **لغوب** ﴾ أى : تعب ، ﴿ **سبح بحمد ربك** ﴾ أى : نزهه عن كل نقص وأثبت له كل كمال ، ﴿ **أدبار السجود** ﴾ أى : أعقاب الصلوات ، ﴿ **يوم ينادى المنادى** ﴾

أي : يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى . ﴿ **من مكان قريب** ﴾ أى : بحيث لا يخفى الصوت على أحد . ﴿ **الصيحة** ﴾ النفخة النائبة ، ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بالبعث والجزاء ، ﴿ **يوم الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **تشقق** ﴾ أى : تتصدع ، ﴿ **بجبار** ﴾ أى : بمسيطر ومسلط . إنما أنت منذر وداع .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنذرهم ــ سبحانه ــ بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم ــ أنذرهم بما يعجل لهم فى الدنيا من ضروب العذاب سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ، ووسط بين ذلك المتقين ومايلا قوته من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لب واع سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام وما أصابه ــ سبحانه ــ أدنى تعب ولا لغوب كما قال ــ سبحانه ــ ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ ثم أمره بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور وسُمع صوت الداعى لذلك بعد النفخ فى الصور ، وتشققت الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وإنا لنعلم ما يقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بعد اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع الذكرى إلا المؤمنين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص** ﴾ .

أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم وكانوا أشد من قومك بطشاً ، وأكثر منهم قوة : كعاد وثمود وتبع ، **فنقبوا** فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء الرزق ، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حُم القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ ، أى : إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة (لمن كان له قلب) ، أى : لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى ما يقال له . ﴿ **أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ أى : استمع القرآن وهو شاهد القلب . وقد ورد فى هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن الكريم .

قال ابن القيم رحمه الله :

« إذا أردت الإنتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به ـــ سبحانه ـــ منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ ، وذلك إن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذى يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد .. فقوله : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى** ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، وهذا هو المؤثر ، وقوله : ﴿ **لمن كان له قلب** ﴾ فهذا هو المحل القابل . والمراد به : القلب الحى الذى يعقل عن الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً** ﴾[1] أى : حى القلب .

وقوله : ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ ، أى : وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام .

وقوله : ﴿ **وهو شهيد** ﴾ أى : شاهد القلب حاضر غير غائب .

قال ابن قتيبه : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولاساه ، وهو اشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته ، عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر : وهو القرآن ، والمحل القابل : وهو القلب الحى ، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتقى وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ .

أخبر ـــ سبحانه وتعالى ـــ أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء ، تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا : إنه استراح فى اليوم السابع تعالى الله عما يقولون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ ثم أمر ـــ سبحانه ـــ نبيه بالتآسى به ـــ سبحانه ـــ فى الصبر على ما يقول اعداؤه فيه ، كما أنه ـــ سبحانه ـــ صبر على قول اليهود أنه استراح . ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه ـــ سبحانه ـــ ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ ثم أمره ـــ سبحانه ـــ بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وبالليل وأدبار السجود .

---

(١) سورة (يس) من الآيتان ٧٠ ، ٧١

قال ابن عباس (أدبار السجود) هو الوتر ، وقال عمر وعلى وأبو هريرة وابن عباس فى رواية أخرى هما الركتان بعد المغرب وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان ادبار الصلوات المكتوبات .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾(١)

وكقوله تعالى : ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناى الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **واستمع** ﴾ يا محمد ، ﴿ **يوم يناد المناد من مكان قريب** ﴾ قال قتادة : قال كعب : الأحبار يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق** ﴾ ، يعنى النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون . ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **إنا نحن ونميت وإلينا المصير** ﴾ أى : هو ـــ سبحانه ـــ الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً** ﴾ ، وذلك أن الله ـــ تعالى ـــ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله ـــ تعالى ـــ [اسرافيل ينفخ فى الصور ، وقد أودعت الأرواح فى ثقب الصور ، فإذا نفخ] إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله ـــ عز وجل ـــ وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ ـــ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله ـــ عز وجل ـــ ، ﴿ **مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر** ﴾(٣)

﴿ **قالوا يا ويلينا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾(٤) .

(١) سورة الحجر الآيات ٩٧ ـــ ٩٩
(٢) سورة (طه) الآية ١٣٠
(٣) سورة القمر الآية ٨
(٤) سورة (يس) الآيات ٥٢ ـــ ٥٤

وفى صحيح مسلم عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ ــ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »[١] .

وقوله عز وجل : ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾ أى : تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال جل جلاله : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ ، وقال ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير** ﴾[٢] .

بيان الحشر إلى الموقف كيف هو وفى أرض المحشر وذكر الصخرة

قال العلامة القرطبى فى « التذكرة » ما ملخصه :

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ .

قال قتادة : المنادى : هو صاحب الصور ينادى من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقيل : باثنى عشر ميلا ذكره القشيرى والأول ذكره الماوردى ، وقيل : إن المنادى جبريل والله أعلم قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد : النفخ فى الصور . ﴿ **ذلك يوم الخروج إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا** ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض المحشر ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾ أى : هين سهل .

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟

قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج ، ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيى واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد تقدم أن الأرواح فى الصور ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى : القبور ، ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ وهذا يبين لك ما ذكرنا وبالله توفيقنا . ورى مسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقى ليس فيه علم لأحد »[٣] .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم : كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ــ ﷺ ــ على جميع الخلائق ج ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٣ / ٢٢٧٨ عن أبى هريرة .

(٢) سورة (لقمان) الآية ٢٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب صفات المنافين) باب فى البعث والنشور ج ٤ ص ٢١٥٠ رقم ٢٨ / ٢٧٩٠ عن سهل بن سعد .

وفى البخارى ج ٨ ص ١٣٥ (باب يقبض الله الأرض) ، (كتاب الرقاق والأدب)

وقوله : ﴿ **أول من يكسى من إبراهيم** ﴾ فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له ، كما خص موسى — عليه السلام — بأن النبى — ﷺ — يجده معلقاً بساق العرش مع أن النبى — ﷺ — أول من تنشق عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقا ، بل هو أفضل من وافى القيامة — ﷺ —

بيان قوله (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

روى مسلم عن عائشة : — رضى الله عنها — قالت : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة **غرلاً** » قلت : يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من ينظر بعضهم إلى بعض »[1] .

واخرج الترمذى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن النبى — ﷺ — قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » فقالت امرأة : أيبصر بعضنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[2] قال : حديث حسن صحيح .

فصل : قلت : هذا الباب ، والذى قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً أى : غير مختونين كما بدأنا أول خلق نعيده . قال العلماء : يحشر العبد غداً ، وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عضو يرد فى القيامة عليه حتى الختان . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ .

أخبر سبحانه : أنه — ﷺ — ليس بمسلط عليهم ، ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ، ويكرهم عليه ، إنما أنت مبلغ كقوله تعالى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا أيابهم ثم إن علينا حسابهم** ﴾[3] . ثم أمره — سبحانه — أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده فهو الذى ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ **سيذكر من يخشى** ﴾[4] وأما من لا يؤمن بلقائه ، ولا يخاف وعيده ، ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ **ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى** ﴾ .

كان قتادة : بعد ما يقرأ هذه الآية يقول : اللهم ، اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .. آمين .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب صفة الجنة — باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ١١٩٤ رقم ٥٦ / ٢٨٥٩ . وفى البخارى كتاب الرقاق والأدب باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم (كتاب التفسير) ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس مع اختلاف يسر فى بعض ألفاظه .

وانظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٢ ص ٣٨ فقد جاء فى الحديث ٢٥٣٩ المروى عن ابن عباس الشق الأول وهو « يحشر الناس يوما القيامة حفة عراة غرلاً كما خلقوا » .

(٣) سورة الغاشية الآيات ٢١ — ٢٦

(٤) سورة الأعلى الآية ١٠

(٥) سورة الأعلى لآيتان ١١ ، ١٢

واخرج أبو بكر أحمد بن على الخطيب ، عن عبد الله بن سعود : « يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا ، فمن أطعم لله أطعمه ، ومن سقا لله سقاه ، ومن كسا لله كساه ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله فى ذلك اليوم » .

باب ما جاء فى حشر الناس إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ، وفى أول من يكسى منهم وفى أول ما يتكلم من الإنسان .

روى مسلم عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : قام فينا رسول الله — ﷺ — بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم — عليه السلام — ألا وإنه يؤتى برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب : أصحابى فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ . قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم ﴾[١] .

أخرجه البخارى أيضا : والترمذى ، عن معاوية بن حيدة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : « ههنا إلى ههنا تحشرون ركباناً ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم على الله وأكرمهم على الله ، وأن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه »[٢] ، وفى رواية أخرى ذكرها ابن أبى شيبة « وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » .

فصل : قوله : ﴿ **غرلاً** ﴾ أى : غير مختونين ، ﴿ **النقى** ﴾ الحوارى وهو : الدرمك من الدقيق ، ﴿ **والعضر** ﴾ بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلاً ، ﴿ **والفدام** ﴾ مصفاة الكوز والابريق . قاله الليث : قال أبو عبيدة : يعنى : أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها) باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ٢١٩٤ ، ٢١٩٥ رقم ٥٨ / ٢٨٦٠ عن ابن عباس وفى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة) باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٤ ص ٣٨ رقم ٢٥٣٩ وفى البخارى (كتاب الأدب والرقاق) باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) الحديث فى صحيح البخارى :

وفى سنن الترمذى (كتاب صفة القيامة) باب ما جاء فى صفة الحشر ج ٤ ص ٣٩ رقم ٢٥٤١ وقال : أبو عيسى : هذا حديث حسن .

تفسير سورة الذاريات

مقدمة :

السورة : مكية ، عدد آياتها : ستون

وعدد كلماتها : ثلثمائة وستون

وحروفها : ألف ومائتان وسبع وثمانون .

مجموع فواصل آياتها : (قفاك معن) .

وسميت بالذاريات : لمفتتحها

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذكر القسم : حقية البعث والقيامة ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ، وثواب أرباب الهداية ، وحجة الواحدانية ، وكرامة إبراهيم فى باب الضيافة ، وفى إسحاق له بالبشارة ، ولقوم لوط بالهلاكة ، ولفرعون وأهله من الملامة ، ولعاد ، وثمود ، وقوم نوح من الدمار والخسارة ، وخلق السماء والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات ، لإجل الدلالة ، وتكذيب المشركين لما فيه للرسول — ﷺ — من التسلية ، وتخليق الخلق لإجل العبادة ، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة فى قوله ﴿ **فلا يستعجلون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون آخذين** ﴾ وفى الطور ، ﴿ **فى جنات ونعيم فاكهين** ﴾ ليس بتكرار ، لأن ما فى هذه السورة متصل بذكر ما به يصلُ الإنسان إليها ، وهو قوله : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك محسنين** ﴾ ، وفى الطور متصل بما ينال الإنسان فيها إذا وصل إليها ، وهو قوله : ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا** ﴾ الآيات .

قوله ﴿ **إنى لكم منه نذير مبين** ﴾ وبعده : ﴿ **إنى لكم منه نذير مبين** ﴾ ليس بتكرار ، لأن كل واحد منهما متعلق بغير ما يتعلق به الآخر . فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية ، والثانى متعلق بالشرك بالله — تعالى — أ هـ .

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه قد ذكر فى السورة السابقة البعث والجزاء ، والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

معانى المفردات

﴿ **الذاريات** ﴾ : الرياح تذرو التراب وغيره أى : تفرقه ، ﴿ **وقراً** ﴾ الوقر : حمل البعير وجمعه أوقار ، أى : أثقال . ﴿ **والحاملات وقراً** ﴾ : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، ﴿ **والجاريات يسرا** ﴾ قيل : هى النجوم ، وقيل : هى السفن ، ﴿ **فالمقسمات أمراً** ﴾ المراد : الملائكة تقسم المقدرات الربانية . ﴿ **إنما توعدون** ﴾ من البعث ، ﴿ **جواب القسم** ﴾ ، ﴿ **إن الدين** ﴾ **الجزاء** بعد الحساب ، ﴿ **ذات الحبك** ﴾ الطرق التى تسير فيها الكواكب . واحدها حبيكة ، ﴿ **قول مختلف** ﴾ متناقض مضطرب ، ﴿ **يؤفك عنه** ﴾ أى : يصرف عن الحق الآتى به الرسول ، ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ لعن وقبح الكذابون ، ﴿ **غمرة** ﴾ جهالة غامرة بأمور الآخرة ، ﴿ **ساهون** ﴾ غافلون عما أمروا به ، ﴿ **آيان يوم الدين** ﴾ أى : متى يوم الجزاء ، ﴿ **يفتنون** ﴾ يحرقون ويعذبون . ﴿ **يهجعون** ﴾ الهجوع النوم ليلاً ، والهجعة النومة الخفيفة ، ﴿ **الأسحار** ﴾ واحدها سَحَر وهو : السدس الأخير من الليل . ﴿ **حق** ﴾ نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم واشفاقاً على عباده ، ﴿ **السائل** ﴾ هو المستجدى الطالب العطاء ، ﴿ **المحروم** ﴾ هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ، ﴿ **آيات** ﴾ أى : دلائل على قدرته ــ تعالى ــ . ﴿ **للموقنين** ﴾

أى : للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، ﴿ **وما توعدون** ﴾ أى : والذى توعدونه من خير أو شر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع** ﴾ .

أقسم ـــ سبحانه وتعالى ـــ بالذاريات وهى : الرياح تذر والمطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات إذا تهشم . كما قال ـــ تعالى ـــ ﴿ **فأصبح هشيما تذروه الرياح** ﴾(1) أى : تفرقه ، وتنشره .

ثم أقسم ـــ سبحانه ـــ بما فوق ذلك وحى : ﴿ **الجاريات يسرا** ﴾ وهى : النجوم التى من فوق القمام ، ﴿ **ويسراً** ﴾ أى : مسخرة مذللة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جرياً سهلاً ـــ ومنهم من لم يذكر غيره وأختار ابن تيميه ـــ رحمه الله ـــ القول الأول . وقال : هو أحسن فى الترتيب والانتقال من السافل إلى العالى ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه ، وذلك قوله ـــ تعالى : ﴿ **فالمقسمات أمراً** ﴾ وهم : المدبرات أمراً .

قال ابن القيم : ـــ رحمه الله ـــ وأقسم ـــ سبحانه ـــ بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية . والدلالة الباهرة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها ، وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح وللسفن ريح ، وللرحمة ريح وللعذاب ريح إلى غير ذلك من أنواع الرياح ، وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها رخاء تارة وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذاباً تارة ، فتارة يحيى بها الزرع والثمار وتارة ، ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة وتارة عقيما وتارة لافحة وتارة جنوبا وتارة دبوراً ، وتارة صبا ، وتارة شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شىء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع من الحيوان الذى على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله ـــ

(1) سورة الكهف آية ٤٥

سبحانه ــ إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات والآذان ، والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجرز ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق الله .. والمقصود أن الرياح أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته .

ثم : أقسم ــ سبحانه ــ بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو . فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شىء . فيأمر الرياح ، فتحمله على متونهما ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض . حامل لأرزاق العباد ، والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقى لأضر النبات ، والحيوان فأنشأه ــ سبحانه ــ فى زمن يصلح إنشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله ، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه .

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمّله الماء ، والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟ ومن أغاث بقطره العباد وأحيا به البلاد وصيرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا ... ــ فسبحان ــ من شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر . وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وسل الجاريات يسرا من السفن . من أمسكها على وجه الماء . وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء ، وطغيان الرياح ؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذى أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها . ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ، ويقاومها . فتتموج فى البحر يميناً وشمالاً . تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذى يمشى على الماء . فيقطع المسافة البعيدة . ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره . مقبلا ومدبراً بريح واحدة تجرى فى موج كالجبال ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾[1] ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه ، وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب ، والشمس والقمر : من الذى خلقها وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ، وفادت بين أشكالها . ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط والأبيض ، والأحمر والزجاجى اللون والدرى اللون ،

---

(١) سورة الشورى الآيات ٣٢ ــ ٣٤

والمتوسط فى قبة الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثن عاماً ، ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك . ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال ، فهو أبدى ، ومنها أبدى الخفاء ، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق فحالما يأخذ الكوكب فى الغروب فإذا كوكب آخر فى مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قددنا من الغروب ، وكأنه رقيبة ينتظر بطلوعه غيبته .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وحدتها تدل على المصار كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كما له ، وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله . فكما جعل الله النجوم هداية فى طريق البر والبحر ، فهى هداية فى طرق العلم بالخالق ــ سبحانه ــ وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهى هداية فى هذا وهذا وأما دلالة (المقسمات أمراً) وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد مد تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد إنما هو على أيدى الملائكة ، فالرب ــ تعالى ــ يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر ، والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ، وبحفظ بنى آدم طائفة وبإحصار أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحى طائفة ، وبالجبال طائفة ، وبكل شئون العالم طائفة . هذا مع ما فى خلق الملائكة من البهاء ، والحُسن وما فيهم من القوة والشدة ، ولطاقة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام فى خدمته ، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم .

ثم أقسم ــ سبحانه ــ بهذه الأمور على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال تعالى : ﴿ **إنما توعدون لصادق** ﴾ أى : ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب ، ﴿ **وإن الدين لواقع** ﴾ أى : إن الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف . والمعنى : أن الذى توعدونه لصادق ، أى : كائن وثابت . وأن تكون مصدرية ، أى : إن وعدكم لحق وصدق .

وإذا تأملت هذا التناسب والأرتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدله والاً عليه ، مرشداً إليه .

قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك قتل الخراصو ن الذين هم فى غمرة ساهون يسألون ايان يوم الدين يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ثم أقسم ـــ سبحانه ـــ ﴿ **بالسماء ذات الحبك** ﴾ قال ابن عباس : يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك : حسنها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد ، وقال أبو عبيدة والمبرد : الحبك : الطريق وقال : شمر : المحبوك فى اللغة ما أجيد عمله والمقصود بهذا كله : ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

ثم ذكر ـــ سبحانه ـــ المقسم عليه فقال : ﴿ **إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك** ﴾ فالقول المختلف أقوالهم فى القرآن وفى النبى ـــ ﷺ ـــ وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** ﴾[(١)] أى : مختلط ملتبس وفى ضمن هذا الجواب : انكم فى أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

وقوله تعالى : ﴿ **يؤفك عنه من أفك** ﴾ ، أخبر ـــ سبحانه ـــ أنه يصدف بسبب ذلك القول المختلف من صدف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله تعالى : ﴿ **وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك** ﴾[(٢)] .

وقوله : ﴿ **من أفك** ﴾ ، أى : من سبق فى علم الله أنه يضل ويؤفك وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الإيمان ، وقيل : إلى الرسول . والمعنى : يصرف عنه من صرف حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً قال : ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ أى : المكذبون : ﴿ **الذين هم فى غمرة ساهون** ﴾ ، وجهالة قد غمرت قلوبهم أى : غطتها وغشتها ، كغمرة الماء ، وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف أو غم ، ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾[(٣)] أى : غفلة وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون فى غمرتهم ، والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك .

---

(١) سورة (ق) الآية ٥

(٢) سورة (هود) من الآية ٥٣

(٣) سورة المؤمنون من الآية ٦٣

قوله تعالى : ﴿ **يسألون أيان يوم الدين** ﴾ ، استبعاداً للوقوع وجحداً . فأخبر ـــ تعالى ـــ أن ذلك ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ والمشهور فى تفسير هذا الحرف : أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة (على) تعطى معنى زائداً على ما ذكروه ، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم فى النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى فى كما تكون (فى) بمعنى (على) . والظاهر : أن فتنتهم على النار ، قيل : فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنة أشد منها ، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾[1] واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التى فى الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر فتنة . فهم لما أتوا بالفتنة التى هى أسباب العذاب فى الدنيا سمى جزاءهم فتنة . ولهذا قال : ﴿ **ذوقوا فتنتكم** ﴾ وكان وقوفهم على النار ، وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم ، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ، ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون فى موقف القيامة ، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فتنتهم ، ثم الفتنة الكبرى التى أنستهم جميع الفتن قبلها ﴿ **ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾ . يقال : لهم ذلك تقريعاً ، وتوبيخاً ، وتحقيراً وتصغيراً .

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن المتقين لله ـــ عز وجل ـــ أنهم يوم معادهم يكونون فى جنات ، وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال .

وقوله تعالى ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ أى : عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ، ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك** ﴾ أى : فى الدار الدنيا ، ﴿ **محسنين** ﴾ بالفرائض كانوا يعبدون الله كأنهم يرونه .

قال ابن القيم : « ذكر ـــ سبحانه ـــ جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون وأنهم ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ من الخير والكرامة .

وفى ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به ، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا

---

(١) سورة البروج الآية ١٠

عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم ، وانشراح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذى أوصلهم إلى ذلك ، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه .

قوله تعالى : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ .

قال ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ أى : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ، ونومهم ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة : قال الأصنف ابن قيس ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال عبد الرحمن ، بن زيد ، بن أسلم . قال : رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله ــ تعالى ــ قوماً فقال : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم فقال له : أبى ـــ رضى الله عنه ــ طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ .

فضل قيام الليل
من الكتاب والسنة

قال تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾(١) .

وهذا الأمر وإن كان خاصاً برسول الله ــ ﷺ ــ إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به ــ ﷺ ــ .

وقال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾(٢) .

قال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً .

وقال تعالى : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم**

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٩

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٦٣ ، ٦٤

نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[(١)] .

قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر .

وقال تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾[(٢)] .

ففض ـ سبحانه ـ التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .

هذا بعض ما جاء فى كتاب الله ، أما ما جاء فى سنة رسول الله ـ ﷺ ـ فهاك بعضه :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :.« أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل »[(٣)] رواه مسلم .

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ « كان يقوم من الليل حتى تنفطرقدماه » ، فقلت له : « لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »[(٤)] متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ، ويفطر يوماً »[(٥)] متفق عليه .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : « سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة »[(٦)] رواه مسلم .

وعن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية »[(٧)] رواه الطبرانى بإسناد حسن .

---

(١) سورة السجدة الآيات ١٥ ـ ١٧

(٢) سورة الزمر الآية ٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الصيام) باب فضل صوم المحرم ج ٢ ص ٨٢١ رقم ٢٠٢ / ١٦٦٣ عن أبى هريرة .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى : ج ٢ ص ٦٣ (كتاب الهجد) باب قيام النبى ﷺ حتى قوم قدتاه .
ـ وفى مسلم فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) باب أكثر الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٥) انظر البخارى (كتاب بدء الخلق) باب من أحب الصلاة إلى الله ، صلاة داود .. الخ ج ٤ ص ١٥٦ عند عبد الله بن عمرو .
وفى صحيح مسلم (كتاب الصيام) ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٨٩ / ١١٥٩ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم : انظر صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب فى الليل ساعة مستجاب فيها الدعاة عن جابر : ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٦ / ٧٥٧ والرقم الذى يليه .

(٧) الحديث فقى مجمع الزوائد (كتاب الصلاة) باب فى صلاة الليل ج ٢ ص ٢٥١ ورد الحديث بلفظه عن عبد الله رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : « جاء جبريل إلى رسول الله — ﷺ — فقال : « يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »[١] (رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن واخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبى) .

وعن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — أنه سمع النبى — ﷺ — يقول : « أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن »[٢] رواه الترمذى وصححه والنسائى وصححه وابن خزيمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »[٣] رواه أبو داود وصححه وابن خزيمة . قال الحافظ المنذرى : أى : له قنطار من الأجر ، ومن أول تبارك إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم .

وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »[٤] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال : أبو موسى الأشعرى لمن هى يا رسول الله ؟ قال : — ﷺ — « لمن آلان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام »[٥] رواه أحمد .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن معاذ بن جبل وفيه « .. ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » .. ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ (يعملون) الحديث[٦] .

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ج ١ ص ٢١٩ باب الايجار فى الموعظة ورد الحديث بلفظه عن سهل بن سعد — رضى الله عنه — وفى الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٣١ رقم ٢٦ ورد بلفظه عن سهل بن سعد .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى : (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٢٩ رقم ٣٦٥٠ عن عمر بن عبسه وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ رقم ١٣٩٨ عن عمر بن العاص .

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب صلاة المسافرين) باب فضل من يقوم بالقرآن .. ج ١ ص ٥٥٩ رقم ٢٦٨ / ٨١٦ .

(٥) الحديث انظر مسند الأمام أحمد ج ٢ ص ١٨٣ عن عبد الله بن عمر .

(٦) الحديث انظر سنن الترمذى (كتاب الايمان) باب ما جاء فى حرمة الصلاة ج ٤ ص ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ عن معاذ بن جبل وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى ــ رحمه الله ــ : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة فى جوف الليل ، فقيل له : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره .

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما ... واذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب ... يا من على سخط الجليل أقاما
ﷺ قوم أخلصوا فى حبه ... فرضى بهم واختصهم خداما
قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجداً وقياما
خمص البطون من التعفف خمرّا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما

قوله تعالى : ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ أخبر عنهم ــ سبحانه ــ بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر ختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجداً وقياماً ، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك كما قال تعالى : فى وصفهم فى سورة آل عمران ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[(١)] .

قال ابن القيم : « وكان النبى ــ ﷺ ــ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً ، وأمره الله ــ سبحانه ــ أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار ، وشرع ــ ﷺ ــ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار .

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة »[(٢)] (رواه الترمذى وقال حديث حسن) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له »[(٣)] (متفق عليه) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٠٨ رقم ٣٦٠٨ عن أنس ابن مالك : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى : (كتاب الجمعة) باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ج ٢ ص ٦٦ عن أبى هريرة .
وفى صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرهم ــ باب الترغيب والذكر فى آخر الليل والاجابة فيه ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٨ / ٧٥٨ عن رواية أبى هريرة .

وفى رواية أخرى عند مسلم عن أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(١) .

وقال : « إن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى هذه السماء الدنيا ، فنادى ، فقال : هل من مذنب يتوب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من داع ؟ هل من سائل ؟ إلى الفجر »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾ هذا مدح ثالث لهم . قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق : هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحما ، أو يقرى به حنيفاً ، أو يحمل به كَلَّا ، أو يغنى به محروماً .

﴿ **والسائل** ﴾ الذى يسأل الناس لفاقته ، قاله ابن عباس وغيره ، ﴿ **والمحروم** ﴾ الذى حُرم المال . وقال قتادة ، والزهرى : ﴿ **المحروم** ﴾ المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً ، ولا يعلم بحاجته . وفى الأثر « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم فيقول الله : ــ تعالى ــ وعزتى وجلالى ــ لأقربنكم ولأبعدنهم » .

ويقول ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ أخبر ــ سبحانه ــ عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ، ضد (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم فى هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذى لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور ، والمحروم المتعفف الذى لا يسأل . وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين ، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر ، والشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين » .

قوله تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ لما ذكر ــ سبحانه ــ أمر الفريقين بين أن فى الأرض علامات تدل على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار والأنهار ، والبحار ، واختلاف ألسنة الناس ، وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات ، والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم ، والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه . قاله ابن كثير .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ــ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٣٩ / ٢٧٠٠

وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة وأبى سعيد ج ٥ ص ١٢٨ أبواب الدعوات وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر مسلم : (كتاب صلاة المسافرين) باب الترغيب فى الدعاء والذكر ج ١ ص ٥٢٣ رقم ٢٧٢ / ٧٥٨ .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ ، قال : « فآيات الأرض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد . فإنها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : ﴿ **وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1] ولاينافى ذلك كونها كروية. فهى كرة فى الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً ، وجعلها مهادا ذلولا توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول والفئوس وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وجعلها بساطاً ، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم فى بطنها ، وطحاها فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل والنجاح . ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته فى جعلها ساكنة . وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه كما تكفأ السفينة فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الالهية أن وضع عليها رواسى يثبتها بها . لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولا على الحكمة فى أن لم تكن فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فيمتنع حفرها ، وشقها . والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشى فيها ، ونبه بكونها قراراً على الحكمة فى أنه لم تخلق فى غاية اللين والرخاوة والدماثة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان ، ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدماثة . وأشرف الجواهر عند الإنسان ، الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد ، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها ، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر ، وأنفع ، وأبرك وإن كانت تلك أعلى وأعز ، فغلاؤها ، وعزتها لقلتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس ، وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور . وما كان كذلك لم يقبل السخونة . فيبقى فى غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ، ولا يتأتى فيه النبات ، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ، ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف فاقتضت حكمته ــ سبحانه ــ أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان ، والأنام والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش فى الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته ، وكذلك خلق منها النوع الإنسانى ، وأعاده إليها ويخرجه منها ..

---

(١) سورة الغاشية الآية ٢٠

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة فهذه سهلة ، وهذه حزنه ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه تربة ، وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة ، وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء ، وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر ، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لا تصلح له ، بل تصلح لغيره ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم ، وهذه مسجرة بالجبال ، وهذه لا تصلح إلا على المطر ، وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله ـــ سبحانه ـــ الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض .

فلو سألتها من نوّعها هذا التنوع ؟ ومن فرّق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها من الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها . ومنافعها ؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجه منها ؟ ومن جعلها ذلولا غير مستعصية ولا ممتنعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بطنها ؟ وفرشها ومهدها وذللها ، وطماها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى يمسكها أن تتحرك فتتزلزل ، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبدع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً ـــ ﷺ ـــ وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـــ كما نشاهده فى الصيف ـــ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة ، التى بها انتظام العالم ؟ ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ؟ ومن الذى جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء ؟ ومن الذى يحييها بعد موتها ، فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ، ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ فى الحبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد ، فإذا حصل الحب فى الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة المختفية فى باطن

الأرض ، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق ، ثم عظم ذلك الولد ، حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه ، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة . كل ذلك صنع الرب الحكيم فى حبة واحدة لعلها تبلغ فى الصغر إلى الغاية ، وذلك من البركة ، التى وضعها الله ــ سبحانه ــ فى هذه الأم ، فيما لها من آية ، تكفى وحدها فى الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وأفعاله ، وعلى صدق رسله ، فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من فى القبور ليوم البعث والنشور ..

فهذا بعض آيات الأرض ، ومن الآيات التى فيها وقائعه سبحانه ، التى أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم** ﴾[1] وقال فى قوم لوط : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم** ﴾[3] أى : بطريق ثابت لا يزول عن حاله وقال تعالى : ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين** ﴾[4] أى : ديارهاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى : ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم** ﴾[5] وقال عن رجل يخرج وحده ، لا عدة له ولا عدد ، ولا مال ، فيدعوا الأمة العظيمة ، إلى توحيد الله ، والإيمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته ، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالصواعق ، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه ، والهالكون أضعاف أضعافهم عوداً وقوة ، ومتعة وأموالاً :

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق ، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا ــ إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً وأقوى شوكة ــ بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من أضعف منهم من اتباع الرسل ؟

(١) العنكبوت آية : ٣٨
(٢) الصافات الآيتان : ١٣٧
(٣) الحجر الآيات : ٧٣ ــ ٧٦
(٤) الحجر الآيتان : ٧٨ ، ٧٩
(٥) إبراهيم آية : ٤٥

ومن الآيات التى فى الأرض ، مما يحدثه الله فيها كل وقت ، ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله — سبحانه وتعالى — فى الأرض ، إقامة للحجة ، على من لم يشاهد تلك الآيات ، التى قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن ، يشاهدون ما يشاهده الأولون ، أو نظيره ، كما قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[1] وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لابد أن يرى الله — سبحانه — أهل كل قرن من الآيات ، ما يبين لهم أنه الله ، الذى لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما يذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير .

قوله تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسهم آيات للموقنين . وقيل : المعنى : وفى خلق أنفسكم من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، ولحم ، وعظم ، إلى نفخ الروح ، وفى اختلاف الألسنة والألوان والصور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الدالة على كمال قدرته ، والشاهدة على وحدانيته (أفلا تبصرون) يعنى بصر القلب ، ليعرفوا كمال القدرة لله — سبحانه وتعالى —

قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكر وتدبر ، حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغيرات ، على أنها محدثات ، والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم ، قدير سميع ، بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات ، لكان الإنسان أكمل منه ، وذلك محال قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾[2] فلانسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل فى نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرّفه . كان نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحما وعظاما ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه فى الحال الأفضل ، التى هى كمال عقله ، وبلوغ أشدة ، عضوا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ، فيدله ذلك على أنه فى حاله نقصه ، وأوان ضعفه ، عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخاً ، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة ، إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره

---

١ — فصلت آية : ٥٣

٢ — المؤمنون الآيات : ١٢ — ١٦

لنفسه ، ولا فى وسعه أن يزايل حال المشيب ، ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك ، أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعاً صنعه ، وناقلاً نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك ، لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر .

وقال الحكماء : إن كل شىء فى العالم الكبير ، له نظير فى العالم الصغير ، الذى هو بدون الإنسان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ . فحواس الإنسان ، أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها ، بمنزله الشمس والقمر فى إدارك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض ، وفيه من جنس الماء العرق ، وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس ، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض ، وكبده بمنزله العيون التى تستمد منها الأنهار ، لأن العروق تستمد من الكبر ، ومثانته بمنزله البحر ، لا نصباب ما فى أوعية البدن إليها ، كما تنصب الأنهار إلى البحر ، وعظامه بمنزلة الجبال ، التى هى أوتاد الأرض ، وأعضاؤه كالأشجار ، كما أن لكل شجر ورقا أو ثمراً ، فكذلك لكل عضو فعل أو أثر والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض ، ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير ، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو .

سبحـــانك اللهـــم أنت الواحـــد ... كل الوجود على وجـودك شاهـد
ياحـــــى ياقيــــوم أنت المرتجى ... وإلى عــلاك عنـا الجبين الساجـد
مـا فى الوجـود سواك رب يُعبـد ... كـلاً ولا مـولى هنـاك فيــقصد
أنت الألـــه الواحـد الحق الــذى ... كل الوجـود لـه يقــر ويشهــد

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، دعاه خالقه وبارئه ، ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والفكر فى نفسه ، فإذا تفكر الإنسان فى نفسه ، استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فإنه إذا نظر فى نفسه ، وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، داله عليه ، مرشدة إليه ، اذا يجده مكوناً من قطرة ماء : لحوماً منضدة وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشددة بحبال

١ ـــ التين : آية ٤

العروق والأعصاب ، قد قمطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائه وستين مفصلاً ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائه وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنايع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات ، التى يؤذيه احتباسها .
وجعل داخل بابى السمع مراً قائلاً ، لئلا تلج فيها دابة ، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابى البصر مالحاً ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه ، فلا يتنغص به لو كان مراً أو **مالحاً** ،
وجعل له مصباحين ، من نور كالسراج المضىء ، مركبين فى أعلى مكان منه ، وفى **أشرف** عضو من أعضائه ، طليعة له ، وركب هذا النور فى جزء صغير جداً ، يبصر به السماء والأرض ، وما بينهما ، وغشاه بسبع طبقات ، وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل على محله علقاً بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب فى ذيل المصراعين ، أهداباً من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالاً ، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك ، وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين ، شغلاً مخصوصاً ، ولكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصا ، لو زاد على ذلك أو نقص منه ، لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة ، وجعل هذا النور الباصر فى قدر عدسة ، ثم أظهر فى تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضا وسواداً ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ، وجعل البياض مستقراً لها وسكناً ، وزين كلاً منهما بالآخر ، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر . ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة ، وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة . لو نقصت عضلة واحدة ، لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التى إنما تنطبع فيها الصور ، إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية ، من جميع الكدورات ، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً ، فإنها لاتزال تراها تنظف عينها بيدها ، من آثار الغبار والكدورات ، وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه إليه ، كما تراه جعلها مرآتين للقلب ، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة

والفطنة ، والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة ، وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب ، فالعين مرآة القلب ، وطليعة ورسوله ، ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء ، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما ، أكثر من تأثر العين على لطافتها ، وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فإنها لو كانت متفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة . .

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبى الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلاً ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها ، وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات ، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الإنعطافات وقف هناك ، فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدى الانسان ، وأما الأذنان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان ، **وأمامه** ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء فتأتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة . وخلقت العينان بغطاء ، والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة . إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرضى لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين ، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بلينها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والنجوم تأثر اللحم إذ المصلحة فى بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار .

ومن ذلك الأنف . نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائماً معتدلاً ، فى أحسن شكل وأوفقه للمنفعة ، وأودعه حاسة الشم التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ومنافعها ومضارها ، ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها . وأيضاً فإنه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه إلى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبداً . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن ذلك . فيدخله هواء كبير . ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلاً . لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته . والهواء الذى يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطراً يصعد إلى الدماغ ، وشطراً ينزل إلى الرئه ، وهو من آلات النطق . فإن له إعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فإنه جعل

مصباً لفضلات الدماغ ، تنحدر منه فى تلك القصبة ، فيخرج . فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها ستراً ، ولم يجعلها بارزة فتستقلها العيون . وجعل فيها تجويفاً . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفه تمنعه من الإدراك والاستنشاق . فيبقى التجويف الثانى نائباً عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة ، مثل ذلك فى العينين .

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف ، كيف يدخله أولاً من المنخرين ، وينكسر برده هناك ، ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئه ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئه إلى القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية فيه . ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم إذا سخن فى الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم إلى الرئه . ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجاً ، فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال . وهو له فى اليوم والليلة ، أربعة وعشرون ألف نفس ، لله فى كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء النفس من الأعضاء ، والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها ؟

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ويمكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدناً للحرارة الغريزية ، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته ، وبقى هنالك ساعة فسخن واحترق . فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت فى الحنجرة والحنك ، واللسان ، والشفتين . والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به .

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عن المحتاج إلى دفعه وإخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هى من أكمل المنافع والمصالح . فإن المقصود الأصلى من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب . فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أخرى . وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام .

ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ، والسعة والخشونة والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها ، فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة . فإن هذا

الاختلاف ــ الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها ــ فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ــ ليس فى الطبيعة ما يقتضيه . وإنما هو صنع الله الذى اتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه . فتبارك الله أحسن الخالقين وتبارك الله رب العالمين . فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر

سبحـــانك اللهـــم أنت الواحـــد كل الوجود على وجـودك شاهـــد
ياحــــى ياقيـــــوم أنت المرتجى وإلى عـلاك عنـى الجبين الساجــد

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام ــ وهي أعظمها ــ ومنفعة الذوق والإدراك وجعله دليلاً على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلاً على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة .

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحمياً ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهل حركته ولهذا لا تجد فى الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه فإن أى عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون ، إلا اللسان . وأيضا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمزجه البدن ويحتاج إلى قبض وبسط . وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ، ولم يتهي منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغائى والله أعلم .

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الأسنان ، والثانى الفم ، وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحداً ولم يجعل على الأذن غطاء . ذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للأكثر آفات طبقين وللمتوسط طبقاً ، وجعل الأقل آفة بلا طبق .

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مراً كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ــ حكمة بالغة ــ فإن الطعام والشراب يخالطه بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا بعد

طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع — وهى الثنايا وما يليها — حادة الرؤس ليسهل بها القطع . وجعل لنواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرؤس ، عريضة ، ليتأتى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأتى بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر . إذ ربما كلت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل إلى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابته كما ينبت الزرع فى الأرض . ولم يكسها سبحانه لحماً ، كسائر العظام سواها . إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ويتلقى عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة **الحيوان** إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه . مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هى المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته — كسائر عظامه — لعدم الحاجة إليها — عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأعطيها وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأت معه حين يولد لأضرت بحلمه الثدى . اذ لا عقل له يحرزه عن عضها فكانت الأم تمتنع من إرضاعه .

فكانت عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التى بينهما وبين المعدة . فإنه يسلم إليها الشىء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه . ثم يرسل إليها منه معلومها المقدر لها . فإذا عجزت عن قطع شىء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه . فإذا كلّت الأسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت .

وهى تصحب الإنسان وتخدمه ما لم يرها ، فإذا وقعت عينه عليها فارقته الأبد وهى سلاح ومنشار ، وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه .

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فإن البدن لما كان حارا رطباً . والحرارة إذا عملت فى الرطوبة فلابد أن تثير بخاراً وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن إلى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلابد أن تحدث مساماً ومنافذ فى ظاهر الجلد . وتلك الأبخرة إما أن تكون رطبة لطيفة . فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً . وإما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلا فإذا ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار إذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال إلى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك إذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء ، فإذا عاد إلى الماء عاد الماء إلى اتصاله الأول فإذا كان الجلد فى غاية اليبس لم يتولد الشعر ، لأن الجلد اليابس إذا انثقب بقيت

تلك الثقب مفتوحة ليبس الجلد . فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه إلى بعض فإن الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فإنه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الإنفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخانى فى تلك الثقبة لا يزال يمده بخار آخر يدفعه أولاً فأولاً الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله فيبقى بعضه مركوزا فى الجلد ، منزلته منزلة أصل النبات وبعضه يطلع إلى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هى البخار الدخانى اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار . والآلة التى بها يتم أمره هى المسام التى ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعراً بإذن الله .

والغاية التى من أجلها وجد نئيان عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة ، والأخر خاص . وهو إما للزينة . وإما للوقاية .

وإذا بان أن الشعر إنما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام . أحدهما حرارة غالية على اليبس . كالعبيان . الثانى عكسه . وهو يبس غالب على الحرارة كالمشايخ . الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف . كأبدان النساء . ففى هذه الأقسام يقل الشعر . وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويبسهم معتدل ينتوى تولد الشعر فيهم .

وفى شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن .

والسبب الذى صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ ، ومن الدماغ الى فوق ، وكان هذا الشعر نتمياً على الدوام ، لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر فبنماء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه .

واما شعر الحاجبين فقيه ـ مع الحس والزينة والجمال ـ وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل على هذا المقدار لأنه لو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب . ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً وأن يكون باقيا على حال واحد فى مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر فى جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد فى طول الجفن لئلا يطول وينمو ..

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، الهيبة . لهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحى ومنها التميز بين الرجال والنساء .

وأما شعر العانة ، والإبط ، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة . ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذ وفر وجد ثقلا وكسلا وغماً . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ، ونتف الإبط . وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذى صاحبها بنتفه ، وكان نتف الأبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع فى هذا وهذا .

وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه أخلى الكفين والجبهة والأخمصين من الشعر ، فإن الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقا للقبض ، وإلصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به . وأيضاً فإنهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة . وأما الأخمصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشى وأعاقه فى المشى كثيرا مما يعلق بشعره من على الأرض ، ويتعلق بما عليها أيضا . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية فى الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخمصين فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو ، وكلما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضا فإن كثرة وطء الأرض بالأخمصين يصلبهما ويجعل سطحهما أملس لا ينبت شيئاً ، كما أن الأرض التى توطأ كثيرا لا تنبت شيئاً .

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، وأظلم الوجه وتدلى على العين . وكان يحتاج إلى حلقه دائماً ، ومنع العينين من كمال الإدراك ، والسبب المؤدى لذلك أن الذى تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفا إلى الجبهة . بل صاعداً إلى فوق ..

ثم يقول العلامة ابن القيم :

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول ، وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف أخرجها الرب تعالى من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طوراً بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة — وهى بيضاء مشرقة — علقة حمراء ، ثم جعلها مضغة ، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق ، والأوتار ، واللحم فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث ، ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة شيئاً بعد شىء ، من غير أن ترى المصور ولا آلته ولا قلمه . فهل رأيت مصورا لا تمسى آلته ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من العجائب . وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع فى تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات والأعصاب والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر ، والتخيل وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد .

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرته فى بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة .

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات . وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية . وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد ثم فوق الجلد الشعر فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقاً .

والمقصود من تخليقها الإحتياط فى صون الدماغ من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان . لابد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم ، ولو لم يكن حافظا لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجىء الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها .. فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته . كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم

والممالك والأمم فى هذا المحل الصغير ؟ والإنسان يحفظ كتباً كثيرة جداً وعلوماً شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة فى هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة فى محل صغير لا ختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضا . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة .

ومن أعجب الأشياء أن القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى .

مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشيء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذى رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو لم يرها قط ، اعتماداً منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضا وهو أطرش جاز له الوطء .

وقد جعل الله ـــ سبحانه ـــ بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرا فى كتابه كقوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا لهم سمعا وابصارا وأفئدة** ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾[٣] وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى . وتفيد فائدتها فى الجملة . لا فى كل شيء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة عن شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً ، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء وثالث جديد لم يكن للعقل شعور به . كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث . ومن هاهنا حصل استخراج الصنائع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن ، وأمور

---

١ ـــ سورة الإسراء الآية : ٣٦
٢ ـــ سورة الأحقاف الآية : ٢٦
٣ ـــ سورة الأعراف الآية : ١٧٩

الزراعة والفلاحة وغير ذلك . فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية . فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان فكان أمراً ذهنياً ، ثم صار وجودياً خارجياً . ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية . ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تكن منه أرباب الفكر كان استخراج الطلوب بهذه الطريقة يتضمن فكراً وتقديراً فيفكر فى استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما — يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً قال تعالى عن الوليد : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر** ﴾[١] فكرر سبحانه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديراً كلياً وتقديراً جزئياً . فالتقدير الكلى أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئى أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فههنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمله .

ثم أنزل إلى العين . وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وإيداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات . وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الإبصار فى قدر العدسة . ثم أظهر فى تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لانسبة لها إليه البته ؟ وجعل تلك القوة الباصرة فى جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان ، لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سببا لاجتماع النور الذى به الإبصار ، ويكون مانعا من تفرقه ، ويكون أبلغ فى الحسن والجمال .

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين .

---

١ — سورة المدثر الآيات : ١١ — ٢٠

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة ــ التى إنما ينتفع بها إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ــ جعل سبحانه الأجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أبداً باختيار الإنسان وغير اختيار ، لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجية . فيتأثر القلب ، ثم يظهر ما فيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما فى القلب يظهر فيهما ، ومرآة لما فى الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين فى المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه وغضبه ، وحبه ، وبغضه ، ونفرته فسبحان الله العليم الحكيم .

ثم اعدل إلى الأذنين ، وتأمل شقهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عونا على إدراك السمع ، وجعلها مُرة لتمتنع الهواء عن الدخول فى الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ ، وجعل فى الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذى يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنزلة السراج الذى يضىء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعانى الغائبة التى ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه فكان جعلهما فى الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول .

ثم انزل إلى الأنف ، وتأمل شكله وخلقته ، وكيف رفعه سبحانه فى وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بابين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة استنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها .. وجعل سبحانه تجويفه واسعاً لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ ، فإن الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطرا منه ــ وهو أكثره ــ ينفذ إلى الرئة ، وشطرا ينفذ إلى الدماغ . ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل فى الأنف أيضا إعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزاً . وذلك أبلغ فى حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سليما ، وجعل تجويفه نازلا إلى أسفل ، ليكون مصباً للفضلات النازلة من الدماغ . وستره بساتر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات فى عين الرائى ..

ثم انزل إلى الصدر تر معدن العلم ؟ والحلم والوقار ؟ والسكينة ، والبر وأضدادها ، فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسان ، وصدور السفلة تغلى بالفجور والشرور والإساءة والحسد والمكر .

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى شاهدة القلب تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل ، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند . كلهم فى خدمته ، إن استقام استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبته ومشيئته والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضى به ، وعنه والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما فى الإنسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل ، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره ، فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن — عز وجل — .

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلى إلىّ ، فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين . وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين كانت إكثر يمين رسول الله — ﷺ — « لا ومقلب القلوب »[1] وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك »[2] قال بعض السلف . القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف .

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح ، والثانى أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

وللقلب جندان : جندى يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلا .

١ — صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قوله تعالى : وُنا الرزاق ذو القوة المتين ٩ /١٤٥
وأبو داود — كتاب الإيمان والنذور — باب ما جاء فى يمين النبى — ﷺ — ما كانت ٣ /٥٧٧ رقم ٣٢٦٣ والترمذى فى الإيمان والنذور حديث رقم ١٥٤٠

٢ — مسند أحمد ٤ /١٨٢

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتذود منه افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله . فأعين باالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جنديين : باطن ، وهو الإرادة والشهوة ، والقوى . وظاهر وهو الأعضاء . فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة ، واحتاج فى دفع المضار إلى جنديين : باطن ، وهو الغضب الذى يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأعداء وظاهر وهو الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ولا يتم ذلك إلا بمعرفته ما يجلب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع كما قال — ﷺ — : « احرص على ما ينفعك »[1] ، ولقوة الشهوة مصرفا وهو التزوج بأربع والتسرى بما شاء ، ولقوة حب المال مصرفاً ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبه المال على هذا الوجه لاتذم ، ولمحبة الجاه مصرفاً ، وهو استعماله فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصرالمظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة . وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل . وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفا وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه ، علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به ...

قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

---

١ — مسند أحمد ٢ /٣٧٠

وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرِمُونه بخطاياكم .

وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم كقوله تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾(١) .

وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب . وفي الحديث الصحيح « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ـــ الحديث

وقوله تعالى : ﴿ **وما توعدون** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ **وما توعدون** ﴾ الجنة . وقال الضحاك : ﴿ **وما توعدون** ﴾ من الجنة والنار . وقال ابن سيرين والربيع : ﴿ **وما توعدون** ﴾ من أمر الساعة .

هكذا يحدد المنهج الرباني بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزيع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد في الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم وهو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين قال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض** ﴾(٤) ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾(٥) ﴿ **أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور** ﴾(٦) .

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعي للخوف ولا داعي للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء بل عليه السعي لذكر الله والمشى في مناكب الأرض والتوكل على

---

١ ـــ سورة هود الآية : ٦

٢ ـــ صحيح مسلم ـــ كتاب القدر ـــ باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ٤ / ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣

٣ ـــ سورة يونس الآية : ٣١

٤ ـ **سورة النمل الآية : ٦٤**

٥ ـــ سورة سبأ الآية : ٢٤

٦ ـــ سورة فاطر الآية : ٤

٧ ـــ سورة الملك الآية : ٢١

الله قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا »[1] .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل لها دائما :

لا تعجلن فليس الرزق بالعمل
الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو جهدنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل .

قوله تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ يقسم سبحانه بذاته العلية أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكو فيه كالا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ — رضى الله عنه — إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه ، وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : فورب السماء والأرض إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون وقال الفراء : إنه لحق كما أن الآدمى ناطق . وقال الزجاج : هذا كما تقول فى الكلام : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قلت : وفى الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا »[2] فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمى ووجوده ، والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده ولا خالجه شك فى أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت فى نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس فى كلامهم يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس .

---

١ — سنن الترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٤ /٤ رقم ٢٤٤٧
وابن ماجة — كتاب الزهد — باب التوكل واليقين ٢ /١٣٩٤ رقم ٤١٦٤
ومسند أحمد ١ /٣٠

٢ — انظر تفسير ابن كثير — سورة الذاريات ٧ /٣٩٧ آية ٢٣

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين وأكده بتشبيهه بالواقع الذى لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً مشاهدا بالبصائر . وإن لم يعاين بالأبصار . ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه لا تستعد له ، ولا تأخذ له أهمية . والمستعد له الآخذ له أهبه لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد . فأكثر الخلق لا ينظرون فى المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولا يتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور . ولا فى رحليهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أين يرحلون ؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الأمانى التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الأمل ، وكأن المقيم لا يرحل ، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل ، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به مطالبون ويعّمرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم إليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها ، ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهى قريرة   ولم تدر فى أى المحلين تنزل ؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته ، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وسار بفكره ، وأمعن النظر . وتأمل الآيات . لفهم المراد من إيجاده . ولنظرت عين الراحل إلى الطريق . ولأخذ المسافر فى التزود والمريض فى التداوى . والحازم ما يجوز أن يأتى . فما الظن بأمر متيقن . كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم . وكأنهم يعانيون الأمر . فأظلمت ربوع الإيمان من أهلها خالية . ومعالمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن على . عن الأوزاعى قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه ، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس . ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ما يقضون فيه من أمر معاده وما هم صائرون إليه . ثم يأخذون فى الفقه .

---

١ ــ سورة الحشر الآية : ١٩

من قصص الأنبياء مع أقوامهم

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ
﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا
فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ
بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ
لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟
مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

تفسير المفردات

(الضيف) لفظ يستعمل للواحد والكثير (المكرمين) أى : عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلهم فى أكرم موضع . (قوم منكرون) أى : قوم لا عهد لنا بكم من قبل . (فراغ إلى أهله) أى : ذهب إليهم خفية من ضيفه ، (سمين) أى : ممتلىء بالشحم واللحم . (فقربه إليهم) أى : وضعه لديهم ، (فأوجس منهم خيفة) أى : أحضر فى نفسه الخوف منهم (امرأته) هى سارة لما سمعت بشارتهم له (صرة) أى : صيحة ، (فصكت وجهها) أى : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : ياويلتنا ، (عجوز عقيم) أى : أنا كبيرة السن لا ألد . (وفى موسى) وجعلنا فى قصة موسى آية . (فتولى بركنه) فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان . (وهو مليم) آت بما يلام عليه من الكفر .

(الريح العقيم) المهلكة لهم ، القاطعة لتسلمهم .

(كالرميم) كالشيء البالى المفتت الهالك .

(فعتوا) فاستكبروا وطغوا . (فأخذهم الصاعقة) فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء . (وما كانوا منتصرين) أى : ما كان لهم ناصر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم بعزته أنه كائن لا محالة ــ سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يقلعوا عما هم عليه فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية . كقوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح من قبل .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى ــ ﷺ ــ مجلى سنته ، ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأتى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيما لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه توجيها لأنظاره حتى يصغى إليه ويهتم بأمره وتنبيها إلى أن الرسول ــ ﷺ ــ لم يعلم به إلا من طريق الوحى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من عالم زمانهم ، فقد كان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسى مما حكى الله عنهم : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾[1] ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل سبحانه ملائكة لإنزال الهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل ذلك أن ينزلوا ضيوفا على إبراهيم بصورة فتيان

---

١ ــ سورة الشعراء الآية : ١٦٥

تصويب أخطاء المجلد السادس

الجزء الخامس والعشرون

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢٥٠	٨	لا إله رب السموات السبع	لا إله إلا الله رب السموات السبع
٥٢٧٥	٢	ثم لا يجاورنك	ثم لا يحاورونك

الجزء السادس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٥٨٧	٥	لحمر	عمر
٥٥٩٣	١٣	نشدم	نقدم
٥٥٩٥	٢٣	اليمكال	المكيال
٥٥٩٧	١٩	دتارا	ونارا
٥٦٠١	٢٢	جر	جد
٥٦٠٩	٨	هم	هما
٥٦٤٢	٦	حكيم بم	حكيم بن
٥٦٤٧	١٣	يغش	يفشى
٥٦٦٢	٨	إنى	أنّى
٥٦٧١	١٥	وما يجدون	وما يحدون
٥٦٧١	٢٠	وعزته	وعترته
٥٧٠٥	٨	سوف	سوق
٥٧٠٦	١٠	قلبى	قلب
٥٧٠٨	٢٥	فأحرروا	فأخروا
٥٧٦٢	٥	الحار	الحارث
٥٧٦٤	٤	الظيم	القيم
٥٨٠٣	٢	مخلوق خالق	مخلوق لخالق
٥٨٠٤	١	ترك	فاختنق من
٥٨٠٥	١٠	تنبتها	تثبتها
٥٨٠٧	٢٦	فواجبا	فواعجبا
٥٨١٧	٢٠	تمبه	تيميه
٥٨٢١	٩	عن أبا	عن أبى
٥٨٢٣	١٣	لما بدع	لما بعد
٥٨٣٩	٨	فأعل	فاعمل
٥٨٥٤	١	زيادة (عن)	ابراهيم

محتويات المجلد السادس

الجزء الرابع والعشرون

آخر سورة الزمر (٣٢ - ٧٥) ، سورة غافر (١ - ٨٥)

سورة فصلت (١ - ٤٦)

الجزء الخامس والعشرون

آخر سورة فصلت (٤٧ - ٥٤) ، سورة الشورى (١ - ٥٣)

سورة الزخرف (١ - ٨٩) ، سورة الدخان (١ - ٥٩)

سورة الجاثية (١ - ٣٧)

الصفحة

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف (١ ـ ٣٥) ، سورة محمد (١ ـ ٣٨)
سورة الفتح (١ ـ ٢٩) ، سورة الحجرات (١ ـ ١٨)
سورة ق (١ ـ ٤٥) ، سورة الذاريات (١ ـ ٤٦)

الصفحة

مطابع الأهرام بكورنيش النيل